وليد عثمان
عشت الموت
رواية
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

عِشتُ الموت

وليد عثمان

الإهداء

إلى

من عبروا أرواحنا

سِراعًا خِفافًا

وتركونا نحيا.. على جمر!

****

لم يعد شيء يؤرقني غير السؤال الذي لم يغادر عقلي منذ خمسين عامًا: ما جدوى كل هذه الرحلة التي تحاصرها ظلمتان، ظلمة الرحم في البداية، وظلمة القبر في النهاية؟

كثيرون اتهموني بالكفر حين كنت أطرح هذا السؤال في حضرتهم، قليلون جدًّا من اعترفوا بأنه يشغلهم أيضًا، لكنهم لا يتوقفون عنده كثيرًا؛ لأنهم عجزوا عن الإجابة عليه.

البعض آثر لي ولنفسه السلامة ورأى أنه لا جدوى من الانشغال بالسؤال، وأن الأولى بنا أن نستسلم لهذا القدر ونرضى بكل ما يقودنا إليه أو يبعدنا عنه.

لم يدرك أحدهم أبدًا أنني لست معترضًا، لكنني أريد أن أفهم، أفهم فحسب. لا أعاند القدر، لكن نهايته المشتركة بين كل البشر: الموت، هي التي تشغلني.

المعتاد أن نخرج من ظلمة بالميلاد، ما لم يرد لنا الله غير ذلك. وبعده، نتوزع في دروب الحياة وتفرقنا خطوطها وتجمعنا بلا اختيار منا، لكن بعد النهاية ماذا يحدث؟

لم يرجع أحد من قبره ليروي لنا وقائع لياليه في ظلمته، ولم نعرف على وجه اليقين ما يجري لهذا الجسد الذي فارقته الروح، وإن كان صاحبه يشعر بنا أم ينسانا كما ننساه.

هل الموت صعب؟

لا تهم الإجابة، فلا حيلة أمامه ولا معنى للخوف منه.

المؤكد أنه الحقيقة الثابتة التي نعرفها، فلم يفر أحد منه مهما قصر عمره أو طال، ولم يجرؤ حتى من أنكروا وجود إله على المجادلة في حقيقة الموت.

هل طول العمر يعني حظًّا أوفر، أم أن قصره راحة مبكرة ما دمنا، مهما عشنا، سنصل إلى النتيجة ذاتها؟

هل يجدي اجتهادنا في الدنيا وبلوغ بعضنا مجد السلطة أو المال؟ هل ندفع بعد الموت ثمن حماقاتنا وجرائمنا بحق أنفسنا والآخرين؟

لا أظن، فالخلود الوحيد أن تبقى حيًّا وسط أحبابك تنهل من متع الدنيا أو تعاقب على ما تقترفه يداك.

ما الذي يفيد من نعموا بالشهرة والسطوة والمال بعد الموت؟ وما الذي يقلق أي لص أو قاتل أو

سفاح أسال دم الملايين في حرب أو غيرها؟

الوعد والوعيد أمران لا ينفصلان عن المجهول الذي ينتظرنا بعد الموت وكل تفاصيله المروية لنا لا نثق في تحققها.

أنا أمامكم الآن، بلغت التسعين بعد أن أفلتُّ من قبضة الموت الذي استمرأ أن يحيا في عائلتنا ضيفًا ثقيلًا، أكرمناه وأطعمناه أجساد عدد من خيارنا، فأطال بقاءه. ربما كنت محظوظًا بهذا البقاء، على الأقل طال استمتاعي بتفاصيل الحياة رغم قسوة بعضها.

الذين يتوهمون أن الموت طريق إلى الراحة لم يقدموا لنا دليلًا على ذلك. حتى ألم المرض أهون من الحرمان من الحياة.

المهم أن تبقى حيًّا، مريضًا، سجينًا، سعيدًا، تعيسًا، أعزب، متزوجًا، أبًا، عقيمًا، ذكيًّا، غبيًّا، فقيرًا، غنيًّا.

كل هذه الصفات التي نشغل أنفسنا بها لا تعني شيئًا ما لم نكن أحياء، فالموت يسخر دومًا من لهاثنا المتعب وصراعنا المهلك بحجة أننا نريد أن نزيد ما نملك أو نترك بصمة في الدنيا.

إن كنتم تقدرون، أعيدوا الذين ملؤوا الدنيا حضورًا واسألوهم إن كان ذلك حماهم من الموت أو نفعهم بعده. اسألوا من عاشوا فقراء أو على الهوامش إن كانوا تأذوا في قبورهم.

الأهم أن تعيش؛ لأنك بالموت تنسى مهما ذهبت إليه محاطًا بدموع من حولك وادعائهم أنهم لن يعيشوا من بعدك.

سيعيشون من بعدك وسيعودون إلى حياتهم سريعًا، الفراغ الذي تركته سيشغله غيرك، والمرأة التي عشقت سينفتح قلبها لغيرك، والولد الذي خفت عليه من قسوة اليتم سيكبر ويحب ويتزوج، والمال الذي أنفقت عمرك في جمعه سيسكر به غيرك أو يواعد امرأة.

ستتحول بالموت إلى صورة باهتة مؤطّرة بسواد تخف حدته مع الوقت، أو ذكرى على «فيس بوك» تضمن بعض علامات الإعجاب أو التعليقات السنوية الخالية من الروح.

حضورك هنا في تفاصيل الدنيا هو ما يعنيك، فلا تفرط فيه ولا تشغل نفسك بما بعده.

لا تجادل الذين يحدثونك عن عمارة الأرض واستخلافك فيها وما ينتظرك بعدها، فالذين ماتوا أجنّة أو رضعًا لم يعمروا الأرض، والذين جاؤوها محرومين من العقل والإدراك وطاردتهم تهمة الجنون مروا بهم خفافًا بلا أثر، فلماذا عاشوا؟

اقبض على لحظة الدنيا، وهي لحظة لا أكثر، صدقوني كرجل عاش تسعين عامًا منشغلًا بالموت منذ عرفته هي لحظة لا أكثر.

الموت لص لا ينشغل باتهامكم له بسرقة الأحبة والأوقات السعيدة، الموت بلا قلب، فلا يترك طفلًا لأمه، ولا أمًّا لصغيرها فيعصمه من اليتم، لا يعنيه ما يربط أبًا بابنه.

الموت لا يفكر ولا يراعي حرمة البيوت والأوقات، لكنه في كل مرة يأتي فيها ويمضي بمن جاء

من أجله يبدل وجه الحياة التي يكرهها بلا سبب.

الموت يحرمك من أبيك أو أمك ويلقي بك في قبضة أخرى لرجل أو امرأة تربيك فتسعد معها أو تشقى، ينزعك من سريرك ويضع رجلًا آخر يقول ما قلته مرارًا لامرأتك ويجد مثلك سبيلًا إلى داخلها، يطردك من عملك، فيصطف الذين هابوك طويلًا ونافقوك واتقوا غضبك أمام وجه جديد يعيدون معه الكرة.

الموت يحرمك من زفافك الذي جاهدت لتقيمه، وإذا ترك لك فرصة لحضوره يخطفك بعده مباشرة، وقد يأخذ معك عروسه.

هو حدث بلا منطق ولا عقل، لكنه في أوقات كثيرة يكون حلًّا لمعضلات وإعادة ترتيب لأوضاع حسبتها لن تتبدل.

مرة أخرى، لا أخاف الموت وأعلم أني أقرب إليه الآن من أي وقت مضى، لكن ما يزعجني أني أقترب من النهاية ومعظم الذين عرفتهم في حياتي رحلوا.

هل من سخرية القدر أن الأموات أكثر حضورًا في حياتي الآن من غيرهم، أستعيد كل يوم سيرهم وتفاصيل حياتهم أو حياتنا معًا، بينما الأحياء الذين أعرفهم، على قلتهم، منشغلون بدنياهم.

لا ألومهم، ولا أنتظر منهم ودًّا؛ لأنه لن يطول.

ولست أسعى بمعرفتي بهم إلى وظيفة أو مال أو غيرهما من المنافع، ولا أنشد في قربهم تسرية عن النفس، فالأموات الحاضرون في تفاصيلي يتكفلون بهذه المهمة، وما بقي في روحي من مشاهد حياتهم يمنحني متعة لا تضاهى، لكنها -ككل شيء- لن تدوم.

دعوني فقط أستعيد لكم بعضًا من هذه المشاهد لأمنحكم جزءًا من متعة الحياة التي لا تعادلها متعة، فكل الوعود التي تطمئننا إلى ما بعدها محل شك.

***

مضى شهران ولم يرسل مسعد خطابات أو شرائط رغم كثرة من عادوا من العراق وكلهم أكدوا أنه بخير وأنهم قابلوه كثيرًا هناك.

كنت أكرر عليهم سؤالًا واحدًا:

«ألم يجد وقتًا ليسجل لنا شريطًا، ليبدد شوق الأسرة إلى أن تأنس بصوته وتستعيد إيقاع ضحكاته التي حرمت منه بسفره؟».

حتى إخوته الذين كانوا يرون فيه شابًّا لا يصلح للفلاحة وأن أمامه وقتًا طويلًا ليستقيم رجلًا قويًّا كما معظم شباب القرية، حنوا إلى وجهه الذي كانوا حين يكشفون عنه الغطاء في الصباح، يرجوهم أن يتركوه نائمًا وهم ذاهبون إلى الحقل لرعايته أو حصاد المحصول.

لم يكن يريد أن يشاركهم في شيء، ولولا قسوتي عليه مرات وخشيتي من أن يتهموني بتدليله ما ذهب مرة إلى الغيط. وعندما يذهب لا يستفيدون منه شيئًا، يختار أيسر الأعمال فينجزها ليقسم لي

إنه شاركهم، أو يقضي الوقت يدور حولهم يقص حكايات عن نساء القرية وفتياتها أو يستعيد مقالب الشباب المتبادلة فيضحك إخوته ويغفرون له كل شيء.

حجتهم الوحيدة الدائمة أن علينا احتماله تعويضًا له عن حرمانه من أمه التي رحلت وعمره سنتان.

هو شاب ابن ليل، مزاجه يتعكر مع ضوء النهار، فإذا حل المساء انتعش وأقبل على الأكل والشاي قبل أن يتركنا بعد صلاة العشاء إلى المقهى في الصيف، أو دكان القصب في الشتاء.

لم يدرك أخواه قسطًا من التعليم، إذ شغلتهما الفلاحة على قسوة تفاصيلها، والبنت لم تبد اهتمامًا بالذهاب إلى المدرسة وجذبتها الخياطة.

أما هو فضيع فرصة الانضمام إلى العدد القليل من المتعلمين في القرية حين سئم الدراسة بعد خمس سنوات ميزته عن إخوته واكتفى بها مؤهلًا لحسبان نفسه ضمن المتعلمين.

ارتدى الجلابية مثل كل شباب القرية، لكنه احتفظ بأناقة لا ينافسه فيها أحد. أصر أن يصنع له عبد الرحيم الخياط جلابيتين كل عام وليس واحدة كإخوته، وأن يفصل له عبده الجزمجي حذاءين: أبيض وأسود.

بلغني مرات أنه يذهب إلى كوبري البحر، ليرقب النساء والفتيات بعد أن يرفعن ملابسهن قليلًا وهن يغسلن الأواني أو القمح تمهيدًا لطحنه.

لم آخذ منه حقًّا ولا باطلًا وأنا أعاتبه؛ لأن واحدة منهن لم تشكه أو تعلن ضيقها من نظراته. حذرته من أن يرد له أحدهم عاقبة ما يفعل بالنظر إلى أخته، فأقسم على الفور إنه سيقطع رقبة من يجرؤ على فعل ذلك!

تشاجر مرات في دكان القصب حين كان يأوي إليه وعدد من رفاقه في الشتاء، ليلعبوا «الكوتشينة» على ضوء لمبة الجاز أو «الكلوب» بتشجيع من صاحب الدكان مقابل عدد من العيدان يوميًّا يظفر بها الفائز.

لم يقبل مرة التنازل عن حقه، لكنه لم يتمادَ مطلقًا في خلاف.

لا أعرف أي واحد من أصحابه أشعل في رأسه فكرة السفر إلى العراق بمجرد أن بلغا سن استخراج الجواز.

لم تكن الفكرة غريبة على القرية التي أصبح نصف رجالها تقريبًا هناك، لكن أحدًا لم يتصور لحظة أن مسعد قد يفكر في هذه الخطوة، فهو لا يحتمل هنا تكليفًا بعمل، فكيف ستمضي أموره هناك؟

اعترضت في البداية، لكن إخوته فاجؤوني بموافقتهم، على الأقل لتنتهي حياته اللاهية، فضلًا عن أنهم لن يتأثروا بغيابه عن أي عمل، فهو لا يشاركهم في شيء بشكل جدي.

لم أنم ليلة عدت من القاهرة بعد توصيله وصاحبه إلى محطة أتوبيس أقلهما إلى الأردن ومنها إلى العراق.

ولم أطمئن إلا بعد أسبوعين حين عاد أحد أبناء القرية من العراق وأبلغني أن مسعد وجد عملًا في

مطعم، في حين توظف صاحبه في «السايلو»، وشرح لي أنه مكان لتجارة الحبوب يشبه «الشونة» عندنا.

موحشٌ سفر مسعد، فحضوره طاغٍ في كل ركن بالبيت، حتى إنني استغربت من تأثر إخوته وافتقادهم له، بينما فاجأتني ابنتي أمينة التي تصغره بعام بتعبير «الدار من غير روح من يوم ما سافر»، رغم أنهما لم يتوقفا عن المناكفة يومًا وشكت لي مرات.

صباح، زوجه أخيه الأكبر صلاح، كلما أتى ذكر مسعد أجهشت بالبكاء. ولما رأت دهشتي نبهتني إلى ما كدت أنساه:

- إنتوا نسيتوا إن أنا مربياه هو وأمينة بعد المرحومة أمه، ده بقى في حكم ابني الكبير مش أخو جوزي..

داعبتها أمينة وهي تذكرها بما كان يفعله مسعد فيها من مقالب، فمسحت دموعها وهي ترد بما يشبه المكايدة:

- خليكِ في حالكِ أنت يا أمينة، مفيش أم بتزعل من ابنها مهما عمل، ربنا يحرسه ويجيبه بالسلامة..

صباح تستطيع استيعاب طيشه، وفرق السن بينهما أزال أي حرج في تعاملهما. وحين بدأ يستوعب الأمور ويكتسب هيئة الشباب، بادرت أنا بتنبيهه إلى أن يلتزم الأدب ويراعي مشاعر أخيه عند التعامل معها وألا يمد يده إليها بلكزة أو «قرصة» ولا يرتمي في حضنها كما كان يفعل قبل ذلك، فاستوعب الأمر.

بعد أن أكمل مسعد شهرًا في العراق، جاء الخطاب الأول مع شاب من القرية.

الظرف يحمل خطه الذي أعرف شكله، لكني استعنت بأكبر أحفادي ليقرأ المكتوب محاطًا بقلوب وزهور» إلى/ يد والدي الحبيب، ومنه إلى الأسرة الكريمة.. وشكرًا لحامل الرسالة».

من أين أتى الولد بهذه الكلمات الدافئة؟ هل هذه تباشير تهذيب لنفسه بفعل الغربة، أم أنه اطلع على كلمات مثلها فوق مظروف أحد خطابات رفاقه في السكن هناك فأعاد استخدامها؟

بعدها بشهر جاءنا خطاب ثانٍ، ثم تواصلت الخطابات والشرائط المسجلة التي تفيض بحنان دافق.

أصرت أخته أمينة ألا نكتفي بالخطابات في ردودنا عليه، وأنه لا بد أن نسجل له شريطًا يفرح فيه بأصواتنا.

- من أين «التسجيل»؟

سألتها، فأتت إجابتها سريعة وكانت دبرت كل شيء:

- اتفقت مع ماجدة جارتنا تسلفني التسجيل بتاعهم بالليل عشان نسهر براحتنا نكلم مسعد.

- ليه الإحراج ده يا بنتي مع الناس؟

- مفيش إحراج ولا حاجة، الجيران لبعضها، وبعدين أهو مسعد سافر نبقى نخليه يبعت لنا تسجيل.

- سيبيه يا بنتي دلوقت يلم نفسه، مش هنشغله بطلباتنا!

- ماشي يا أبا، بس خلينا نسجل له المرة دي وبعدين ربنا يسهلها..

بعد أن انتهت أمينة وزوجة أخيها من حلب المواشي ورمي العلف أمام الطيور، جلسنا لتناول العشاء، بعد صلاة المغرب.

بدت عليهما العجلة في تناول الطعام على غير العادة حينما نتحلق حول الطبلية، وتبادلتا النظرات التي لم نفهم معناها.

نهرهما ابني ناصر مطالبًا بأن تأكلا على مهل مثل بقية خلق الله وإلا تركتا الطعام.

تدخلت لآمره بأن يتركهما على راحتهما، لكني سألت عما بهما.

تركت أمينة الطعام ودخلت إلى غرفتها قبل أن تعود بالجهاز، مطالبة الجميع بأن يستعدوا لتسجيل شريط لمسعد قبل أن تعيده إلى ماجدة.

أصروا أن أفتتح أنا التسجيل.

طالبتني أمينة أن أبدأ الكلام فور أن تضغط على الزر الأحمر، لكني عجزت. تنازلت عن حقي في البدء بحكم أني الكبير، لكن أحدًا منهم لم يرض بأن يسبقني.

ما هذه الورطة التي وضعتني فيها العائلة؟

لم أجرب أبدًا التسجيل، فلم يسافر أحد من العائلة قبل مسعد ولا أعرف كيف ستتدفق الكلمات ولا طبيعة صوتي.

تولت أمينة تهوين الأمر عليّ، وجلست هي وسط الدائرة محتضنة جهاز التسجيل بيد والأخرى على الزر الأحمر تحثني على الكلام..

لم تطاوعني الكلمات، رغم اشتياقي لمسعد، فاقترحت أمينة أن أسجل جزءًا صغيرًا تجرب به صوتي ويشجعني على الاستمرار ثم تحذفه بالطريقة التي تعلمتها من ماجدة وهي تتلو عليها تعليمات التعامل مع الجهاز.

كان ذلك حلًّا جيدًا، بدأت بالبسملة والصلاة والسلام على أشرف المرسلين فتدفقت مني الكلمات تحتضن مسعد وتقبل وجنتيه ورأسه وتسأل عن كل تفصيلة في حياته هناك وتدعو له بالهداية.

حين انتهيت أطلقت أمينة زغرودة طويلة رائقة تشتهر بها فمددت كفي أكتمها مخافة أن يتوافد الجيران علينا متسائلين عن المناسبة.

لم تجد البنت بعد الزغرودة وسيلة تحييني بها إلا لجأت إليها. صفقت وكادت ترقص وقبلتني وهتفت في الحاضرين تطلب منهم تشجيعي بعد هذا التسجيل الممتع، كما وصفته.

- والله الحاج ده أحس واحد يسجل، وعامل مكسوف ومخبي، اللي كنت كاتمة في قلبك طلع كله

مرة واحدة وعرفنا أنت بتحب الواد مسعد أد إيه.. ولعلمك بقى، أنا ما قفلتش التسجيل وكل اللي بقوله ده هيسمعه.

- يا بنت العفاريت، بتضحكي عليا، طيب وحياة أهلك ما أنا مسجل تاني.

- والنبي يا أبا ما تزعل، أنا بدلع عليك، ولا الدلع لمسعد بس؟

- طيب سمعيني اللي اتسجل..

أعادت أمينة الشريط إلى بدايته وتركته ينطلق بما يحفظ.

أدهشني صوتي المنطلق بلا حشرجة ولا سعال، وكلماتي التي تصورت أن مسعد سيكتفي بها زادًا في رحلته التي لا نعلم متى تنتهي.

رأى ناصر أنني وأمينة أضعنا وقتًا حتى فاتتنا صلاة العشاء، وأننا لا بد أن نترك لهم فرصة التسجيل ليدلي بدلوه قبل أن يخرج لأدائها ثم لقاء بعض أصدقائه في المقهى.

طالبته أمينة بأن يتريث، فلا المسجد سيتحرك من مكانه فتفوته الصلاة، ولا المقهى سيغلق أبوابه قبل منتصف الليل فيحرمه من أنفاس «الجوزة».

لولا وجودي لضربها، لكنه اكتفى بتقطيب جبينه وهمهمات لا شك يسب في ثناياها أمينة التي أحرجته أمامي خاصة بذكرها «الجوزة» الي يداوم على تدخينها.

ناصرته صباح التي عبرت عن خشيتها من انقضاء الليل في دلع أمينة، ثم تطالب ماجدة بالتسجيل في الصباح ولا يكتمل الشريط الذي يغادر مع أحد أبناء القرية بعد غد.

عادت أمينة إلى وسط الدائرة ورجت الجميع، وهي تفيض بشرًا، أن يتركوها تسجل أولًا لتكتمل فرحة «الواد مسعد» بكلامها وكلامي قبل أن ينكد عليه البقية.

نهرها صلاح فرفعت يدها معتذرة قبل أن تضغط على الزر الأحمر. صالت أمينة وجالت في الشريط ووضعت مسعد في قلب كل تفاصيل القرية ثم طمأنته بشكل مستتر إلى شخص لم نتبين من هو، لكن صباح نظرت إليها باسمة وكأنها تعرف المقصود. تعجلناها مرة ثانية، وكاد ناصر المتأفف من تأخره يجذب منها جهاز التسجيل، فسألتنا أن ننتظر دقيقة واحدة بشرط أن نصمت جميعًا.

صمتنا على مضض لعل أمينة تفسح مساحة في الشريط لبقية العائلة، فإذا بها تفاجئنا بالغناء:

«يا غالي علي يا حبيبي يا خويا

يا أجمل هدية من أمي وأبويا

حبيبي يا خويا

يا سائل عني ومداري علي

أنا عايشة بحسك وبعطفك لي

عمري ما انسالك كلمة بحنية

قلتها علي دمعة شفتها فى عنيه

من يومها لقيتك أنت أمي وأبويا

وكبرت فى قلبي وعنيه يا خويا

يا حبيبي يا خويا».

وجِم مَن في الغرفة، وخانت صباح دموع فلمعت عيناها واحمرت وجنتاها البيضاوان فدارتهما بيديها وهمت بتركنا.

وجدت نفسي بين شعورين، فرحة بأمينة، وإشفاق على صباح، وبتنا جميعًا أبطال صورة إنسانية حافلة بألوان المحبة والعرى الوثيقة بين أفراد العائلة، والفضل في ذلك كله لمسعد.

أمسكت بيد صباح لئلا تغادرنا، خفت انفراط عقدنا وأن تتبدل ملامح الصورة وتوجهت بنظراتي صوب أمينة:

- خلصت الحفلة بتاعتك يا ست فايزة أحمد، يلا قومي هتخلصي الشريط.. سيبي صباح تسجل شوية..

- هقوم يا أبا خلاص، بس خللي ناصر يسجل الأول عشان مستعجل.

كان ناصر أسند ظهره إلى الحائط وراقت له الجلسة، فأعلن أنه لن يخرج الليلة ودعا صباح إلى أن تبدأ..

تحولت السهرة إلى شحنة من الحنين لمسعد والتعبير عن افتقاده، لم يدخر أينا طريقة لبث أشواقه.

أحس كل منا أنه ومسعد وحدهما، ففاضت محبته في المكان لا تقيم اعتبارًا لفوارق العمر ولا لوجود أمينة وصباح، ولا حتى لوجودي، فصلاح حذره من أن يذهب إلى «الكاولية»، وناصر شجعه على أن يقصدها مرة على سبيل التجربة..

كنت أعرف من الذين سافروا العراق أن «الكاولية» اسم دار البغاء هناك، ولما سألت أمينة وصباح عن المقصود بها تبادلت وصلاح وناصر النظرات ولم نرد.

بعدما أخذ كل دوره، نظرت صباح في الشريط المستقر في قلب جهاز التسجيل قبل أن تبلغنا بأن مساحة صغيرة باقية فيه وترجونا أن نتركها لها تتحدث فيها بمفردها إلى مسعد قبل أن تنهي الشريط بأغنية.

بنت الخطابات والشرائط، جسرًا من الأشواق والحب بيننا وبين مسعد طوال عامه الأول في العراق.

كانت كل جلسة لكتابة خطاب نستعين فيها بحفيدي فريد، ابن صلاح الأكبر، أو لتسجيل شريط، أقرب لعيد نتهيأ له، بل إنه لما عاد في أول إجازة أعدنا قراءة ما أرسلناه وما أرسله من خطابات وسماع ما تبادلناه من شرائط.

كنا نضحك، خاصة مما نسمعه حتى يتجاوز صوت ضحكنا حدود منزلنا ومنازل الجيران، كأننا

في حالة اكتشاف لأنفسنا.

تحول البيت في وجوده إلى مزار، الأقارب والأصدقاء لا ينقطعون، وأهالي من يعملون في العراق يتوافدون علينا للسؤال عنهم وأخذ ما أرسلوه معه من خطابات وشرائط وأموال وهدايا.

لم ندعه يخرج أبدًا في الأسبوع الأول، أصبح مركز البيت وخشينا أن ينهار إذا تحرك.

كنت أنا وأمينة وصباح أكثر من يجلس معه يروي لنا يومياته في العراق، وينضم إلينا صلاح وناصر في المساء حين يعودان، فهما مشغولان منذ بداية أكتوبر بجمع القطن من أرضنا وأراضي أصدقائهما بالتناوب.

لمحت في عينيه رغبة في الانفراد بي، وكنت الأحوج إلى ذلك لأسأله عن أحواله في عامه الأول بالعراق.

لما حانت اللحظة، لم يراوغ كثيرًا، قرأت كل قصائد العشق في عينيه قبل أن ينطق باسم البطلة.

- يا حاج، أنا معايا قرشين كويسين وعايز أخطب قبل ما أسافر..

- مين يا مسعد؟

- سامية بنت عبد الله البنهاوي.

- مش دي اللي كانت عند أختك أمينة الصبح؟

- أيوه..

- يبقى دي اللي كانت أمينة في كل شريط بتطمنك عليها وصباح تغمز لها؟

صمت وبان عليه خجل نادر، لم أشأ أن يستغرقه فوضعت يدي في «سيالة» الجلباب وأخرجت علبة سجائر غير مألوفة و»مشط» كبريت.

- يعني لما تقف على رجلك شوية تشرب سجاير أجنبي وعايز تخطب؟ ماشي يا سي مسعد..

- موافق يا أبا؟

- على خير الله يا مسعد، بس دخول بيوت الناس مش لعبة، يعني أما نروح لعبد الله هنتفق معاه على إيه؟ مش عايزك تصغرني..

- يوافق بس الأول يا أبا، ونتفق على اللي الناس كلها بتتفق عليه وأنت وصلاح هتتفاهموا معاه.

تدارست أمر خطوبة مسعد مع صلاح، فنبهني إلى أن ذلك قد يوغر صدر ناصر، فالعادة أن يتزوج الكبير أولًا، وأن ادخار مسعد مبلغًا من سفره لا يعني تجاوز أخيه.

اتفقنا على أن نبحث لناصر عن عروس، وأن يتزوج وأخوه بعد حصاد قطن العام المقبل في عرس واحد، يدفع فيه مسعد ما يدخره بعد سفره ونكمل البقية من عائد بيع المحصول.

مضت الأمور على ما يرام، احتفلنا بخطبة مسعد وسامية، وناصر وعفاف، شقيقة صديقه المقيم

في عزبة مجاورة.

زادت الفرحة بأن حضر مسعد معنا الاحتفال بمولد سيدي أبو الفتح، ودعونا أسرتي سامية وعفاف إلى عشاء ليلة المولد التي اعتادت كل أسرة تجهيزه في هذ المناسبة.

وبعد العشاء اتخذنا، رجالًا ونساء، أماكننا فوق سطح البيت المشرف على ساحة الاحتفال للاستماع إلى الشيخ عبد المعبود -»الصيييت» الذي يحيي الليلة منذ سنوات- حتى الفجر.

بعدها بأيام، سافر مسعد وعادت الشرائط والخطابات منه وإليه. الجديد أن سامية خطيبته كانت ضيفتنا في كل مرة نسجل فيها شريطًا أو نكتب خطابًا، وكانت بالطبع تتبادل معه خطابات خاصة تخجل من أن يطلع أحد على محتواها، لكننا كنا نعلم به.

هي تستعين بفريد ليكتب لها ما ترسله إلى عمه مسعد ويقرأ لها ما يبثه لها من أشواق، وحين يحتويه حجري يبوح فريد بكل شيء، رغم أنني حذرته مرارًا من إفشاء الأسرار ولم يرتدع حتى اضطررت إلى تخويفه من عواقب أن يروي ذلك لأحد غيري.

مر العام سريعًا، سلمنا المحصول الوافر من القطن إلى الجمعية الزراعية وقبضنا الثمن بعد شهر، وأضفنا إليه ما ادخره مسعد قبل أن يأتي في إجازة جديدة وبدأنا في حساب تكاليف فرحه وأخيه.

اقترح صلاح أن يقتصر الاحتفال بزفافهما على غداء للضيوف، نجمع خلاله ما لنا من «نقطة» عند أهل القرية والأصدقاء خارجها، لكنهما رفضا، وكان مسعد أكثر إلحاحًا في إقامة حفل ليلي تحييه فرقة وراقصة.

هاج صلاح واعتبر الفرقة «مسخرة» واكتفى ناصر بمتابعة الخلاف من غير أن يبدي رأيًا، لكن مسعد غضب وهدد بأن يسافر تاركًا كل شيء قبل الزواج.

تمهلت في إبداء رأيي حتى طلبه صلاح وهو يبدي اعتراضه على الراقصة فأقنعته بألا يفسد فرحة أخويه، فنحن لا نزوج كل يوم أحدًا ولن ينقص من احترام الناس لنا أن نفرح في هذا اليوم بالطريقة التي يتبعها كثيرون، ثم إن الراقصة لن تظهر مع الفرقة بأدواتها النحاسية أكثر من ساعة، نصفها عقب صلاة العصر مع مد مائدة الغداء والآخر في السهرة بعد العشاء ثم ينفض كل شيء.

لم يقتنع صلاح، لكنه ترك لي الأمر فأبلغت مسعد وناصر بموافقتي، فقبّلا يدي وانصرف كل إلى بيت خطيبته.

بعدها بدأنا التجهيز ليوم الفرح، قررنا أن نذبح جاموسة صغيرة وأن يمسك «الكرار» السيد صابر، ليس لأنه خال العريسين فقط، ولكن لأنه يملك حزمًا يمكنه من إدارة توزيع اللحم و»البالوظة» على الضيوف، وألا يترك المسألة رهنًا برغبات القريبات وطمع كل واحدة في طبق لها أو لابنها.

ولتغضب منهن من تغضب، فالأهم أن يرضى مدعوونا كلهم.

أتى الجزار صباح يوم الفرح، ذبحنا أمام المنزل، ونقشت النسوة بالدم علامات الفرحة بأكفهن على

الحوائط وانطلقت الزغاريد في وجود أقارب عفاف عروس ناصر؛ لأنهم اضطروا إلى فض «التسريرة» أمس بعد أن توفي فجأة أحد جيرانهم ولم يكن ممكنًا الاستمرار في الاحتفال بكل ما يتضمنه من زينة للعروس وجمع «النقطة» من صديقاتها ومجاملي أسرتها.

ساعدنا عدد من الجيران والأقارب في ذبح الجاموسة وتقطيعها وإعداد «الكوانين» لطبخها، لكن بعد الظهر بدأ تدفق المزيد منهم للمعاونة في حمل أواني اللحم ورصها في غرفة «الكرار» بجوار الأرز والطبيخ و»البالوظة» وتسليم المفتاح للسيد صابر ليكون الوحيد المخول بدخول الغرفة.

توالى المدعوون من الرجال بعد صلاة العصر، بينما لم يتوقف غناء النساء منذ بدأنا الذبح.

وقفت وصلاح في استقبال المهنئين ومرافقتهم إلى «المضيفة» مكان الغداء، وجلس فريد أمامها بدفتر «النقوط» يسجل اسم كل من ينتهي من الغداء والمبلغ الذي سلمه له، يعاونه في ذلك أحد الأقارب.

تنقلت مرات بين «الكرار» لأطمئن من السيد إلى أن كل الأمور بخير، وبين تجمع النساء وسط المنزل بعد أن أخبرني صلاح ساخطًا أن أمينة ترقص وسطهن، وبين موقع فريد أنبهه إلى اليقظة في تسجيل الأسماء ومبالغ «النقوط».

خجلت أمينة حين رأيتها للمرة الأولى ترقص، فنزعت الطرحة التي تلفها حول وسطها وانزوت وسط النساء، فابتسمت وعدت إلى مكاني حيث أستقبل المدعوين.

في المرة الثانية، سبقت أنا خجلها بابتسامة أكبر من الأولى فلم تنزع الطرحة، وإن قلت حركتها، فبدأ وسطها حائرًا بين الاختباء ومواصلة الرقص.

شجعتها صباح على الاستمرار حين قامت ترقص معها فتصنعت تجهمًا خشيته أمينة، لكن صباح صرخت من وسط الدائرة وكلها نشوى تسألني الرضا:

- يا عم الحاج سبنا نفرح، يا ريت كل يوم فرح، ولا هي الرقاصة اللي أنت جايبها أحسن مننا؟

- والنبي يا أبا ما تيجي جبنا حاجة وهاتاخد فلوس، إنما إحنا بنرقص بلقمتنا!

أدرت ظهري مغادرًا فكأنما أخذت النسوة تصريحًا بالمواصلة، فارتفع إيقاع الطبلة وانضمت راغبات في الرقص إلى صباح وأمينة حتى كاد الأطفال يضيعون بينهن.

كنت أشعر بتعب من كثرة الحركة ومتابعة التفاصيل، لكن الفرحة تدفعني إلى الصمود.

لاحظ صلاح تعبي، فطالبني بالنوم ساعتين على الأقل، فالعرس لن ينتهي قبل منتصف الليل، وهو يستطيع أن يقوم وحده بواجب استقبال الأقارب والمدعوين.

قصدت غرفتي دون أن أنتبه أنني لن أستطيع النوم وسط كل هذا الضجيج، فشهية النساء للغناء والرقص مفتوحة، وجلبة الأطفال لا حد لها.

لا مانع إذًا من فرد جسدي على السرير حتى دون أن أغمض عيني، فالوقوف أعيا ظهري ورجلي.

أخرجت علبة الدخان ولففت سيجارة، كنت في حاجة إلى من يمشي بيديه على رجلي فينزع ما بهما من ألم، لكن لا صباح ولا أمينة ستتذكرانني الآن.

كانت أم صلاح فقط هي التي تترك الجميع في أي مناسبة وتسألني إن كنت في حاجة إلى شيء!

منذ أن رحلت لا ينتبه كثيرون إلى تفاصيلي الصغيرة، كثيرًا ما شعرت في غيابها بأني طفل تائه في فرح أو مولد، مجرد جسد تتدافعه الأجساد المحتشدة.

هل كانت ستتذكرني الآن ونحن نحتفل بزواج اثنين من الأبناء؟

نعم كانت ستفعل، فلم تنسني مرة، حتى حين كانت تذهب لمناسبة تخص أقارب أو أصدقاء كانت تستأذن لبعض الوقت وتعود إلى البيت لتطمئن إلى أنني تناولت طعامًا واسترحت، بل كانت تتفقد علبة الدخان حتى لا ينفد في غيابها وأضطر للذهاب إلى الدكان بنفسي لشراء المزيد.

لم تقصر أمينة أو صباح في حقي يومًا، لكن هل تقدر يد إحداهما أن تزيل أثر السنين من عظامي وقلبي أو أن تبدد خوفي من شيء قادم؟

استيقظت على صوت أمينة تدعوني إلى أن أكتفي من النوم، فأذان المغرب اقترب والمدعوون ملؤوا الشارع والترحيب بهم استنزف كثيرًا من جهد صلاح، بينما لم ينشغل مسعد وناصر بغير أصحابهما المتحلقين حولهما في غرفة أحدهما.

كانت أعدت الشاي ووضعته إلى جواري، قبلتها داعيًا الله أن أعيش إلى اليوم الذي أزفها فيها إلى زوج طيب، فكست الحمرة وجهها وانصرفت.

خرجت إلى الشارع أرحب بمن جاء بعد انصرافي، وأحيي أعضاء الفرقة الذين توقفوا عن العزف لاقتراب أذان المغرب وطلبوا شايًا.

بعد صلاة المغرب، جاءت سيارات العروسين بأقاربهما فاستقبلتهما الفرقة بأحسن ما يكون.

دخلت العروسان سريعًا من النافذة إلى غرفتي كل منهما على أكتاف أقاربهما، خوفًا من «عمل» مدفون تحت العتبة، وبدأت صباح وأمينة في نثر الملح في وجوه المحتشدين.

بقيت العروسان مع بعض قريباتهما وصباح وأمينة، لما بعد صلاة العشاء حين خرج مسعد وناصر إلى بيتي صديقيهما يوسف وصبحي، اللذين ظفرا باستضافة استحمام العروسين.

في بيت يوسف، ترك مسعد رأسه للحلاق وفرد «الفوطة» المربوطة حول عنقه لمن يريد أن يضع مبلغًا بسيطًا للحلاق.

وفي بيت صبحي، فعل ناصر الأمر نفسه، وغسلا رأسيهما تعبيرًا عن استحمامهما في بيت صديقيهما وارتدى كل منهما جلابية الزفاف وحذاءه.

بعد أن انتهيا، خرج كل في زفته حتى التقيا في ساحة قرب البيت، فأصر صلاح أن يجلس العريسان قليلًا ليرقص أمامهما من يشاء.

تجاورت بوابتا العريسين في الساحة، وبدت لمسات أصدقائهما في تجهيز كل بوابة يمشي تحتها

العريس، وخلفه طفل يحمل له الكرسي ثم النساء يغنين ما طاب لهن. وأمام العريس يمضي أقاربه وأصدقاؤه ممن يحبون حضور الزفة، بينما ينتظره البقية عند البيت.

كانت جريدتا كل بوابة الخضراوان تلتقيان في الأعلى برباط محكم ثم تتوزع عليهما البالونات وحبات من اليوسفي تحتاج إلى من يحميها لئلا يتخطفها الأطفال.

تخلى صلاح عن وقاره ولف شاله حول وسطه وأشار بيديه طالبًا توسيع الدائرة قبل أن يبدأ الرقص أمام أخويه.

اللقطة النادرة لصلاح بثت الحماس في قلوب الجميع، فعلا التصفيق مع إيقاعات الفرقة، وانضم إليها أخواه العريسان فجاءتهم صباح وأمينة من خلف البوابة ترشان الملح في وجوه الجميع بينما التهبت حناجر النساء غناء في الخلف:

«ورا يا حاسد ورا، خلي الزفة منورة».

***

وصلت زفة مسعد وناصر إلى مكان الاحتفال أمام البيت، ضممتهما إلى حضني بعد أن قبلا يدي.

أصررت على الرقص أمامهما حتى تملكني التعب، احتضنني صلاح وقادني إلى موقعي بين المدعوين، وطلب من أخويه أن يجلسا بجوار عروسيهما المنتظرتين في الكوشة المثبتة فوق «مصطبة» الدار.

تنافس الرجال في الرقص ومنح الفرقة ما تيسر من «النقوط»، وتناوب المقربون على التصوير مع العرسان حتى انتهت الليلة بسلام وذهب كل عريس بعروسه إلى غرفته التي ثبتت بوابة الزفة على بابها.

لم يمكث مسعد أكثر من شهر مع عروسه، وقابل كل محاولات استبقائه لمزيد من الوقت بالإصرار على العودة إلى العراق التزامًا بموعده مع صاحب المطعم.

رجوته أن يبقى شهرًا آخر لكني لم أفلح في إقناعه. ودعته وأنا أطمئنه إلى أن زوجته ستبقى بيننا معززة مكرمة ولن تذهب إلى بيت أهلها في غيابه، خاصة أنه لم يمض على زواجهما الكثير.

أقام مسعد وليمة دعا إليها عددًا كبيرًا من الأصدقاء والأقارب قبل عودته إلى العراق.

وفجر يوم سفره، حرص على زيارة قبر أمه التي يحتفظ لها بملامح مشوشة من الصورة المعلقة فوق سريري، لكنه يحب سيرتها حين تتدفق معطرة بالحب والوفاء في حكايات جاراتها وصاحباتها.

اكتشف أمام قبر أمه القريب من حقول القرية، أنه لعب كثيرًا على مقربة منه في طفولته ولم يفكر في أن يزوره ليقرأ لها الفاتحة مرة.

تذكر أن كل همه وأطفال القرية المتناثرين في حقولها لمساعدة آبائها، كان أن يحصلوا على ما يقدمه زائرو المقابر من «رحمة ونور» على أرواح أقاربهم، ومعظمه لم يخرج عن العجوة

والبرتقال و»القرص».

قليل منهم، خاصة القادمين من المركز والقاهرة ومقتدرين من القرية، كانوا يعطون الأطفال عملات معدنية من فئة العشرة قروش والعشرين قرشًا.

لا يعرف مسعد لماذا قادته نفسه الآن إلى زيارة قبر أمه، لكنه شعر بالارتواء وهو يسقي «الصبارة» الموضوعة فوقه قبل انصرافه إلى البيت حيث ينتظره مودعوه.

نهرته حين اقترب من البيت حيث كنت أنتظره أمامه؛ لأنه سيتأخر ويؤخر المسافرين معه عن موعد الأتوبيس الذي سيتحرك مساء من القاهرة إلى الأردن ومنه إلى العراق.

كانت الحقائب جاهزة وفيها -مما أعددناه له- طعام، والسيارة «البيجو» التي ستنقل مسعد ومن معه إلى القاهرة مستعدة للانطلاق.

دخل مسعد غرفته وخلفه زوجته، لعله كان يمنحها وداعًا خاصًّا ويوصيها بأن تحسن معاملتنا وتتآلف معنا، وعاد بجلباب أزرق زاهٍ بدلًا من الذي كان يرتديه في المقابر.

صممت على أن أوصله إلى القاهرة فرفض بشدة إشفاقًا عليّ، فعرض صلاح وناصر أن يذهب أحدهما معه، فتكرر رفضه حتى لا يتعب أحدًا منا.

استبقيته في حضني طويلًا، ثم ودعه صلاح وناصر وأمينة وعفاف زوجة ناصر وبعض الجيران والأقارب، واكتفت زوجته سامية بسلام خجل عليه، ولم تستطع صباح أن تتمالك نفسها فاحتضنته، بعد أن كانت اعتادت السلام عليه باليد فقط.

بدأت دموع تلمع في عيون بعضنا وكادت تربك خطوات مسعد، فنهرنا جارنا الحاج شحاته مطالبًا بألا نعطله بهذه الميوعة.

ألقى مسعد بنفسه في السيارة بسرعة فتحركت ونحن نلوح له ولما اختفت عن أنظارنا دلفنا إلى البيت وقصد كل منا ركنًا يجمعنا صمت لا أعرف متى انتهى.

***

بعد شهر جاءنا مظروف كبير من مسعد مع أحد العائدين من العراق، فيه خطاب وشريط كاسيت ملفوف بلاصق من عدة طبقات وتعلوه عبارة «إلى سامية.. زوجتي الحبيبة».

فهمنا، بمساعدة حفيدي فريد، أن الخطاب للعائلة كلها، لكن الشريط لسامية التي ناكفتها أمينة وصباح وعفاف في محاولة للاشتراك معها في الاستماع إليه.

كادت سامية بحسن نيتها أن ترضخ لطلبهن، لكني اصطنعت غضبًا منعهن من الاستمرار وأكدن أنهن يمزحن معها، فليس معقولًا أن يستمعن معها إلى ما توقعن أن مسعد قاله من عبارات التغزل فيها.

كان الخطاب مطمئنًا دافئًا لم يستثن أحدًا إلا وأهداه السلام، وفي نهايته اعتذار من مسعد عن عدم إرسال أموال هذه المرة؛ لأن الفترة التي قضاها في العراق لم تسعفه لتدبير مبلغ.

أما سامية فقضت ليلها في الاستماع إلى شريط مسعد بعد أن استعارت «تسجيل» ماجدة، حتى إنها استيقظت متأخرة عن موعدها اليومي ولم تشارك في أعمال البيت التي تكفلت بها أمينة وصباح وعفاف مبكرًا، ولم يشأن أن يشغلنها بعد أن زاد الشريط تأثرها بغياب زوجها، كما توقعن.

كنت أمام البيت أدخن سيجارة مع الشاي حين أتتني سامية تمشي على مهل كأن على كتفيها ثقلًا.

كان شيء محبوس داخلها تود التعبير عنه ولم تقو على ذلك فبكت.

كنت أفهم معاناة شابة في عمرها انتقلت حديثًا إلى بيت غريب عنها بكل من فيه وما فيه، والشخص الذي كان يمكن أن تشعر بالأمان في جواره، وهو زوجها، سافر وتركها أسيرة لحظاتهما السعيد اللاهثة ولعله حين بثها بعضًا من أشواقه في الشريط هيج شجونها.

ربت على كتفها واكتفيت بالقول: «ربنا يجيبه بالسلامة يا بنتي»، فأتاني الرد من أعماقها: «يا رب يا أبا».

عادت سامية إلى داخل الدار تغالب دموعها، وتركتني أسأل نفسي عن حقيقة هذا الولد الذي يترك شيئًا من روحه في كل من يعرفه وتبقى أنفاسه في أي مكان يقصده.

بعد شهرين آخرين، جاء خطاب وشريط جديدان من مسعد في يوم أتتنا فيه بشارة؛ فسامية تشعر بجزء منه يكبر في أحشائها.

لم أكن منتبهًا للأمر، فاجأتني صباح بتوقعها قدوم حفيد جديد، وطلبت أن نكتم الأمر حتى تحسمه «الداية» حين تزور سامية مساء.

عندما تأكد الخبر، طغت علينا الفرحة وانطلقت زغاريد صباح وأمينة في البيت، ولم يدرك أي منا أن عفاف وناصر ليسا بيننا.

كانت عفاف علمت بما يدور عن حمل سامية، وانزوت في غرفتها تبكي مشغولة بما سيكون عليها موقفها أمام الناس وقد تزوجتا في يوم واحد.

ولما رجع ناصر من الحقل وعرف سبب الاستبشار على وجوهنا، قصد غرفته بسرعة وهو يتوقع ما ستكون عليه حال زوجته، ولم يخرجا منها.

ما إن قالت أمينة عقب الزغاريد «عقبال عفاف يا رب»، حتى أدركنا خطيئتنا فقصدت غرفة ناصر، ولما أذن لي بالدخول بدأت الحديث مباشرة إلى عفاف عن أن الإنجاب -كغيره من الأشياء- رزق يوزعه الله كيف يشاء وقتما يشاء، وأنه يجب ألا تتعجل رزقها.

لم أتركهما حتى خرجا معًا وباركا لسامية التي كانت تشعر بالخجل ومعها صباح وأمينة، فاحتويت الموقف بدعوتهن إلى إعداد العشاء حتى نتفرغ بعده لقراءة خطاب مسعد ثم تتوجه سامية إلى غرفتها لتسمع الشريط.

***

كان بطن سامية يكبر شهرًا بعد آخر ومعه أحزان عفاف التي حذرت ناصر من الضغط عليها

بسبب تأخر الحمل، لكن الأزمة صنعتها أمها التي تزورها يوميًّا وتختلي بها في غرفتها .

أنتت أم عفاف تستأذني في أن تصحبها إلى الشيخ متولي، الذي تتناقل النساء بركاته في مساعداتهن على الحمل.

أخجلتها بردي الجاف عليها بأن الموضوع يهمنا فقط كعائلة تتمنى أن يولد شخص جديد حاملًا اسمها، وأننا لا نستعين على ذلك بالدجالين، إنما بالصبر ثم الأطباء إذا لزم الأمر.

بعدها قلت زياراتها لعفاف التي عادت إلى المشاركة في أعمال البيت، والأنس بوجود حفيدي فريد معها في غرفتها حين لا يكون في الحقل مع أبيه وعمه أو في المدرسة.

بعدها جاء أكثر من شخص من العراق، لكن أيًّا منهم لم يحمل شيئًا من مسعد الذي كان وعد بإرسال تسجيل يحمينا من الاستعانة بجهاز ماجدة.

لم يصل تسجيل ولا خطاب ولا أموال وعد بإرسالها، لكن ذلك كله لم يكن مهمًّا لنا، كنا فقط نريد الاطمئنان عليه.

بدأ قلقنا يزداد بإجماع كل من وصل على أن مسعد بخير لكنه لم يحملهم شيئًا لنا، ولا حتى سلامًا.

كان الأمر غامضًا خاصة أن آخرين قدموا من العراق ولم يقدموا لنا جديدًا.

فكر ناصر في أن يسافر إلى العراق بعد أن أعيتنا الحيرة، لكني استمهلته، ودعوت العائلة كلها، خاصة سامية، إلى الاطمئنان، فكل شخص سألناه أكد أن مسعد بخير ومستقر في عمله بالمطعم، لكن لماذا لا يراسلنا؟

هل جحد قلبه فجأة؟ ألم يحن، على الأقل، لزوجته التي تركها بعد شهر ولم يعلم بحملها بعد؟

لم تدم الأسئلة طويلًا، وليت الإجابة لم تأتِ!

استغربنا زيارة الخفير لبيتنا بعد صلاة العصر، حاملًا استدعاء من نقطة الشرطة التي لم أزرها في حياتي ولم يقصدها أي من أبنائي. ذهبت حاملًا أسئلة جديدة لم يجب عنها الخفير الذي رافقني صامتًا إلى النقطة.

من المدخل إلى مكتب الضابط سرت محفوفًا بنظرات غريبة لم أفهم منها شيئًا، ولم أعرف لماذا تجنب بعض الخفراء تبادل الحديث معي، رغم أن معظمهم من أبناء القرية وبيني وبينهم علاقات جيدة.

تبعت الخفير إلى مكتب الضابط الذي دعاني إلى الجلوس متحاشيًا هو الآخر النظر في وجهي!

بغير مقدمات، وكأنما أراد أن يتخلص من هم ثقيل، انطلقت كلمات الضابط كالرصاص يحدثني عن الأعمار التي بيد الله وأن المصائب تهون بالصبر والرضا؛

حاولت أن أستوضح، لكنه كان أكثر إصرارًا على أن ينهي ما لديه وهو ينظر إلى ورقة أمامه.

- أنت راجل مؤمن يا حاج، للأسف وصلتنا إشارة من المركز بأن ابنك مسعد مات في العراق.

لا أعرف ما قاله بعدها ولا ما قلت أنا؛ فآخر كلمات فهمتها منه ألقتني في قاع سحيق جاهدت للإفلات منه، وبين كل محاولة وأخرى كنت أجد نفسي محاطًا بوجوه لا أتبين ملامحها وشيء ما يسحبني.

***

شيئًا فشيئًا كنت أشعر بماء على وجهي ثم روائح مختلطة تخترق أنفي.

أسترد الوعي تدريجيًّا لأجدني ملقى وسط دائرة من الخفراء والضابط، بينما صلاح يفترش الأرض ويضع نصفي الأعلى في حجره، والانكسار يغطي وجوه الجميع.

هتف أحدهم مبشرًا بأني أستعيد وعيي، بينما طالب آخر بالصبر، واقترح ثالث حملي إلى عيادة الدكتور عبد العزيز القريبة من النقطة.

كان صلاح الذي علم بأمر استدعائي إلى النقطة تبعني راكبًا العربة «الكارو»، وقابله أحد الخفراء في المدخل معزيًا.

- البقية في حياتكم يا صلاح..

- في مين يا جدع؟

- في مسعد.

دارت الأرض به، لكنه وجدني ملقى على الأرض فانشغل بي.

حسم صلاح الأمر بكلمات كسيرة لا ترى حاجة للطبيب، فالأفضل أن أستريح في الدار.

قبل أن أصل إلى الدار، كان الخبر مزق صدور الجميع، لا أعرف كيف خرجت من النقطة وأصبحت وأنا جالس بنصف وعي في العربة «الكارو» أقرب إلى جثمان محاط بالمشيعين.

كانت نهايتي أنا، وليست نهاية مسعد الأقسى من الاحتمال والتصديق.

لا أعرف أيضًا من أبلغ المؤذنين بإذاعة النبأ، الذي أتى بناصر من الحقل حافيًا وبملابسه الداخلية وهو يصرخ كالمجنون «مين ابن الكلب اللي قال مسعد مات؟».

توالت أسئلته الملتاعة بلا مجيب، وكلنا كنا، مثله، في انتظار إجابات تسكت على الأقل صرخات من بقي من النسوة في وعيه، فمعظمهن أصبحن على حواف الجنون، أو الموت، نهرع لإفاقة صباح فتغيب عفاف عن الوعي، بينما سامية تشاركني وصلاح صمتًا يمزق أضلاعنا.

اكتفينا بتبادل النظرات لعل أينا يفسر ما حدث، لكن بلا جدوى.

أدركت أن أقارب وأحبة وجيرانًا يتشاورون لترتيب ما ننتظره من إجراءات، لكنهم لم يستقروا إلا على حفر القبر، فهو الأمر الوحيد الذي نستطيع فعله حتى الآن، بعد أن ألقانا ضابط النقطة إلى حفرة من جهنم تتسع شيئًا فشيئًا، بينما بقية التفاصيل معلقة بين العراق ومصر.

عادت مكبرات الصوت من المساجد تطعننا بالخبر:

(لا إله إلا الله

محمد رسول الله

توفي إلى رحمة الله تعالى

المرحوم مسعد عبد الوهاب منصور

والجنازة عقب وصول الجثمان

والدوام والبقاء لله).

صمت المؤذنون وعادت الصرخات والدموع، وانضم صلاح إلى القلوب المنهارة فوضع وجهه بين كفيه مستغرقًا في بكاء موجع قلما لجأ إليه. ربتُّ على كتفه، أقويه وأستقوي به، فالاستسلام للحزن سيقعدنا عن ترتيب تفاصيل أخرى لا بد أن نصمد في مواجهتها، ثم يكون بعدها ما يكون.

في غمرة الحزن، امتلك السيد صابر شجاعة الذهاب إلى النقطة ليسأل الضابط عن الترتيبات. اتصل الضابط بالمركز مستفسرًا، فظفر بإجابة مقتضبة، وهي أن قريبًا من الدرجة الأولى للمتوفى يجب أن يذهب إلى مطار القاهرة ليعرف موعد وصول الجثمان وإجراءات نقله إلى القرية.

جهز السيد صابر سيارة وطلب من صلاح وجار لنا مرافقته إلى القاهرة.

حاولت أن أصحبهم فرفضوا بشدة لأنني يجب أن أستريح، وأن أبقى في استقبال المعزين، خاصة أنهم لا يعرفون موعد العودة إلى القرية، وأوصوا ناصر بي خيرًا وكان استسلم لصمت عميق بعد أن أعياه الصراخ والنحيب، فنظر إليهم بغير إجابة.

***

بعد أن اقترب المساء، تراص الرجال بـ»الكلوبات» في الشارع الرئيس للقرية انتظارًا لوصول الجثمان. ورغم أن أحدهم استبعد أن تنتهي الإجراءات الليلة، فإن الوجع الممدد في تابوت بحجم المسافة بين العراق ومصر لن يسمح لأحد بالنوم.

بعد الثانية عشرة مساء جاءنا خفير يبلغنا أن السيد صابر اتصل بـ»دوار» العمدة من مطار القاهرة ليخبرنا أن الجثمان سيصل عصر غد.

لم يرغب أحد في الانصراف لولا أن أحد الجيران طالب الجالسين بجوار «الكلوبات» أن يذهبوا إلى بيوتهم للاستراحة استعدادًا ليوم طويل.

تمنع بعضهم ومع الإلحاح انصرفوا، وجاء جارنا بالعربة «الكارو» لتعيدني وناصر إلى البيت.

لم أقوَ على تجاوز عتبة البيت، ففجيعتي أكبر من أن تحتويها جدران.

حتى الشارع الذي صممت على البقاء فيه أمام البيت بدا أضيق حتى خلت البيوت تختنق وتوشك على السقوط فوق جسدي المتهالك.

لم ينجح أحد في إقناعي بالدخول إلى غرفتي، فبقينا جميعًا، رجالًا ونساء، أمام البيت تحت سواد الليل نسأل السماء أن تهون مصيبتنا.

ربما غفونا جالسين من أثر ما عشنا خلال الساعات الماضية، حتى أدركنا الصباح ثقيلًا يعاند رجاءنا أن يأتينا مسعد بسرعة.

عاد المعزون للتجمع عندنا بعد صلاة الظهر، وصوت الشيخ عنتر ينبعث بالقرآن بيننا من «تسجيل» ماجدة الذي عرفنا عليه مسعد، وها هو يشاركنا وداعه.

جاء الخفير بعد العصر ينقل عن صلاح أن الجثمان سيصل إلى القرية بعد المغرب.

وفي الموعد عاد الرجال بـ»الكلوبات» إلى الاصطفاف على الشارع الرئيس، وكرر المؤذنون بث النبأ في فضاء القرية منتهيًا بالوقت الجديد للجنازة، فاحتشد المزيد من أهلها، لكن الليلة مضت مثل سابقتها بغير جديد.

الانتظار ثقيل مثل خبر الموت، لكن الأقدار رحمتنا قبل أن يلقينا في ليلة ثالثة، فظهر اليوم التالي اتصل السيد صابر هذه المرة بدوار العمدة لينقل إلينا تأكيد شرطة المطار أن الجثمان سيصل عصرًا وعلينا الاستعداد لدفنه بعد المغرب.

هذه المرة، امتد طابور المنتظرين إلى الكوبري الذي يمثل مدخلًا للقرية، لاستقبال الإسعاف الذي ينقل الجثمان.

سد الرجال الطريق بأجسادهم أمام الإسعاف الذي أصر سائقه، متذرعًا بالتعليمات، ألا يقف إلا أمام المسجد الذي تؤدى فيه صلاة الجنازة .

كاد أصدقاء مسعد، يتقدمهم ناصر، أن يفتكوا بالسائق الذي يحاول -بلا قصد- أن يحرمنا من حمله، ولو في صندوق معدني بارد، ونصحه أحد الواقفين بأن يجاريهم فيما يرغبون؛ لأن الأمر قد ينتهي بتحطيم سيارة الإسعاف.

رضخ السائق وذهب إلى مؤخرة السيارة يحاول أن يشق طريقًا إليه لفتحه.

كانت العيون مصوبة نحو السيارة وبعضها يوقن أنها فارغة، فكيف ليد الموت أن تحرمنا من مسعد الذي كنا نرقص أمام زفته قبل شهور؟

الحقيقة كانت أكبر من أمنياتنا، انفتح الباب وامتدت الأيادي تسحب الصندوق المعدني وتتبادل حمله حتى بلغت المسجد القريب من بيتنا، وأحد الأهالي يحاول لجم الحزن هاتفًا أكثر من مرة «وحدوه».

كانت كلمة «وحدوه» تقطع نحيب الرجال وصرخاتهم التي تسأل مسعد بلا إجابه «ليه؟»، لكنها لم تفلح في التصدي لما فعلته السيدات المحتشدات حول المسجد، ولم تمنع صباح من نثر التراب فوق رأسها وهي تصرخ «يا حبيبي يا ابني».

صلاح الذي كان مصدر رعب لكل نساء المنزل لم يكن حتى قادرًا على أن يمنع صباح مما تفعل، فقد كان في حاجة إلى من يسنده.

أما عفاف فكانت مشفقة على ناصر الذي شارك أخاه ليلة عرسه قبل وقت قصير وها هو الآن

يحمله إلى التراب.

سامية التي ألجمها الحزن وأسكتها منذ عرفت الخبر كانت تنهار تدريجيًّا، فافترشت الأرض باكية أمام المسجد محاطة بأمها وإخوتها وعدد من النسوة اللاتي حملنها حين خرج الصندوق من المسجد في «الخشبة» المرفوعة فوق أعناق الرجال، بينما يعيد المؤذن النبأ وهو لا يعلم أن لا أحد في القرية لم يعد يعرفه، فكلهم معنا يستعدون لزفاف مسعد من جديد!

حاول أحد المشيعين أن يمنع النساء من اتباع الجنازة، فأشرت إليه بأن يتركهن.

سامية التي نهضت بمساعدة المحيطات بها دخلت مباشرة إلى أسفل النعش تشارك في حمل الجثمان وتبعتها صباح وأمينة.

كان الموت وقتها أقرب أمنيات أمينة، أعلم أن لا حياة لها بغير مسعد، كان نصفها، لا كان كلها.

كنت أدرك أنها الآن ميتة تمشي على قدمين تحت النعش وتتمنى لو ألقينا بها في قلبه ودفناها مع مسعد، فباطن الأرض الآن أحن عليها من ظهرها في غيابه.

وبعد أن سرنا مسافة قصيرة أخرجتهن من تحت النعش المحاط بحركة دؤوبة للرجال المصرين على تبادل حمله، فعدن إلى خلف الجنازة.

كان موكب نور وليس جنازة، أنوار «الكلوبات» ترافق الخطى المسرعة، كأن مسعد يقودهم وليس جثة هامدة فوق أعناقهم.

كان متعجلًا حتى وهو يمضي إلى قبره، ماذا لو تمهلت يا مسعد فبقيت بيننا حتى لا تعود إلينا في صندوق؟

انتظمت الخطى واستقام طابور المشيعين حين دخلوا الطريق الضيق المؤدي إلى المقابر خارج القرية.

وكلما اقتربوا منهم علا هتافهم « لا إله إلا الله»، «وحدوه» وتوالت صرخات النساء.

كان القبر مستعدًّا لالتهام مسعد، عاونه في ذلك من فتحوه ونظفوه ليلقوا في جوفه فرحتنا.

أنزل الرجال النعش وسحبوا الصندوق سريعًا إلى باطن القبر وأخرجوه فارغًا قبل دقائق وتبعوه استعدادًا لإغلاقه.

وسع الرجال القريبون من القبر الدائرة وسحب بعضهم الباب الخرساني ليوصدوه، فاستحلفتهم صباح أن ينتظروا.

تقدمت غير مبالية بنظرات الاستغراب، أفسحوا لها الطريق فنزلت إلى القبر وصلاح يسألها عما تفعل.

إجابتها كانت «زغرودة» بجوار جثمان مسعد وخرجت سريعًا وهي تدعو بصوت خفيض «يجعلها أسعد لياليك يا عريس الجنة».

وبينما يغلق الرجال القبر، بدأ الشيخ صبري خطبته المعتادة في تلقين الموتى:

(عبد الله ابن أمة الله

عبد الله ابن أمة الله

اذكر ما خرجت عليه من دار الدينا

وقدمت به إلى دار الآخرة

وهو شهادة ألا إله إلا الله

وأن محمدًا رسول الله

وأنك رضيت بالله تعالى ربًّا

وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبيًّا ورسولًا

وبالكعبة قبلة بالمؤمنين إخوانًا

واعلم أنك مقيم بهذا البرزخ إلى يوم يبعثون».

وبدأ بعدها الدعاء متبوعًا بتأمين الحضور:

«اللهم يا أنيس كل وحيد

يا حاضرًا ليس يغيب

آنس وحدتنا ووحدته

وارحم غربتنا وغربته

وثبته عند السؤال ولقنه حجته

اللهم ثبته عند السؤال

اللهم ثبته عند السؤال

وقوموا على قبره وقولوا: لا إله إلا لله ، محمد رسول الله).

ومسح الشيخ صبري بيديه على وجهه قبل أن يخاطب الحضور مؤكدًا أن الأسرة لن تقيم مأتمًا، وأنه لا داعي للذهاب إلى منزلها الليلة لتسنح لها فرصة الاستراحة بعد معاناة الأيام الماضية.

وقفت في أول الصف أتلقى العزاء وبعدي السيد صابر وأخواي عبد الحميد ومهدي، وصلاح وناصر وبعض جيراننا ومحبينا.

وحين انتهينا كانت السيارة التي رافقت السيد صابر وصلاح في القاهرة جاهزة لإعادتنا إلى المنزل، بينما توزعت النساء على عدد من عربات «الكارو».

كنت أفقد إحساسي بنفسي تدريجيًّا وأترنح، أمسك صلاح بذراعي خشية أن أسقط ويدعوني إلى أن أرافقه إلى السيارة، فلم أفعل إلا بعد أن نظرت إلى حيث يرقد مسعد لأسأله:

- أي قبر يجرؤ على أن يحتويك يا ولدي؟

***

مضت الساعات بلا معني، البيت قبر يحتوينا جميعًا، لكننا لا نقوى على الرقاد.

بصعوبة، أتى الفجر، وبصعوبة صليناه، وعدنا لإلقاء أجسادنا فوق العربة «الكارو» راجعين إلى مسعد.

وضعنا فوق القبر «الصبار» ورويناه بالماء والدموع قبل أن نجلس متفرقين حول مسعد.

استعدنا حكاياتنا معه في حياته القصيرة، والأقصر جدًّا بالنسبة لسامية التي كانت تدفن أحزانها في جوفها إلى جوار جنينها، وتلوذ بصمت مقلق حتى كدت أسألها أن تصرخ بما تشاء، لكني خشيت أن يسقط حملها، ملمح الحياة الباقي من مسعد.

ودعنا مسعد عائدين إلى البيت، فالمعزون سيتوافدون بعد أن ينهوا أعمالهم في الحقل مبكرًا قبل الظهر، ومن لم يتمكن من الحضور صباحًا فلديه متسع منذ صلاة العصر إلى ما بعد العشاء.

كل هذه التفاصيل المنهكة لم تجبرني على النوم ولو ساعة، لكني استسلمت في الليل وخلت صوت مسعد يخرج من «تسجيل» ماجدة المضبوط على إذاعة القرآن الكريم ليطمئني على وضعه في العراق.

توالت زياراتنا لمسعد في الأيام الثلاثة التالية لوفاته وكل خميس حتى الأربعين، رغم أن سامية بدأت تصرخ قبله بأيام ليس حزنًا على مسعد فقط، فقد أتاها ألم المخاض.

أبى مسعد أن يمضي أربعون يومًا على وفاته من غير أن يضع يده الحانية على جرحنا، وجاء ولده علي مستقبلًا الدنيا بصراخه العالي كأنه يشعر بيتمه، بل يتمنا جميعًا، لكنه -على كل حال- جزء من العوض.

لم تكن سامية تسمح لأحد بأن يحمل علي، بل كانت حين تهذي تناديه بمسعد. تركناها تتعافى بنفسها ونحن وأهلها نحيطها بأعيننا وإشفاقنا، وحسرتنا.

بخجل، حاولت أم سامية مفاتحتي في وضعها بعد غياب مسعد فكأنما أشعلت نارًا جديدة وكان الرد قاطعًا.

- هي في بيتها مع ابنها ولن تغادره إلا لزيارتك إذا شاءت.

لم تناقشني كثيرًا، ربما أدركت أنها تعجلت إثارة الموضوع، لكني خشيت أن تكون فكرت فيما هو أبعد من ذلك: زواج سامية!

لم يكن وضع سامية النفسي يسمح لها بأن تفكر في تجربة أخرى، فكل أملي أن تتجاوز هذه المرحلة الصعبة، لكنها أيضًا شابة قد تفتح أمها في عقلها مسارًا لحياة جديدة، وهذا حقها.

- حقها؟

سألت نفسي بعنف وأنا ألعن الموت الذي يؤرجحنا بين اللوعة والنسيان: لوعة تكاد تقتلنا حين يراوغنا ويخطف أحباءنا، ثم نسيانهم مع الوقت لندخل في علاقات جديدة، وكأن شيئًا لم يحدث.

هل تنسى سامية؟ بل هل لديها أصلًا ما تنساه؟ ما الذي جمعها بمسعد؟ شهور مضت بين الخطوبة

والزواج ورحيله؟

هل في ذلك ما يجعلها تربط بقية حياته بشهوره التي مضت؟

مزقتني الأسئلة، تمنيت وقوف سامية أمامي لتجيبني عنها، فوحدها تملك الإجابات.

أخرجني ناصر من الدوامة حين وضع يده على كتفي يسأل عن حالي، لكنه ألقاني فيها من جديد هو يسألني عما قالته أم سامية.

سامية من جديد هي التي تعذبنا، كأن مسعد لم يتزوجها إلا لتفعل ذلك.

أجبت ناصر بسؤاله عن حاله هو بعد رحيل أخيه وإحساس عفاف بعد أن أتى علي، فرد بسرعة:

- علي ابني كأنه من صلبي.

- وعفاف؟

- مش عارف، بس هي بنت حلال وطيبة، دا هي اللي بتراعي علي لما تكون سامية رايحة عن الدنيا.

- ولما بترجع سامية للدنيا عفاف بتعمل إيه؟

بدا ناصر جاهلًا للإجابة أو غير قادر على النطق بها، فنظر إليّ وكله أسى وخرج من الدار.

***

صلاح وصباح وأمينة يملكون إجابات معظم الأسئلة التي فتكت بعقلي، لكنهم انتظروا عامًا بعد وفاة مسعد ليلقوها في وجهي.

في غياب ناصر، التف الثلاثة حولي ليسأل صلاح عن الذي يجب أن نفعله في موضوع سامية.

وتوزعت الأدوار بين الثلاثة وهم يعرضون الخطة التي بدا أنهم متفقون عليها: زواج ناصر من سامية.

لم يكن لي رأي في الموضوع إلا أن تبقى سامية بابنها بيننا، لكن إن اختارت أن تتزوج ناصر أو غيره فهذا رأيها بشرط أن يبقى علي بيننا.

وليس لي أن أرغم ناصر على أن يقترن بأرملة أخيه؛ ففي ذلك ظلم لهما ولعفاف ومسعد، لكن ما يتفقون عليه سأقبله، إلا أي وضع لعلي يخرجه من بيتنا.

كان الأهم من قبول ناصر أن ترضى -وهذا الأصعب- سامية وعفاف.

اخترت أن أتحدث أنا وصلاح مع ناصر، تاركين عفاف وسامية مهمة صباح وأمينة قبل أن نشرك أهلهما في الأمر.

قبل أن نفاتح ناصر فاجأنا بمعرفته ما اجتمعنا من أجله، بل أخبرنا أن عفاف تتوقع الأمر الذي تكرر في البلد أكثر من مرة، أي إنها تهيئ نفسها له ولو كان على غير رغبتها.

أعلم أن عفاف طيبة، لكن ليس إلى درجة أن تبدي قبولًا لارتباط زوجها بأخرى.

أظنها ستوافق مكرهة أو بحسابات العقل لا العاطفة؛ فهي تعلم أن الصيغة الأمثل لبقاء سامية بجوار ابنها أن تظل في بيت عائلته أرملة أو زوجة لناصر، وأن بقاءها بلا زواج سيخلق حساسية في تعاملها مع صلاح وناصر، فالأقرب أن تقترن به حرصًا على مصالح ابنها.

بقيت سامية..

كيف تفاتحها صباح وأمينة في الارتباط برجل جديد بعد تجربتها اللاهثة مع مسعد الذي لم تهنأ معه طويلًا وصدمتها نهايته المفجعة؟

وكيف يمضي الأمر إن كان الرجل الجديد أخا زوجها الراحل وفيه شبه منه؟

كيف تصمد روحها أمام أنفاس جديدة تذكرها بأنفاس غاب صاحبها، لكنها متغلغلة في مسامها رغم قصر الفترة التي جمعتهما؟

بعد أن هان أمر ناصر وزوجته، طلبت صباح وأمينة وقتًا يسمح باختراق جدار الحزن الذي تحيط به سامية نفسها ويمنعها من مغادرة غرفتها. حتى علي لم ينعم بحضنها كثيرًا وتنافست نساء البيت في تعويضه، لكنه كان أكثر استقرارًا في حضني عفاف التي لم ترزق بطفل، وأمينة التي تشم فيه رائحة مسعد.

طال الانتظار ولم تجرؤ صباح وأمينة على مفاتحة سامية، قررت أن ألجأ إلى أسرتها التي لم تمانع الزواج وتولت أمها ترتيب الأمر.

بعدها بأيام، خرجت من غرفتي بعد صلاة العصر على صراخ يأتي من غرفة مسعد.

كانت سامية تشق ملابسها وتشد شعرها وتصرخ، بينما أمها تتعلق بذراعيها تحاول تهدئتها، وهو ما فشلنا فيه جميعًا بعد أن تجمعنا حولها أنا وصباح وعفاف وأمينة.

لم تفعل سامية ذلك في وداع مسعد، كتمت كثيرًا مما يمور في داخلها حتى حانت لحظة خلتها فيها تتمزق.

لحظة أن استشارتها أمها في الزواج بناصر هزمت قدرتها على الصمت والكتمان، فانهارت مستجيرة بشخص لن يجدي الاحتماء به: مسعد!

***

كان علينا أن ننسى موضوع ناصر وسامية حتى حين، فالضغط لإتمامه يعني توسيع جروح في نفوس الجميع كنا نحاول أن نتناساها لنصنع واقعًا جديدًا.

ولعل ما فعلناه كان صوابًا، هدأت نفس سامية وبدأنا نقترب منها أكثر ولا نتركها لعزلتها.

كانت أمينة الأكثر مداومة على مجالستها وطمأنتها إلى أنها جزء منا، بابنها أو من غيره.

بدأت سامية تهتم بابنها وتعود تدريجيًّا إلى المشاركة في أعمال البيت، رغم أن صباح وأمينة

وعفاف سألنها ألا تفعل، فهن يتولين كل شيء، لكنني شجعت انغماسها في بعض المهام، ربما في ذلك تسرية عنها.

فوجئت وأنا عائد من صلاة العصر بسامية تحمل «طشت المواعين» خارجة من الدار إلى البحر لغسلها، رغم ممانعة صباح وأمينة.

طلبت منهما أن تتركاها تفعل ما تشاء ما دامت تقدم عليه بإرادتها وتعود تدريجيًّا إلى الحياة الطبيعية.

لفتني أن سامية التي تخرج من البيت للمرة الأولى منذ رحيل مسعد فقدت كثيرًا من وزنها وبدا «الطشت» فوق رأسها كجبل يكاد يسحقها.

جلست أمام البيت أحمل علي وبجواري فريد وإخوته الأصغر يلعبون، ثم جاء السيد صابر وعدد من الجيران فاستعدنا أحد مشاهدنا قبل غياب مسعد حين كنا نجتمع يوميًّا من بعد صلاة العصر حتى أذان المغرب.

انشغلت النسوة في تجهيز «الزريبة» قبل أن يعود صلاح وناصر من الحقل بالبهائم، فيغتسلان ريثما تفرغ صباح وأمينة وعفاف من الحلب وإحضار الطعام من فوق «الكانون» قبل أن نجلس لتناول العشاء.

عدت من صلاة المغرب فوجدتهن أوشكن على الانتهاء من هذه المهام اليومية كالعادة، لكن سامية لم تعد.

أكملت جلستي خارج البيت انتظارًا لجديد.

سألني صلاح وناصر عن سامية، فروضت قلقهما وأقنعتهما بالجلوس إلى جواري حتى ترجع.

كان علي يصرخ جوعًا بد أن غابت عنه أمه وانشغلت نساء الدار في أعمالهن. أعدت أمينة رضعة وحملته تطعمه فسألتها أن تدعه في حجري كما كان عصرًا.

بدأ الليل يفرض ظلمته تدريجيًّا، وقليلات من نساء القرية يعدن حاملات «طشوت المواعين» مما طمأنني قليلًا، لكن حين انقطع حبل رجوعهن بدأ قلقي يجثم على صدري.

اقترح ناصر أن يذهب إلى البحر ليعيد سامية فآثرت أن يقوم صلاح بالمهمة، منعًا للحرج من عودة ناصر وسامية في هذا الوقت معًا أمام الناس، خاصة عفاف.

غاب صلاح نصف ساعة وعاد يقود «العربة الكارو» مطأطئ الرأس. وجدت خلفه على العربة «الطشت» وحذاء سامية وطرحتها.

أين سامية؟

تساءلنا جميعًا بهلع.

صلاح أكد أنه وجد هذه الأشياء عند «مزلقان» البحر» ولا أحد حولها.

عاجلتنا أمينة بصرخة أخرجت الجيران من بيوتهم وجمعت المارة حولنا. علم الجميع أن الأمر متعلق بسامية التي ظهر اسمها أكثر من مرة بين صرخات أمينة.

ماذا جرى لسامية؟

بدأت صباح تكرر الإجابة لكل سائل:

- طلعت م العصر تغسل المواعين في البحر وما رجعتش. صلاح راح يشوفها لقى الطشت والجزمة والطرحة.

«يا حبيبتي يا بنتي»، «يا ستار يا رب»، «ما يمكن دخلت الغيط جنب البحر تجيب حاجة وكانت هترجع»، «ما تقلقوش، يعني هتروح فين، شوية وهنلاقيها داخلة علينا»..

تنافست التعليقات في تهدئتنا بلا جدوى. زاد عدد المحتشدين أمام البيت كأننا في مأتم جديد لا يهدأ ولا يترك لنا مجالًا للتفكير. لم تنتظر أم سامية الوصول إلى البيت فبدأت منذ دخلت شارعنا صراخها ونداءها على ابنتها.

كاد صلاح يلطمها لتصمت فنظرت إليه أزجره وطالبتها بأن تهدأ لنعرف سبيلًا للتصرف.

من غير استدعاء، جاءت كثيرات ممن كن عند البحر وقت وجود سامية. أجمعن على أنهن رأينها لكن واحدة منهن لم تتحدث معها، حتى من ألقت منهن عليها لسلام لم ترده.

العائدات متأخرات من البحر قلن إنهن رأينها تغسل المواعين على مهل، لكنهن انشغلن عنها بحكاياتهن ولم تلفت أنظارهن.

دخلت إلى الغرفة سائلًا صلاح وناصر والسيد صابر ووالد سامية ورجالًا من الجيران أن يتبعوني لنتدبر الأمر.

هل نطلب من مؤذني المساجد مناشدة من يراها عبر مكبرات الصوت إبلاغنا؟

لم نتحمس لذلك، فليست طفلة ولا مختلة العقل.

هل نمشط البحر بحثًا عنها؟

لا يمكن أن تكون غرقت عند «المزلقان»، أعلى نقاط البحر، ولا يراها نساء متفرقات حولها يغسلن «المواعين» أو رجال يحرسون مواشي تغتسل في الماء.

هل تكون قصدت حقلًا لتقضي حاجتها بعيدًا عن العيون وماتت في قلبه؟

أسئلة حائرة ناطحتها إجابات متعقلة، لكن مرور الوقت لا يترك فرصة للعقل أو المنطق، ما دامت سامية لم تعد، فكل شيء ممكن.

***

لا حديث في القرية إلا عن سامية، كل الاحتمالات المحتمية بالعقل لم تقد إلى شيء، فلم تعد بمفردها، ولا جولة السيارات بميكروفونات في القرى والعزب المجاورة قادت إلى شيء، ولا جثة

لها في الحقول المجاورة للبحر.

بقي البحث في قاعه لعله يبوح بسرها.

قبل أن يتسع الأمر وتبني القرية بأملها كاملًا على قاع البحر، اقترح أحدهم الاستعانة بالحاج عبد الحميد أبو السعد.

الشائع عن الحاج عبد الحميد أنه متزوج منذ سنوات من «جنية» خرجت له ذات ليل عند منزله المطل على البحر فأغوته، ويغيب أيامًا كل أسبوع يقضيها معها عند عائلتها في قاع البحر.

كاد مجموعة من المجتمعين أمام بيتنا يقتنعون بالفكرة ويغادرون إلى منزل الحاج عبد الحميد، لكن السيد صابر صاح فيهم متعجبًا من الإيمان بهذه الخرافات قاطعًا الطريق على التعلق بضوء كاذب.

شاورني السيد صابر في أن نبحث مباشرة في قاع البحر، المكان الوحيد الذي لم نقصده.

لم يكن أمامنا إلا الحاج عبد الحميد أبو السعد، لكن هذه المرة ليوفر لنا قواربه الصغيرة المخزنة خلف بيته ليستخدمها رجال القرية في البحث.

بدأت الرحلة في البحر عصرًا، جاب الرجال سطحه على امتداد كيلومترات ولا أثر لسامية.

وحين دخل الليل استعانوا بـ»الكلوبات» لتفضح سر الماء، لكن لا جدوى.

تكررت الرحلة وطال مداها أملًا في أن يكون التيار جرف الجثة إلى مكان خارج القرية أو بين الحشائش الملتصقة بجانبي البحر.

بعد أسبوع عطل فيه رجال القرية أعمالهم عدنا خائبين بغير جثة كانت أملنا ما دمنا سلمنا تدريجيًّا بموت سامية.

لا أذكر أن أحدًا مات في القرية من غير أن نرى جثته، حتى الذين تأخرت جثثهم أسابيع أو شهورًا في العراق، عادوا في صناديق أفرغناها بأنفسنا وتأكدنا من وجودهم فيها.

كان أهل سامية يتعذبون مرتين، مرة لأنها ماتت شابة، وأخرى لأننا لم نجد جثة لها، لكنهم كانوا مثلنا ينشدون الراحة في العثور عليها، أو جزء منها على الأقل.

وحين هم صلاح بالترتيب لمأتم لسامية إكرامًا لها بعد أن أصبحت جزءًا منا، ووفاء لمسعد الذي فقدنا مساحة جديدة من ظله، وحبًّا في علي، الذي بقي منهما، رفضت أسرتها وأنهت أمها النقاش في الأمر ما لم نعثر على الجثة.

الوضع أصعب من الاحتمال، لكني أتمسك بصبر زائف وقلة حيلة أخفيها حتى لا ينهار الآخرون، خاصة أمينة التي خشيت أن ترث لوثة سامية وهي لا تكف عن مناجاة جرحنا الذي لن يندمل.

***

«البركة في علي يا بنتي».

جملتي الوحيدة التي كنت أخفف بها عن أمينة، بعد أن لاذت بغرفتها طوال الوقت محتضنة ابن

مسعد الذي يستقبل الحياة بموت أبيه وأمه.

لم تسمح أمينة لأحد بأن يحمله أو يهتم به. فريد فقط كان من يلاعبه دومًا ويحمله عندما تغفو أو يغلبها النوم نهارًا.

مع الوقت، استأذنتها عفاف أن تعاونها في ذلك فلم تمانع شرط ألا يخرج علي من الغرفة ولا ينام إلا في حضنها.

حين جاء جدا علي لأمه يريدان أن يبقى عندهما فترة، رفضت أمينة بشدة رغم إلحاحي عليها.

قالت إن ما تبقى من مسعد لن يغادر حضنها حتى تموت.

الموت يحضر مرة أخرى، لا، إنه لم يغب، صار الأكثر حضورًا في حياتنا.

حياتنا؟

أين هي؟

تبعثرت معالمها في الفترة الأخيرة وألقاها الموت ثقيلة على ظهري لا تسمح لي حتى بالأنين.

علي أن أصمد ليستقيم هذا البيت بعد أن تأثر كل من فيه برحيل مسعد. صار صلاح أكثر تجهمًا، وناصر فقد شريكه في فرحة العمر، الفرحة التي لم تثمر في حياته أو زوجته حتى الآن، بينما منحت مسعد وسامية ابنهما علي، الذي لم ير أباه وفقد أمه من غير أن تنطبع ملامحها في ذهنه.

هو علي، إذًا، معنى حياة جديدة لنا، لكن ماذا سيصنع هو حين يستبين بعد سنوات تفاصيل مأساته ومأساتنا جميعًا.

أصبح علي محور حياتنا، يكبر ومعه أحزاننا التي تتجدد كلما نظرنا إلى وجهه المليء بتفاصيل تشتبك فيها ملامح أمه وأبيه.

روح مسعد المنطلقة تسكنه لكن هدوء أمه يعادل الأمر، فكأنهما يتحاوران برقة بين ملامحه.

أحب فيه روح مسعد وأخشى عليه من أن يسلك المسار نفسه، أحاول ألا أمنعه عن الحياة، لكني لا أحتمل أن تغويه فيطلق في دروبها بغير رجعة.

لم يكن مسموحًا لأحد، في غيابي أو حضوري، أن يغضبه، ولم يفعل أحد ذلك مرة، فملامحه جعلته عندنا ثلاثة أشخاص وليس واحدًا. هو -في وقت واحد- نفسه وأمه وأبوه.

حتى أمينة حين نلتف حول «الطبلية» تضعه في حجرها لتطعمه، تبدأ ملاعبته وهي تضع الأكل في فمه قائلة:

- ده نايبك، وده نايب أبوك، وده نايب أمك. أوعى تسيب حاجة من الأكل.

تنقل علي بين قلوبنا، كانت تتسع كلما كبر لتليق بهذا الكائن اللطيف الذي يعني لنا كل شيء.

حتى فريد، ابن عمه صلاح، كان يقضي معظم الوقت معه، كاد يكتفي به، رغم فارق العمر بينهما،

رفيقًا.

كان فريد يأنس بحمل علي ويخرج به إلى دكان قريب، يشتري له بعض الحلوى رغم نهي أمينة المتكرر عن ذلك، خشية أن يمس الصغير سوء.

لاذ فريد بي أكثر من مرة لأشفع له عند عمته فيظفر بمساحة أكبر تجمعه بابن عمه. أكثر ما لفتني في حديثه وصف ابن عمه بـ»أخويا علي».

من أين أتى ابن الثامنة بوصف الرباط بينه وبين عمه من دون أن يذكره أحد أمامه؟

كيف نسي الحفيد الأكبر إخوته واصطفى علي خليلًا وحيدًا؟

أقنعت أمينة بأن تدع الرباط بين الطفلين يقوى، فبدأت تترك علي لفريد، لكن أمام عينيها. أصبحت تطمئن وهي ترى رقة فريد مع ابن عمه وأنس علي به.

ورغم فزعها حين حاول فريد أن يعلم علي المشي فوقع وسال دم من جرح صغير في شفته، لم يفت عليها بكاء فريد المرير، ليس خوفًا من العقوبة، بل على ابن عمه وكيف بقي أيامًا مهمومًا يراقب عن كثب التئام الجرح ويقبل موضعه إرضاء للصغير.

مع تطور عمري الصغيرين، بدآ يرافقان صلاح والد فريد وعمهما ناصر إلى الحقل. بمجرد أن يعود فريد من المدرسة بعد الظهر يجد والده وعمه في انتظارهما فيتخذ موقعه على العربة وفي حضنه علي.

وفي الإجازة تبدأ هذه الرحلة في الصباح الباكر، ويعود الكبيران والطفلان إلى البيت لتناول الغداء وينامون في فترة القيلولة ثم يرجعون إلى الحقل.

بين الترع ومصارف المياه وخضرة الغيطان بدأت مرحلة أخرى في رفقة ابني العم اللذين لا يفترقان تقريبًا، حتى إنهما كانا ينامان معًا إلى جوار عمتهما أمينة.

بينما ينهمك صلاح وناصر في أعمال الحقل، علم فريد علي بعض الحروف والأرقام بعد أن يرسمها على الأرض، ثم تشكيل الطين أحصنة تسابق خيالهما وعرائس وحيوانات. أجاد علي صنع وجه عمته أمينة ووجهي، فحاول فريد مجاراته فشكل له ما يشبه وجهي مسعد وسامية.

سأل علي عمن يكونان، فأجابه فريد بفطرة المحب لابن عمه الخائف عليه من قسوة الحقيقة:

- قريبان لنا ماتا.

سمع علي الاسمين غير مرة ولم يتوقف عندهما، لم يدرك أبدًا أنه يجب أن ينتمي إلى أب واحد، فهو يعرف عميه بـ»أبوي ناصر» و»أبوي صلاح»، بينما لا مشكلة في الأم، فأمينة مرادفها الوحيد.

ظهر المأزق حين التحق علي بالمدرسة، ناداه المدرس وهو يرتب صفه أكثر من مرة: علي مسعد عبد الوهاب منصور، فلم يجب.

اضطر المدرس للكزه وهو يسأله فلا يرفع يده حين ينادي اسمه. جادل علي المدرس بأنه لم ينطق

اسمه قط، فهو علي صلاح منصور أو علي ناصر منصور.

أدرك المدرس، ولم يكن من أبناء القرية، أن الطفل يعاني مأزقًا ما فأدخله الفصل حتى يستقر على مخرج.

حين جاء ناظر المدرسة يتفقد الفصل بعد أن استقر تلاميذه في مقاعدهم، أبلغه المدرس بما حدث مع علي فقرر الناظر أن يحل الأمر بمعرفته معي قبل أن يتحول إلى عقدة.

كان الطفل أسبق إلى نكأ الجرح، سألني وعميه عمن يكون مسعد ولماذا ينسبونه إليه.

وجم الجميع ولف الصمت المكان لولا صرخة من أمينة سبقت احتضانها علي وهي تشفق على علي من حقيقتين غائبتين عنه: موت أبيه، واختفاء أمه.

ألف علي اسمه الجديد الذي ينطق كل صباح في المدرسة، وتكشفت له -باتفاق كل من في البيت- حقيقة واحدة هي موت أبيه، بينما بقيت الثانية غائبة عنه إلى حين.

قرر الجميع أن يبقى موضوع سامية مؤجلًا، خاصة أنهم أدركوا أنه -بعكس ما كانوا يتصورون- لا يقل صعوبة عن أمر مسعد، فهو مات إنما هي لا ميتة ولا حية، أيعقله علي إن أبلغناه أنها اختفت ذات مساء ولم تعد جثة أو مصابة أو فاقدة للروح؟

حتى جدته لأمه، لم يكن يعرف ماذا تعني له إلا أنها قريبة تزوره كل فترة وحدها أو مع بعض المرافقين وتحتضنه باكية ثم ينصرفون.

ارتحنا ومعنا مدرسو علي بعد تجاوزه ما كنا نخشى من عواقب علمه بموت أبيه.

ومع الوقت، بانت آيات ذكائه في المدرسة فأصبح -كما فريد- موضع ثناء في المدرسة وخارجها.

***

بينما تنشغل صباح وأمينة بحلب المواشي قبل تجهيز العشاء، أطلقت أم عفاف زوجة ناصر «زغرودة» خرج خلفها عدد من الجيران لاستطلاع الأمر.

وحين جاءت أمينة بسرعة إلى مصدر الصوت تكررت «زغرودة» أم عفاف فوضعت يدها على فمها لتسكتها.

كادت أمينة تدفعها خارج البيت، لكني منعتها قبل أن أطالبها بأن تبارك لناصر وعفاف، اللذين التقياني عند مدخل الشارع وبشراني بحملها بعد حرمان سنوات وتركا أمها تسبقهما لزف النبأ إلى من في البيت.

كنت أعلم أن والدة عفاف أفسدت حدادًا تتمسك به أمينة منذ رحيل مسعد ولا تلزم به أحدًا، فكل من في البيت يشاهد التلفزيون الذي اشتريته بنفسي حتى لا يضطر أحفادي إلى قصد منزل من يملكونه من الجيران للفرجة، وكذلك يذهب الجميع إلى مناسبات أقارب ومعارف مجاملة لهم لكن من غير التزيد في مظاهر الفرحة.

كانت صدمة أمينة في الزغاريد، التي لم يسمعها البيت منذ زواج مسعد وناصر الذي بدا أمام أخته

محرجًا مما فعلته حماته، محاولًا ألا يفلت منه دليل فرحة بحمل عفاف التي وقفت هي الأخرى حائرة لا تدري ما تفعله.

كانت حيرتي أكبر، لم يكن من العدل أن أفسد فرحة ناصر وعفاف اللذين لجآ إلى أكثر من طبيب خلال السنوات الماضية حتى جاءتهما البشارة، ولم أشأ أن أتصدى لأمينة التي تقبض وحدها على نار مسعد علنًا، بينما كنت أنا أتعذب كل ثانية منذ رحيله بصمت.

طالبت أمينة أن تبارك لأخيها وزوجته وأمها على حملها فهدأت وبدأت تدرك أن لناصر -كما لمسعد- حقًّا عليها.

مسحت دموعها واحتضنت ناصر ثم عفاف وأمها وهي تتمتم:

- مبروك، مبروك.

انتبهت إلى أن فريد وعلي إلى جوارها فطالبتهما بأن يباركا لعمهما وزوجته على المولود المنتظر. وكررت الأمر نفسه مع صباح ومن اجتمع من الجيران.

سأل فريد عمه إن كان يريد ولدًا أم بنتًا فأجابه:

- ولد ونسميه مسعد.

- وإن كانت بنت؟

كانت عفاف الأسرع إلى الإجابة عن سؤال علي بغير تفكير:

- سامية

امتقع وجه أمها وعاجلتها برد أغضب الجميع:

- ليه يا بنتي الفال الوحش ده؟

ولولا أن نفس أمينة هدأت لفتكت بأم عفاف هذه المرة، لكن المرأة أدركت من نظرات من حولها أنها ستفسد الموقف فانسحبت معتذرة.

لم يحاول أحد استبقاءها، فخروجها من المشهد حماها هذه المرة من صباح التي كانت قررت أن تسمعها ما لا تحب، لكنها احترمت وجودي وراعت مشاعر ناصر وعفاف، فعادت إلى الحظيرة تكمل حلب المواشي.

ما إن بلغت صباح الحظيرة حتى آتانا صراخها واستنجادها بنا.

اندفع الجميع إليها إلا عفاف، التي جذبتها من ذراعها وطالبتها بألا تجري مهما كان الأمر، فهي مستودع فرحة لم نعرفها منذ سنوات.

حين لحقت بهم كان الأمر انتهى.. استدار الرجال عائدين مطأطي الرؤوس، فيما صباح تلطم خديها.

- جاموسة مسعد ماتت.

كان اشترى جاموستين صغيرتين قبل زفافه وشقيقه ناصر لذبحهما للمدعوين، لكن صلاح رأى وقتها أن واحدة تكفي فبقيت الأخرى وسماها الجميع بعد رحيله جاموسة مسعد.

فزع صلاح وهو يسمع جلبة في البيت بعد عودته من المسجد، قاسمني الصمت بينما ناصر يساعد الرجال في وضع الجاموسة على العربة» الكارو» ليرموها في المصرف الكبير خارج القرية.

كانت أمينة تدير ظهرها للمشهد كله وتتمتم وفي حضنها علي:

- مش هتبقى أغلى من اللي راح، عليه العوض.

***

فجعت القرية من جديد بفقدان واحد من أبنائها في العراق.

كان مصطفى منذ التحاقه بالجامعة يسافر إلى بغداد في العطلة الصيفية، قاصدًا أحد تجمعات أبناء القرية الذين يدبرون له سريعًا وظيفة مريحة؛ كاتبًا في مطعم أو أحد مخازن الحبوب لأنه متعلم ولم يعهد الأعمال الشاقة مثل المزارعين من شباب القرية.

كرر مصطفى التجربة مرتين وكان يعود بعد كل رحلة بمبلغ يكفي مصروفاته الجامعية، حاملًا ملابس وأحذية تضمن له مظهرًا لائقًا بين زملائه في كلية الحقوق.

في هذه المرة سعى أبناء القرية الذين قصدهم مصطفى في إيجاد وظيفة معتادة له، لكنهم فشلوا فاضطر إلى العمل معهم في تحميل «اللوريات» بالأرز.

عانى مصطفى في البداية في العمل الذي لم يعتده، وكان زملاؤه يحاولون في غمرة العمل مساعدته حتى تظهر فرصة أخرى، لكنه كان يحاول، بامتنان، ردهم مؤكدًا أنه قادر على حمل الأجولة من المخزن إلى «اللوري».

مضت أسابيع على إيقاع يومي متشابه، ولم يكن أمام أبناء القرية إلا إراحة مصطفى في السكن، فلا علاقة له بمهام الطبخ والتنظيف الموزعة بينهم، بل يصر أغلبهم على مناداته بالأستاذ احترامًا للمرحلة التعليمية التي بلغها، كما أنه من أسرة مستورة لم تطلب منه العمل داخل مصر أو خارجها، لكنه يحب الاعتماد على نفسه في تدبير أموره المالية خلال فترة الدراسة.

رغم ذلك، لم يكن العمل الذي لم يجد مصطفى غيره، مريحًا بالنسبة له، لكنه لم يبح بذلك لأحد حتى خذله جسده وبدأ يشعر بآلام في ظهره بانت آثارها حين نهض بصعوبة من فراشه عندما أيقظه أحد زملائه في العمل.

حاولوا إقناعه بالراحة في هذا اليوم ولم يستجب.

تحامل على نفسه ورافقهم إلى مكان العمل، وهناك نقل بعض الأجولة من المخزن إلى «اللوري»، بعد فترة قصيرة حاول أحد زملائه الواقفين فوق صفوف الأرز وضع الجوال على ظهره فلم يقدر على حمله وسقط على الأرض.

سارع زميله بالنزول إلى حيث سقط لمساعدته على النهوض، لكن قبل أن يصل إلى مكانه كانت صفوف الأرز تتداعى فوق جسده وتكتب نهايته.

عاشت القرية من جديد أجواء استقبال جثمان مسعد وتشييعه. تخرج «الكلوبات» لتنير طريق مصطفى إلى ظلمته ثم تعود مخذولة لتأخر وصوله.

عند مدخل القرية، وفي المساء أيضًا خرج الصندوق المعدني من سيارة الإسعاف إلى أكتاف المشيعين الذين حملوه إلى المسجد للصلاة على الجثمان قبل السير به مجددًا إلى المقابر.

عرف علي من الأحاديث الدائرة عن وفاة مصطفى أن والده أيضًا عاد مثله من العراق جثة هامدة.

كان وفريد ابن عمه يجلسان بين المنتظرين لوصول الجثمان رغم اعتراض أمينة، لأنها لا ترغب في أن يعيشا هذه الأجواء ولا يذهبا إلى المقابر ليلًا بين المشيعين، لكني أقنعتها بأن ذلك يقويهما ويربيهما على أداء الواجب، وأنه لا خوف خاصة أنهما سيذهبان بين الجموع وسيعودان معها.

كانت عينا علي طوال الطريق إلى المقابر معلقتين بالصندوق الذي يتناوب كثيرون في حمله، بينما عينا فريد على ابن عمه بتكليف من أمينة، وأنا خلفهما أرقبهما.

في الزحام حول قبر مصطفى أثناء الدفن، أفلت فريد وعلي من رقابتي، مددت بصري في كل اتجاه لكني لم أعثر عليهما.

أشار أحد الواقفين بجواري، وقد أدرك غايتي، إلى اتجاه سارا فيه.

تبعتهما فكان ما توقعته، وجدتهما عند قبر مسعد. علي متسمر أمام مرقد والده وفريد يحثه على الانصراف.

احتضنتهما وأنا أحاول العودة بهما إلى حيث يقف مشيعو مصطفى، لكن علي تبين شيئًا يلمع على مقربة من قبر والده فذهب إليه.

كانت بقايا من الصندوق الذي احتوى جثمان والده من العراق إلى قبره تقاوم؛ لتبقي جزءًا من فجيعته.

***

باتت القرية ليلتها تنوء بحزنها على مصطفى، ومن استيقظوا باكرًا ليقصدوا حقولهم كانوا يشعرون بثقل الخطى ومروا على المقابر التي اجتمعوا فيها لوداعه قبل ساعات.

قبل أن تأتي الظهيرة، فوجئ أهل القرية بمكبرات المساجد تعلن أن عائلة مصطفى ستقيم له عزاء.

بعدها بدأ مكبر فوق سيارة نقل صغيرة يجوب القرية والقرى والعزب المحيطة، حيث تملك العائلة علاقات مصاهرة وتجارة في المواشي، يبلغ أهلها بإقامة العزاء.

يبدأ العزاء عادة بـ»ربع» بعد صلاة العصر، لكني رأيت من الواجب أن أقصد منزل عائلة مصطفى بعد الظهر للوقوف معهم خلال إقامة سرادق العزاء.

كان عمال «الفراشة» يغرسون في «الجرن» المواجه لمنزل عائلة مصطفى أعمدة السرادق قبل أن يمدوا بينها وفوقها قطعًا مزركشة من القماش تتخللها آيات قرآنية، فيما صوت خلاف يطغى على المشهد.

منذ أن قررت العائلة إقامة عزاء بادر أحد أصحاب محلات مكبرات الصوت بالاتصال بالشيخ عنتر ليحيي الليلة، لكن منافسًا له اتصل بالشيخ إبراهيم واتفق معه على كل شيء.

وجدت العائلة نفسها في مأزق؛ فليس بوسعها أن تدفع لمقرئين خاصة أنهما الأشهر في الوجه البحري، لكن كل واحد من صانعي المشكلة، خاصة من يتوزع عماله في المكان لتجهيز السرادق، يستميت أمام العائلة في الدفاع عن الشيخ الذي اتفق معه والثناء على عذوبة صوته طمعًا في نفحة منه إذا أحيا «الحفلة» والانفراد بتسجيلها ونسخها في شرائط يبيعها لاحقًا.

غضب الحاج سعد، والد مصطفى، من تصرف الرجلين، وكاد يمنع العمال التابعين لأحدهما من استكمال إقامة السرادق، لولا أن نبهته إلى أن المعزين سيبدؤون في التوافد بعد ساعات قليلة بعد أن جابت الميكروفونات قرى المنطقة.

هدأ الرجل قليلًا وقرر معاقبة الرجلين بعدم الاستعانة بأي من الشيخين، بل فكر في الاستعانة بالشيخ فاضل إمام المسجد الكبير، لكني أيدت رأي ولديه سمير وعزت وبعض الحضور بأنه لا يستطيع وحده إحياء الليلة التي يتوقع أن يحضرها آلاف من المعزين.

اقترح أحدهم الاعتذار للشيخين عنتر وإبراهيم بحجة أن العزاء ألغي ثم الاتصال بالشيخ حامد متولي، المقرئ الشاب الذي بدأ في منافستهما بقوة رغم صغر سنه، فيكون ذلك حلًّا وسطًا.

بعد ساعة كانت السيارة تأتي بالشيخ حامد من إحدى قرى المنصورة في زيارته الأولى لقريتنا، وعبرت عن راحتي بذلك للحاج سعد؛ فهو من غير «بطانة» في القرية تفسد قراءته بصيحاتها غير المنضبطة طمعًا في مبلغ يوزعه عليها بعد نهاية العزاء.

ورغم أجواء الحزن المخيمة، لم يستطع أحد الحضور من عدم استعادة موقف مضحك بطله الحاج علي أبو مرتضى، حين وقف للشيخ عنتر في أحد المآتم وهو يتلو «بسم الله الرحمن الرحيم» بين سورتين هاتفًا:

- لأ، مش دي «بسم الله الرحمن الرحيم» اللي سمعتها في شارع السوق في المركز.

فطن الشيخ الكفيف أن الرجل يريد قراءة بعينها للبسملة، فأخذ يعيدها بمقامات وقراءات مختلفة حتى قام الحاج علي من جديد بعد إحداها يعرب عن رضاه:

- أيوه كده، هي دي اللي سمعتها في شارع السوق، والنبي ما تحرمنا منها.

ضحك الشيخ وقتها والمعزون من الموقف الذي صار جزءًا من أرشيف القرية الفكاهي نتذكره كل فترة.

حين استعاد الرجل الموقف بانت من الحاج سعد ابتسامة باهتة، قطعها بالاستئذان لأداء صلاة العصر ليعود إلى استقبال المعزين في «الربع» الأول.

كنت وكثيرون من رجال القرية نقف بعد الحاج سعد وولديه في صف استقبال المعزين، بينما تفرق آخرون بين كراسي السرادق يحيون الحضور ويمرون بـ»قلل» المياه ويوزعون السجائر.

جذب الشيخ حامد أسماع الجميع بصوته القوي الخاشع، لدرجة أن الحاج سعد أجهش بالبكاء حين قرأ «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ».

أغرق الدمع لحية الرجل وأقعده عن مصافحة المعزين، وانتبه الشيخ حامد لما يجري فصدق وأشار إلى حلقه قبل أن يرفع «القلة» ليشرب ليوحي بأن العطش تملك منه فختم القراءة.

توجه إليه الأستاذ مصطفى رشدي، أشهر معلمي اللغة العربية، واستأذنه قبل أن يمسك في الميكروفون بادئًا خطبة قصيرة تذكر الحضور، ولم يرفع عينيه عن الحاج سعد، بابتلاءات الآباء في الأبناء ومنها قصة سيدنا يعقوب وولده سيدنا يوسف الذي كان القارئ الكريم -والتفت إلى الشيخ حامد- يقرأ منها.

بدأت نفس الحاج سعد تهدأ بعد أن عدد الأستاذ مصطفى محنًا لآباء صبروا عليها، فكان صبرهم مضرب الأمثال وتسرية لمن يبتلى من بعدهم لما ارتبط به من عوض عظيم من رب العالمين.

كانت علامات الإعجاب بالأستاذ مصطفى تنير عيون علي وفريد الجالسين في آخر السرادق، بل إن علي صفق في ختام الخطبة لكنه شعر بالخجل حين اتجهت إليه العيون مؤنبة، فغادر بسرعة وتبعه ابن عمه.

***

واصل الشيخ حامد القراءة حتى قرب أذان المغرب ثم اصطحبه عدد من الحضور إلى المسجد لأداء الصلاة، وبعدها إلى المضيفة التي رصت فيها صواني طعام أرسلتها عائلات القرية، كما جرت العادة في المآتم.

وبعد الطعام، دارت أكواب الشاي، لكن الشيخ حامد طلب «ينسون» وتوالت إطراءات الحضور على صوته وكان يقابلها بالشكر بصوت خفيض مرات، وأخرى بوضع يده على صدره امتنانًا.

قبل أن نجلس إلى الطعام ذهبت إلى البيت وأحضرت فريد وعلي اللذين خشيا من أن أكون غضبت لما جرى منه في السرادق، لكني أفهمته آداب العزاء والاستماع إلى المقرئين فاعتذر متعللًا بانبهاره بأسلوب الأستاذ مصطفى.

لم أشأ أن أحول الموقف إلى أزمة تصدهما عن أداء الواجب، فوجود الصغار في المآتم وسرادقات العزاء معتاد في القرى، لكن من غير انفلات من القيود.

عدت إلى المضيفة وخلفي فريد وعلي، وجلسا معي حول صينية الطعام التي أعدتها صباح بمفردها دون أن تطلب عونًا من عفاف التي توشك على الولادة، وأمينة التي لم تعد تهتم في معظم الأحوال إلا بشؤون علي.

سأل الشيخ حامد بعد أن انتهينا من الأكل فريد وعلي عن اسميهما ودراستهما ودعا لهما بالنجاح، وطلب الأستاذ مصطفى من علي أن يدنو منه ومسح على رأسه، قبل أن ينصحه بأن يحافظ على

جديته حين يكون بين كبار في كل موقف.

وحتى لا يتركه نهبًا للحرج، سأله مبتسمًا:

- قولي يا سيدي. كنت بتصقف ليه؟

- كنت مبسوط من كلامك قوي يا أستاذ.

- وينفع تصقف في ميتم؟

- لأ. وقلت لجدي مش هعملها تاني.

فض الشيخ حامد الموقف بنهوضه متوجهًا إلى السرادق فتبعناه وفوجئ باحتشاد المعزين فانتشى.

دائمًا ما يكون المعزون أكثر في «ربع» العشاء، إذ يكونون انتهوا من أعمالهم في الحقول أو التجارة، وبعضهم يفضل الاستماع إلى المقرئ في خواتيم «الحفلة»؛ لأنه يكون أكثر تجليًا في القراءة.

لم يخيب الشيخ حامد في تجربته الأولى بالقرية آمال المعزين، لكنه ابتعد هذه المرة عن سورة «يوسف»، وذهب إلى الخيار الثاني الأكثر شيوعًا في مآتم الريف: سورة «مريم».

كانت الكراسي أقل من عدد المعزين، فتخلى عدد من أبناء القرية عن مواضعهم للقادمين من القرى المجاورة، وانتبه الشيخ حامد إلى ذلك فعمد إلى ختم القراءة، وهي عادة المقرئين في مثل هذه الحالات لينصرف معزون ويحل محلهم جدد.

وقف الشيخ حامد في المرة الأولى عند الآية «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، فكانت رسالة تربت على قلب الحاج سعد الذي منحه احتشاد المعزين في مصطفى بعض القوة، فلم يكن يكتف باستقبالهم في أول السرادق وأخذ يتنقل بين الصفوف شاكرًا لهم بيديه.

بدأ الشيخ حامد القراءة بعد أن تغيرت بعض الوجوه أمامه من عند الآية «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا»، وتكررت وقفاته لكنها لم تمنع توهج صوته وتعدد «الجوابات» في القراءة التي طالت إلى زمن غير معتاد ومعها استعذاب المستمعين، حتى ختمها بقوله تعالى: «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا».

***

لم تنته ليلة العزاء في مصطفى بانصراف المعزين وأهله إلى بيوتهم، ففي الصباح الباكر اندلعت معركة غير مسبوقة في القرية. كان فتحي الفيل أحد الذين سجلوا «الحفلة»، وبمجرد استيقاظه و»خطفه» ركعتين في المسجد أدار الشريط عاليًا بينما يساعد نساء بيته في كنس «الزريبة» بعد أن غادرتها المواشي إلى الحقل وخلفها إخوته.

لم يعجب الأمر مؤيدي الشيخين عنتر وإبراهيم، خاصة بعد أن لمسوا القبول الذي حظي به الشيخ حامد وأنه مقدمة نجومية له في القرية وجوارها.

رد أنصار الشيخ عنتر بتشغيل شريط له، ومثلهم فعل المتحمسون للشيخ إبراهيم فتحول الشارع

إلى مأتم صباحي تتداخل فيه أصوات المقرئين الثلاثة لدرجة يصعب معها تبين ما يتلونه.

تمادى فتحي الفيل في إغاظة الفريقين الآخرين بالتعبير الصاخب عن إعجابه بالصوت الجديد الذي سيقطع رجل أي مقرئ من القرية.

هاجت كل الأطراف، بل إن النساء تدخلن في المعركة وكادت الشتائم تتحول إلى اشتباك بين الجميع، لولا تدخلي وكبار الشارع لوقف هذه المهزلة، فالقرية الحزينة لا تحتمل «لعب العيال».

قبل أن يتفرق الجمع، نادتني صباح وفي وجهها أمر مهم. كانت عفاف تصارع آلام المخاض.

أرسلنا فريد إلى سعيدة الداية لتقود جهود صباح وأمينة وأم عفاف في مساعدتها على الوضع، بينما ذهب علي إلى عميه في الحقل ليبشرهما ويعود سريعًا برفقة ناصر.

كالعادة، أدت سعيدة الداية التي حضرت بسرعة، مهمتها بنجاح وقدمت إلينا بنتًا أطلقت صرخاتها الأولى في غرفة والديها من دون أن يستقبلها أحد بـ»زغرودة» تطمئن دقائقها الأولى في الحياة، حفاظًا على مشاعر عائلة مصطفى.

احتضنت أمينة أخاها الذي برقت في عينيه الفرحة على مكافأة ربانية أتته بعد انتظار طويل. واحتضنته أنا بينما تحلق الأحفاد حول الوافدة الجديدة كلٌّ يناديها باسم من وحي براءته، غير أن علي كان الوحيد الذي قبلها في جبهتها قبل أن ينظر إلينا باسم غير معهود في القرية:

- جميلة مريم يا جدي، مش كده يا أبا ناصر؟

استبقتنا أم عفاف التي ربما كانت تفكر في اسم لحفيدتها في التعبير عن الدهشة من اقتراح علي.

- مريم مين دي يا ابني؟

خشي علي أن يكون أغضب والدة زوج عمه باقتراحه فنظر إليّ مستنجدًا.

أعدت عليه السؤال فاطمأن وأوضح أن مريم اسم السورة التي قرأها الشيخ حامد في مأتم مصطفى.

راق الاقتراح لي لكني حرصت على استشارة ناصر، فلم يعترض أو يتوقف عند نظرات عدم الرضا في عيني حماته التي صممت على أن يكون لها رأي في أي شأن من شؤون حفيدتها.

اقترحت أن يكون السبوع في بيتها، خاصة أنه لا يمكن الاحتفال به عندنا بعد أيام قلائل من وفاة مصطفى، فوافقت.

***

توالت مكافآت ناصر وعفاف على صبرهما الطويل، فبعد مريم رزقا بميرفت وعزة، لكن أولاهن بقيت نقطة النور الأكبر التي تحوم حولها القلوب واعتبرها والداها بابًا ولجا منه إلى الجنة.

لم يلحظ غيري في البداية أن صراعًا مكتومًا بدأ يعتمل في قلبي فريد وعلي، الأقرب سنًّا إلى مريم.

بدأت ملامح الصراع تبدو حين يجتمع الثلاثة حول أمينة، التي جعلتني أفزع من غيرة مبكرة بين ابني العم تفرض نفسها على تصرفات علي بينما يعتصم فريد بحكمة الأكبر.

حاولت أمينة غير مرة تهدئة علي وإرضاء فريد وهي تتوهم أن مشاعر طفولية هيمنت على علاقتهما، على عكس سنواتهما الأولى، وستنتهي ليعود الصفو بينهما.

لم أكن مرتاحًا لما يجري بين الحفيدين، وتضايقني أكثر حدة علي، التي نحتملها جميعًا لكنها تجاوزت حدود البيت، وبدأت تقلق معلميه في المرحلة الإعدادية مع العنف الذي يبدو في تعامله مع زملائه في المدرسة.

عاد ذات يوم و»مريلته» ممزقة ورفض الإفصاح عن السبب، لكن لم تمض نصف ساعة حتى كانت أم زميل له تجره حتى باب بيتنا، وعلى وجهه خطوط مدممة تفضح اعتداء علي عليه.

قنعت المرأة بأسفنا مؤكدة أنها قبلته هذه المرة مراعاة لما بيننا من «عيش وملح» ولأن علي «يتيم أم وأب».

لم ينتظر علي انصراف أم زميله لتداهمه نوبة بكاء لم يجرب لها مثيلًا، وقبل أن نفيق من لوعتنا ركض حافيًا متجاهلًا كل نداء عليه.

صرخت صباح وعفاف في المرأة التي قتلتنا بوصف علي بـ»يتيم أم وأب»، وطردتها أمينة بكلام موجع وهي ترجوني أن أتبعه لاستعادته، ولم تكن تعلم أن الحقيقة التي لم نقف عندها يومًا شلتني.

فريد الذي وجدنا عند عودته من المدرسة على هذه الحال، كفاني مشقة الحركة وانطلق خلف علي واعدًا بأن يعيده معه.

اشتعلت لوعة أمينة فذكرتني بما كانت عليه يوم رحل مسعد.

لذت برجاءات صامتة أمد عيني كل حين إلى أول الشارع، منتظرًا عودة فريد وعلي وحولي صغار البيت يبكون، وفي مقدمتهم مريم.

عاد فريد وحده بعد ساعتين. جاب القرية كلها، ذهب عند البحر والحقول المحيطة به حيث يذاكران أيام الامتحانات.

حتى المقابر فتش فيها. ووقف عند قبر عمه لعل علي يلجأ إليه، بعد أن عبر له مرات عن انشغاله ببقايا الصندوق الذي جاء فيه من العراق.

فتش غرفة ماكينة الري القديمة التي كانا كلما مرا عليها، حاول علي الدخول إليها بحثًا عن العفاريت التي يشاع أنها تسكنها وتقتل كل من يقترب منها.

بعد عودة فريد، لم يستطع أحد من أهل البيت أو الجيران الذين تجمعوا تضامنًا معهم، كتم دموعه.

لم تعد أمينة قادرة على الاحتمال، استنجدت بكل الأولياء وهي تصرح خشية أن يكون علي اختار أحد طريقين جاهدت في إبعاده عنهما: الموت كأبيه، أو الاختفاء كأمه.

لم يبق إلا الإعلان عن ضياع علي في مكبرات مساجد القرية.

***

منذ التحق علي بالمرحلة الإعدادية توثقت علاقته بالأستاذ مصطفى رشدي، فهو يبدي تفوقًا في اللغة العربية كفريد ابن عمه، ولم ينس أستاذه تصفيقه له في سرادق عزاء مصطفى ابن الحاج سعد.

انشغل الأستاذ مصطفى بالتحول في شخصية علي ونزوعه إلى الحدة في تعاملاته، وحاول أكثر من مرة تنبيهه إلى ذلك، لكنه أدرك أن تلميذه منشغل بأسئلة أكبر من سنه تخص الموت الذي اختطف والده وجعله أقل من فريد وإخوته ومريم وأختيها.

حاول الأستاذ مصطفى مجاراة أسئلته الحيرى بإجابات عجزت عن إقناع عقله الصغير، رغم توثبه، بالقدر والعوض. شغله بالاشتراك في الإذاعة المدرسية ومسابقات الفصول ومدارس المنطقة التعلمية، لكن كل ذلك كان يمر على عقل علي سريعًا ولا يحرره من أسر أسئلته.

الأسئلة اتسعت حين سمع علي أم زميله تصفه بـ»يتيم أم وأب». من تكون أمينة إذًا؟

وأين أمه؟

ولماذا ينفرد وحده بهذا الوضع الاستثنائي بينما حياة كل من حوله طبيعية وكاملة؟

الأسئلة تعوي في نفسه بلا إجابات غير الإحساس بالضياع الكامل.

وحين صدمته أم زميله بما قالت، لم يجد إلا بيت أستاذه مهربًا؛ فوجئ به الأستاذ مصطفى يطرق بابه باكيًا تجثم أسئلته على روحه؛ أبقاه في حضنه فترة يحاول إقناعه بتناول الغداء الذي جهزته زوجته بلا جدوى.

استثقل الأستاذ مصطفى مهمة إفهام علي حقيقة وضعه، لكن لم يكن من سبيل غير إلقائه في أتون هذه الحقيقة، رغم أنه يعلم أن الصغير لن يهدأ، فالأسئلة نار تكبر بالإجابات، خاصة إذا كانت إجابات يعوزها المنطق.

اتقدت روح علي ناقمة على الموت مبتدأ كل ما هو فيه، فلولاه لكان له أب كأبناء عمه ومعظم صغار القرية، ولما اختفت أمه، وما بقيت أمينة رهينة الرغبة في رعايته وتعويضه، ولا جعله جده موضع عنايته.

لم يستجب علي لإلحاح أستاذه في تناول لقمة «تسند قبله»، وفشلت زوجته في ذلك أيضًا، رغم تكرار مساعيها، وبعد كل محاولة كانت تترك الغرفة باكية إشفاقًا على الصغير اليتيم.

قبل أن يصطحبه الأستاذ مصطفى لصلاة المغرب في المسجد المجاور، عاجله مكبر الصوت بالبحث عن الطفل الضائع، فأسرع به إلينا.

انقلب غم الشارع إلى زغاريد تستقبل علي، لكن أمينة لم تقو على الوقوف من هول ما عانت في ساعات غيابه، فألقى نفسه في أحضانها.

دعوت الأستاذ مصطفى إلى «غرفة الجلوس»، ترحيبًا به وشكرًا له على إرجاعه علي ولأفهم ما

حدث في ساعات غيابه.

غضب صلاح وكاد يتجاوز في حق الأستاذ مصطفى، حين علم بأنه حكى لعلي ما كان يخفى عنه.

زجرت صلاح وطالبته بألا يكمل، وعاتبه ناصر بنظرات صامتة، فبدأ الأستاذ مصطفى معتذرًا عن إغضاب صلاح، لكنه رأى أن مصلحة علي تفرض -ما دامت أم زميله صدمته بأنه يتيم الأبوين- أن يعلم ما جرى على حقيقته قبل أن يجيبه أحد بشكل يجرح قلبه الأقرب الهش في هذه السن المرتبكة فتكون النتيجة عكسية.

كان كلام الرجل -وإن لم يقنع صلاح- صادقًا ومنطقيًّا، بل تعهد بأن يتعاون معنا في مساعدة علي في المرور سالمًا بهذه المرحلة.

كانت المهمة صعبة، فعلي عذب نفسه مجددًا وعذب أمينة حين ناداها لأول مرة بـ»عمتي»، وأعاد أسئلته الملتاعة قبل أن يقتحم علينا الغرفة، لكن بسؤال واحد هذه المرة:

- أمي هربت ليه يا جدي؟ أبويا ومات زي ناس كتير، بس مفيش حد في البلد أمه هربت. فيه أمه تطفش وتسيب ابنها؟

***

الجذور التي حافظتُ على أن تشد علي إلى أرضنا عصف بها اضطراب روحه.

زلزلني من جديد وأفقد عمته عقلها، هي التي نذرت روحها له.

كان صلاح يرغب في الشدة عليه ليستقيم عوده، لكننا منعناه، حتى فريد، النموذج المكتمل بأمه وأبيه كما يرى علي، أصبح هدفًا لبعض سهامه المسمومة، لكنه لم يشك منه.

رغمًا عنا، أصبح علي معظم الوقت في كنف أستاذه مصطفى رشدي، هو الأعلم بوضعه التعليمي ونفسيته، لم يدخر جهدًا في ترويض سخطه وملء روحه بما يشده من جديد إلى أرض ثابتة.

نصحه بأن يكتب ما يعتمل في داخله، فتح له أبواب مكتبته وأرشده إلى ما يعينه على احتمال أسئلته حتى يظفر لها بإجابات، أصبح يرافقه إلى ملعب القرية وأقنع مدرب فريقها حسن عبد الجواد بأن يشركه في المباريات، لكن علي لم يرتح في أي نشاط جماعي، أدمن صراعاته الذاتية والارتداد إلى نفسه يجلدها ويكافئها، يدير حواراتها التي لا تتوقف.

عشق الكتابة وبدأ يحاول، بتشجيع من أستاذه، مجاراة ما يقرؤه. كتب رسائل إلى أبويه الغائبين. كان يدفن كل ما كتبه إلى مسعد في التراب أمام قبره، ورسائله إلى أمه كان يلقيها كل مساء في البحر لعلها تصل إليها وتعود بإجابة.

سألنا عن ملامح أبويه، فرأت أمينة أن تفتح غرفتهما المغلقة منذ غادرا فوقعت عيناه على صورة الزفاف.

رأى نفسه أشبه بأبيه، وضع يده على رأسه وهو أمام المرآة يتحسس الخط الفارق بين جانبي شعره، هو نفسه الذي في رأس أبيه.

رسم علامة استفهام بجوار أمه وأغلق الغرفة ثانية.

طالبته أمينة بأن ينقل كل أشيائه من غرفتها إلى غرفة والديه والعيش فيها إن أراد، لكنه رفض.

حاول حسن عبد الجواد أكثر من مرة أن يحببه في الكرة وأهداه ملابس رياضية بغير جدوى.

بدأ يدعوه إلى بيته وحكى له، بإيعاز من الأستاذ مصطفى رشدي، بعض قصصه في العراق. أهداه مجموعة صور يظهر فيها مسعد فرفض أن يأخذها.

اكتفى بمجموعة من الكتب من منشورات العراق كانت مختبئة على أرفف أحد الجدران بملاءة.

لم يعد لدى حسن عبد الجواد وقت للقراءة بعد أن تزوج وتعاقب أولاده في المجيء إلى الدنيا. كان يقضي جل نهاره في محل للأدوات المكتبية ورثه عن والده، وحول حبه للرياضة إلى حلم بتكوين فريق للقرية يوفر احتياجاته بعض مقتدريها.

أثمر حلم حسن وبدأت ملامح الفريق تستقر، وأصبح ذهابه إلى ملعب القرية في «الترننج» الأخضر وخلفه لاعبو الفريق من المشاهد الجديدة المعتادة في القرية.

كان علي مشروعًا مشتركًا بين الأستاذ مصطفى رشدي والكابتن حسن عبد الجواد، فشلا في جره إلى عالم الكرة، لكنهما ربطاه بعالم القراءة.

بدأت شخصيات الكتب والقصص التي يقرؤها تتجلى في كلامه وتصرفاته وتوقفت رسائله لأبويه وأسئلته لأستاذه. بدأ يخاطب قوة ترتب هذا العالم وتدير شؤونه.

وجد نفسه يخترع على الورق شخصيات ينتهي معظمها بالموت، بعد أن يرسم لها مسار حياتها ومصائرها ثم يعود في كل مرة إلى سؤاله المؤرق: ما جدوى كل ذلك؟

جر علي ابن عمه فريد إلى عالمه، تشاركا في تجسيد بعض الشخصيات التي يرسمها بعد أن حولا مساحة خلف البيت إلى مسرح بدائي، استعادا على خشبته قدرتهما في الطفولة على تشكيل كائنات من طين على أطراف الحقل، وصنعا أخرى من أعواد الذرة الجافة والخشب والحطب.

شاع أمر المسرح بعد أن جذب علي وفريد إليه عددًا من أطفال القرية وأبناء عميه.

رميتهما بالجنون، لكن الأستاذ مصطفى رشدي رأى أن هذه مساحة آمنة يصرخ فيها علي بما يقلقه، لكنني صممت على أن تنتهي التجربة حين كاد يخنق مريم ابنة عمه ذات مرة، وهي تمثل دور أم يرجوها ألا تهرب تاركة ابنها عاريًا.

***

اشتبك علي وفريد بسبب مريم، وكاد ناصر يضربه، ومرت الواقعة حين بدأنا ننشغل بما هو أهم.

عاد صلاح وناصر من الحقل مبكرًا، وقبل أن نستفسر هالنا اصفرار وجه صلاح.

وبصعوبة روض ناصر فزعه ليخبرنا أن أخاه نزف فجأة وهما يعزقان الحقل.

فزع ناصر انتقل إلينا جميعًا، واقترحت صباح أن يستريح صلاح ريثما تسلق له دجاجة يشرب

مرقها ويأكل جزءًا منها ليهدأ جوفه، الذي ربما دخله شيء هيجه مع إجهاد العمل.

لم يكن وجه صلاح مريحًا، رأيت في عينيه انكسارًا واستنجادًا استجبت له بأخذه فورًا إلى طبيب شهير في المدينة، قال بغير تردد إنه يعاني مشكلة في الكبد.

عدنا بصلاح وكومة من الأدوية، وقائمة بممنوعات الطعام، وصدمة لم يهون منها تطمينات الطبيب وذكره أن حالته ستتحسن باتباع تعليماته.

ساءت صحة صلاح وتقاربت مرات نزفه، وأصبحت غرفته مقصدًا لأهل القرية وأقاربنا رغبة في الاطمئنان عليه، بينما تولى ناصر شؤون الزراعة وحده.

بنصيحة من أحدهم قصدنا به طبيبًا شهيرًا في القاهرة لم تكن تعبيرات وجهه مطمئنة.

وبأدوية جديدة رجعت والسيد صابر من القاهرة وصلاح بيننا لا يقوى على شيء. أصبح أسير سريره، تخطفه غيبوبة وتعيده.

بعد عدة زيارات رحم الطبيب توسلاتنا بإبلاغنا أن «الحالة متأخرة»، لكن لا مفر من العلاج.

تناوبنا رعايته، وأصبح السيد صابر شبه مقيم معنا، وعلي يراقب عمه بصمت، بينما فريد -رغم انشغاله بالثانوية العامة- يعاون ناصر في أعمال الحقل بعد أن ألقيت كلها على كاهله.

خيمت على البيت كآبة تأبى إلا أن تفرض نفسها على حياتنا كل فترة.

المرض يقعد صلاح، لكن وجعًا أكبر يسكنني وليس بوسعي التأوه؛ فأي صرخة عاجزة عن البوح بما بي.

هل هذا الوقت المناسب لمعاتبة أم صلاح؟

أخذلتني برحيلها المبكر؟

ألم يكن زواجنا اتفاقًا ضمنيًّا على أن نمضي معًا حتى نكمل رسالتنا؟

هل هي أكثر راحة مني الآن، أم أن لديها هناك ما يؤرقها؟

وكأنها تشعر بي، بل تشعر بي فعلًا، لم تتركني غارقًا في الانشغال عليها وعلينا وجاءت تطمئن على صلاح، أول ثمرة لزواجنا. مسحت عرقه بيديها فامتلأ وجهه بالعافية، وقبل أن ينهض أخذت رأسه إلى صدرها فارتد صغيرًا، تجري أصابعها في شعره فينكمش جسده إحساسًا بالدفء، فألقت عليه شالها الأبيض فنام على هذا النحو.

قطعت صرخة غفوتي وتبعتها صرخات وحركة وجلة في البيت. جريت إلى صلاح، كشفت عن وجهه المغطى فوجدته براء من كل مرض، لكن في حضن الموت وصباح تستحلفه أن يجيب عليها.

بكى فريد في حضن السيد صابر، والتاع كل صغار البيت إلا علي وقف يرقب المشهد كله صامتًا.

ذهب صلاح مستغلًّا غفوتي لدقائق من هول تعبي، جرني إلى وداعه رغمًا عني، وقفت مستسلمًا

عند القبر أتلقى العزاء من طابور طويل. لم أتبين من صافحني ومن قبلني أو ربت على كتفي.

سقطت ورقة أخرى من شجرتنا المروية بالفناء، ووضعت أيتامًا جددًا على كتفي سيحاصرونني بالأسئلة ويشبون على الشعور بالفقد غير المبرر، على الأقل كما تراه أفهامهم الغضة.

عيون القبر تسخر منا، تنفذ إلى دواخلنا العاجزة عن المرور إلى ما خلفها. فتحت عينًا لتلتقم صلاح وترقده إلى جوار ما تبقى من مسعد، وقبل أن نغادر صرخ فريد في وجه علي:

- كنت دايمًا تسأل ليه أبوك أنت اللي يموت ويسيبك، خلاص اتساوينا.

***

ارتج فريد بوفاة أبيه، لكن جرحه لم يكن غائرًا كجرح علي.

أطلق فريد لحيته، لأول مرة، لم يعد يهتم بأمر الثانوية العامة وكاد يهمل دروسه نهائيًا لولا الأستاذ مصطفى رشدي. وعلي.

أحاطه عدد من مدرسي القرية، بتخطيط من الأستاذ مصطفى، برعايتهم، وكان علي يسهر في قربه يلخص له بعض الدروس أو يساعده في استظهار ما يحفظه، أو يصنع له نماذج أسئلة ويقيم أجوبته.

بقيت أسئلتهما المتبادلة في أوقات الراحة وخلال سيرها للمذاكرة بين الحقول، عن الفقد وغياب من نحب بلا أجوبة.

تفهم فريد حدة علي التي كان يبديها في بعض المواقف، وقدر عدم احتماله، أو استيعابه، مأساة والديه.

حدثه علي عن بحثه في الكتب التي قرأها من مكتبة الأستاذ مصطفى رشدي أو أعطاه إياها حسن عبد الجواد عما يريح روحه من وطأة الأسئلة، وكيف وجد فيها شخصيات انشغلت منذ قرون بما ينشغل به.

رغم قرب الامتحانات، وجد فريد نفسه مدفوعًا إلى النظر في هذه الكتب، لعله يفهم بعض ما يستعصى على ابن عمه. دله علي إلى شخصية أبي العلاء المعري فوجده باحثًا مثله عن إجابات لا تأتي.

وقف فريد عند قول طه حسين عن المعري :»أبو العلاء قد هداه عقله إلى أن لهذا العالم خالقًا، وإلى أن هذا الخالق حكيم. لا يشك في ذلك، أو على الأقل لا يظهر فيه شكًّا.. وهو إذا تحدث عن هذا الخالق الحكيم تحدث عنه في لهجة صادق يظهر فيها الإخلاص واضحًا جليًّا. ولكنه عاجز عن فهم هذه الحكمة التي يمتاز بها هذا الخالق الحكيم. وعجزه عن فهم هذه الحكمة هو الذي يضنيه ويعنيه ويعذبه في نفسه أشد العذاب. خالق حكيم، خلق هذا العالم ورتبه على هذا النحو الذي رتبه عليه، ولكن لماذا، وما بال هذا الخالق الحكيم الذي منحنا هذا العقل وهدانا إلى التفكير لم يكشف لنا القناع كله أو بعضه عن وجه هذه الحكمة التي لا نشك فيها ولا نرتاب؟».

سأل فريد الأستاذ مصطفى رشدي عن عجز الإنسان عن فهم ما يدور حوله، والهدف من خطاه

المنهكة بين الرحم والقبر، وهل هذا سبب حيرة علي أمام الموت الذي خطف أباه ولم يمهله لاستكمال رحلته، هل كان مكلفًا فقط بأن ينجبه ويتركه نهبًا لعذاباته؟

كان أستاذهما -مثلهما- ملقى في سعير الأسئلة، لكنه عود نفسه على الهروب منها سريعًا كلما داهمته.

لم يملك إلا أن يطالبهما بأن يهدآ، قائلًا -على غير حقيقة ما يؤمن به- إن كل شيء سيتبدى لهما جليًّا كلما اتسعت أمامهما الرؤية وامتد بهما الطريق.

عادا إلى المذاكرة، فما يعرفانه حقًّا الآن أن أمام فريد امتحانات قريبة وأن الكل ينتظر فرحة عابرة بتفوقه المعهود، لكن التفوق هذه المرة يقربه من نهاية مراحله التعليمية ليكون -حين يتوظف- عونًا لعمه وجده في إدارة البيت المثقل بأحزانه.

لم يخيب فريد رجاء العائلة وحل -رغم صعوبة الفترة السابقة على الامتحانات- في قائمة أوائل المدرسة، غير أن الفرحة لم تكن خالصة.

استقبلت صباح نتيجة علي بصرخات كالتي أطلقتها في وداع صلاح، ونادت الأب الغائب أن يقوم من مرقده ليشهد تفوق ابنه. كنت أرجوها أن ترحم اللحظة العابرة وتتركها لنا خالصة من أي غصة، لكنها استمرت في تكبير الجرح حتى ابتلع عبارات المهنئين بنجاح فريد.

رغم ذلك، توافد أهل القرية علينا لأيام جلست بعدها مع ناصر وعلي وفريد، في حضور الأستاذ مصطفى رشدي، لأعرف وجهته بعد الثانوية.

رغب فريد في دراسة الفنون الجميلة، لكن أستاذه استصعب هذا المسار مع علمه بشغف فريد بصنع لوحات من كل شيء يقع تحت يديه.

اقترح أن يختصر الطريق ويلتحق بكلية التربية ليعين مدرسًا فور التخرج، فيساعد في تعليم إخوته، ولا بأس أن يمضي في هوايته الفنية بجانب الوظيفة.

لم يناقش فريد وأبدى قبولًا لرأي الأستاذ مصطفى، فنهره علي وحثه على أن يختار طريقه كما يشاء فعنفه ناصر، ربما للمرة الأولى، وطالبه بألا يتدخل في حديث الكبار ثم غادرنا وعلى وجهه ضيق.

حين خرجت مودعًا الأستاذ مصطفى، كان ناصر يجلس على «المصطبة» أمام البيت، وقف للسلام على الضيف قبل أن أدعوه للجلوس ثانية لأفهم سبب ضيقه.

***

لم أملك رفاهية التعبير عن «كسر ظهري» بمسعد وصلاح بعد أمهما وغياب سامية تاركة مأساة مكتملة لعلي.

أنا محور هذا البيت المكلوم، بل أنا قلبه النازف والمنسي في آن. ليس لي أنيس، حتى السيد صابر، الصديق والنسيب، يبدو ضنينًا بكلمة مواساة، حتى لا يضعفني، لكني أريدها، فأنا الشجرة التي تنهبها ريح متوالية ولا سبيل أمامها إلا الصمود، ومن المفارقات أن الكل يتشبث ويستقوي بي!

ناصر لديه بناته، وصباح وجدت في أبنائها عوضًا عن غياب صلاح، وها هو فريد يرسخ قدميه في أرض المستقبل، وعلي اعتاد ما هو فيه، أو على الأقل توقف عن النقمة علينا وعلى الموت وعلى نفسه.

أما أمينة، آهٍ يا أمينة، كادت أنانيتي تنسيني بؤسك.

لا شقيق قريب منك كما كان مسعد، لا زوج، لا ابن يرث طيبتك وحنانك، حتى ابنك البديل: علي، استمرأ طعناته لك وهو يناديك: يا عمتي.

أمك يا أمينة وأخواك، وحتى سامية، تركوا ذكرى، لكنك حين ترحلين لن يبقى منك إلا شيمك ونكرانك ذاتك ثم ينسون.

ينسون أمينة؟

يا للقسوة!

وفيم العجب وقد نسوا من رحلوا قبلها، حتى الذين تركوا أعظم الآثار؟

إذًا، هي الآن ميتة على قيد الحياة، قبرها غرفتها التي لم تعد تغادرها إلا نادرًا.

الحياة بلا هدف موت.

والحياة بلا رجاء موت.

الحياة بلا حياة موت.

كنت أنا الذي أقصدها كل يوم وداعبتها مرات بادعاء أن هناك من طلبها للزواج، فتبعد وجهها عني وفيه كل أمارات العبثية، ثم تستدير قائلة بحزم:

- وفر يا حاج جهدك لعلي وفريد وإخواته وبنات ناصر، لسه السكة طويلة.

لماذا تطول السكة يا أمينة؟

ماذا لو انتهت الآن؟

هل من فرق ما دامت النهاية آتية لا محالة؟

حتى إذا كانت النهاية حتمية، هل نملك غير الاشتباك مع ما قبلها والانشغال بتفاصيل تحرق أعمارنا طالت أم قصرت؟

***

لم يملك ناصر شجاعة أن يعبر عن سبب ضيقه حين سألته، راوغني وهو يعلم أنه لم يفعل ما فعل في وجود الأستاذ مصطفى رشدي إلا مدفوعًا بشيء ثقيل يجثم على نفسه.

بعد أن فشل في أن ينطق بما يشغله، خرج إلى أول الشارع وعاد سريعًا فوجدني في موضعي على «المصطبة» وباغتني بما لم يتوقعه أحد:

- ربنا يخليك لنا يا حاج، بس أنت عارف إن كل الحمل بقى عليّ.

- عارف يا ابني، الله يعينك.

- لازم واحد من العيال يساعدني، أنا مش هفني عمري في الأرض ويقعدوا هما مستريحين، أنا عندي بنات محتاجني.

- هما مين يا ابني؟

- فريد وعلي، واحد يكمل علامه وواحد يساعدني في الأرض، وإلا كل واحد ياخد حقه ويشوف مصلحته لوحده.

تركني ناصر بعد أن ألقى عليّ ما كان يثقل عليه.

ماتت أم صلاح ومات مسعد وبعده صلاح، وهذه أول مرة تقربني من أجواء تقسيم الميراث.

كنا شجرة واحدة قبل أن تتشعب الفروع وتتنوع المصائر. هذه واحدة من لحظات الافتراق يجرنا ناصر إليها، فأي مصائر أخرى تنتظرنا جميعًا؟

ماذا يخبئ كل لوح لصاحبه؟

ناصر المطواع الذي يتوسط صلابة صلاح ورقة مسعد يوقظ غيبنا الذي لم أفكر فيه كثيرًا.

الآن ينشلني من قسوة كل ما فات إلى خوفي من الآتي، ولا بد لي في أيٍّ منهما، ولم أخترهما. فقط أمضي إلى ما ينتظرني، ولست أدري ما هو، كما عبرت ما حل بهذه العائلة من غير قوة لي تقف في وجه ضيفنا الذي لا ينسانا: الموت.

أدهشني أن صباح، حين فتحنا ما اقترحه ناصر، لم تغضب منه، أو على الأقل بدا لنا ذلك. أشعرتنا أن أهم ما ورثته من صلاح رزانته وعقلانيته.

لم تدع لناصر فرصة تبرير ما طلبه، ورغم ما بها من حزن وخيبة أعلمهما بسبب فريد، رأت أن مستقبلها ومستقبل إخوته، إن لم يكن معظم العائلة، رهن بتضحيته، فعمه لا يستطيع الصمود وحده في وجه مسؤوليات الزراعة ومعاونتي في تصريف أمور البيت، وأن فريد يجب أن يحل مكان أبيه.

وددت أن يقودني تفكيري إلى مخرج يجنب التفريق بين فريد ومسلكه التعليمي الذي لم تبق فيه إلا خطوات، لكني لم أجد!

كنت أشفق على فريد وأقرأ في عينيه سؤالًا خجلت أمه من طرحه وهو: لماذا أنا الذي لا يكمل رحلته الجامعية ولا يضحي علي؟

مثلما فعلت أمه، لم ينطق فريد بهذا السؤال، ربما حبًّا في علي، أو لأن أمه أوحت له بما صمتت عنه وهو أن ابن عمه لم يجرب يومًا العمل المضني في الحقل، وهو الأصغر وفاقد والديه، وقد تخشى العائلة من دفعه إلى التضحية فتتهمها القرية بأنها فرطت في رعاية اليتيم.

تركنا فريد وفي قلبه أسف على أحلام تبددت، وتبعه علي ليواسيه، فعرضت أمينة أن تخرج هي لمعاونة ناصر في الزراعة، فتجنب فريد الحسرة ومن بعدها غيرة محتملة من ابن عمه.

لم يقبل أينا ما قالته رغم رجائها أن نتفكر في الأمر، فهي بلا زوج أو ولد يشغلها، وكثيرات من نساء القرية وفتياتها يعملن في الزراعة في حقولهن أو أجيرات وليس في ذلك عيب.

لم تتخل أمينة عن فكرتها إلا حين أقسم ناصر أنه سيدفعني إلى بيع كل ما نملك من أرض إذا أعادت هذا الاقتراح.

***

افترقت السبل لأول مرة بفريد وعلي، لم يعودا يقضيان معظم وقتهما معًا إلا في العطلة الصيفية، فخلال شهورها يعرض عليه عمه مرات كثيرة أن يرافقه وفريد إلى الحقل.

لم يكن، كمسعد، يشارك في عمل مضنٍ، لكن وجوده كان مريحًا له ولفريد ورأيت في ذلك ما يحفظ وصالهما.

في بقية الشهور، كان علي متفرغًا للتعليم والمشاركة في الأنشطة المدرسية والقراءة ومساعدة الأستاذ مصطفى رشدي في تسيير أمور مركز الشباب وتنظيم مسابقاته.

لم يكن فريد -رغم انقطاعه عن التعليم- بعيدًا عن هذه الأجواء، وشارك في قوة بأنشطة المركز.

لم يكن فلاحًا بالمعنى الحقيقي، فهو حاصل على الثانوية العامة وكان معروفًا بتفوقه وحبه للقراءة، وكان انشغاله في الحقل يحرمه من الانتساب الكامل إلى المتعلمين، رغم أن عددًا كبيرًا منهم لم يغب عن أعمال الزراعة، لكنهم يجتمعون في مقهى شبه قاصر عليهم ويملكون معظم وقتهم على عكسه هو.

بقي علي وحب الأستاذ مصطفى لفريد جسره الذي يربطه بالفريقين: الفلاحين والمتعلمين، بل إنه كان سباقًا إلى تنظيم فصل لمحو الأمية في مركز الشباب يقصده بعد صلاة العشاء كبار السن مرتين في الأسبوع، ثم استأذن عمه في أن يتفرغ كل جمعة لدروس تقوية يقدمها بالمجان لمن يرغب من تلاميذ القرية.

لم ترق الفكرة لناصر في البداية، ثم استوعبها حين بينت له ضرورة مراعاة مشاعر فريد الذي انقطع حلمه وأن نقدر تضحيته بمنحه مساحة يفعل فيها ما يحبه.

لم يكتف فريد بتعليم التلاميذ، بل جذب عددًا منهم إلى صنع الأشكال الفنية من الطين والخشب وما يتوفر من معادن مثلما كان يفعل هو وعلي في طفولتهما.

النشاط الذي بثه فريد في المركز كان لافتًا وأغرى علي بإحياء مسرحه الذي بدأه بجوار البيت، لكن بلا شطط هذه المرة، فلا أحد ينسى أنه كاد يقتل مريم على خشبته.

في باحة المركز، كانا يتعاونان في صنع الديكور المناسب لكل مسرحية، لكن علي صاحب الكلمة العليا في رسم حركة الأطفال والشباب الممثلين على خشبة المسرح.

كتب لهما الأستاذ مصطفى مسرحيات قصيرة تحاكي اهتمامات القرية وتصور تفاصيل الزراعة والحصاد والأفراح والمآتم، وتحتفل بمناسبات سنوية كالحج والمولد النبوي وعيد الأم.

كان علي في هذه الفترة متخليًا عن حدته التي يروضها انشغاله بالتعليم والقراءة وصحبة فريد، خاصة في المركز.

كل ذلك الهدوء التهمه نص كتبه الأستاذ مصطفى استعدادًا للاحتفال بعيد الأم من غير أن يتوقع أنه يوقظ كل سوءات علي الذي رفض أن يحضر حتى مناقشات إعداده.

فكر الأستاذ مصطفى في إلغاء العرض، لكن فريد رأى أن علي يجب أن يواجه كل ما يوجعه حتى لا يستفحل داخله ثم يأكله وكل من حوله.

خاب سعي فريد في جر ابن عمه إلى منازلة مع نفسه على المسرح يشتبكان فيها ليتطهرا، لكن علي آثر الانسحاب.

ليلة العرض، غاب علي، هرب إلى حواف القرية.

ألقى نفسه تحت شجرة ونام حتى الصباح.

***

لم يعد فريد يسمح لشيء بنكأ جرح علي، جعل من نفسه سياجًا بين ابن عمه وكل ما يذكي ناره، أصبح حارس مشواره المتأهب دومًا لحمايته حتى من نفسه.

اعتاد أن يعاونه في المذاكرة، خاصة أيام الامتحانات ويعطيه كل ما يقع تحت يده من كتب لتهدأ روحه.

عرف أنه جرب التدخين ولم يبلغ أحدًا، لكنه عنفه، وصب ذروة غضبه عليه حين تورط مع مجموعة من زملائه في المدرسة في سرقة الرمان من حديقة الحاج فاروق عدنان القريبة من المدرسة.

أصر الحاج فاروق على إبلاغ النقطة، لكن وساطة الأستاذ مصطفى احتوت الموقف.

بعدها أدمى علي وجه زميله الذي عايره بهروب أمه، وأنهى فريد المشكلة قبل أن أعلم بها.

كان فريد متوثبًا لإنقاذ علي من ورطات متفرقة يذهب إليها بحكم المرحلة العمرية والرغبة في التجريب أو التنفيس، لكن تطورها يمكن أن يجر إلى ما هو أكبر.

في كل مرة، كان فريد يذكره بأنه منذور لما هو أفضل من هذه السقطات ويسأله ألا يخيب فيه الرجاء: رجاءنا جميعًا.

أعاده بحب ورفق ونضج إلى خطى متزنة تقوده إلى مواصلة تميزه التعليمي، ونهمه في القراءة وبوادر الكتابة المتنقلة بين القصص والشعر وتجارب المسرحيات.

لم أتدخل فيما بينهما، علمت بكل ما فعله علي ولم أتدخل ما دام فريد يحسن التصرف.

كانا يتبادلان -بغير قصد- دوري الأب والابن، لكن فريد بتضحيته وانخراطه في تحمل شؤون العائلة وحالة التذبذب التي يحياها علي، جعلته يستقر لوقت أكبر في عبء المسؤول عن هداية ابن عمه وحمايته، ولو من نفسه.

وكأن ناصر أصبح باعث التحولات في حياتنا، فبعد أن مضت بسلام تداعيات اقتراحه الذي أخرج فريد من مساره التعليمي، ها هو يفاتحني في أمر تزويجه ليجد من تؤنسه ويكون في ذلك بعض التعويض له.

في الفكرة بعض الوجاهة، ففريد لن يعطله تجنيد بعد أن حصل على تأجيل سينتهي لا شك إلى إعفاء بحكم أنه عائل أسرته، ودخول امرأة جديدة إلى بيتنا قد يكون خروجًا على الكآبة المحيطة بالبيت منذ تجددت أحزاننا بموت صلاح.

سعدت صباح بالفكرة حين عرضتها عليهم ونحن نتغدى، وشجعتها عفاف، ولم تعلق أمينة التي أصبحت مستسلمة لكل ما يجري، أفراحًا وأتراحًا، فقط تنتظر ما بعد كل حدث.

الرافض كان فريد، الذي لم يقبل ما اعتبره عمه إغراءات له وأنهى النقاش معه بجملة واحدة:

- لما مريم بنتك تبقى عروسة هتجوز.

صمت ناصر وهو ينظر إلى ابنته التي لا تزال أقرب إلى الطفولة وإن كان جسدها يبشر بشابة تنبض بكل معاني الحياة، وأدرك العم أن فيما قاله فريد رفضًا صريحًا لاقتراحه.

كانت عينا علي مصوبتين تجاه مريم منذ أن ورد اسمها في الحوار ومازح فريد بعد أن ذكره:

- يااااه، أنت لسه هتستنى مريم، يا ابني عيالك هيقفوا جنبها في الكوشة.

نقلت أمينة عينيها بسرعة بين ابني أخويها ثم ثبتتهما على مريم قبل أن تعود إلى غرفتها.

***

منذ أصيب صلاح، عانى أكثر من شخص مشكلة في كبده، وكأنه فتح باب هذه اللعنة التي لم تكن معروفة في قريتنا وحرمتنا من بعض الأحبة.

اتهم الأطباء البلهارسيا وتلوثًا في الماء والغذاء، لكن المحير هذا التعاقب في الإصابات التي توزعت على أعمار عدة وطالت أشخاصًا لم يخوضوا في ماء الترعة يومًا ولم يشربوا منها.

لم تخبُ نار الذين عادوا من العراق جثثًا مرت على بيوتها دون أن تدخلها، حتى غرقنا في جحيم أسباب جديدة للوعة.

سمعنا عن أمراض لم نسمع عنها من قبل، خاصة بين الذين جربوا السفر فهيأتهم الغربة لموت لا يشبه موتنا.

لم أضبط علي مرة مأخوذًا من الموت، كان يستقبله مع الإعلان عن كل راحل ببرود، وأحيانًا بسخرية، لكنه كان يرق حين يسمع بمرض أحد.

كان وفريد عائدين من «حضرة» أقامها الحاج متولي أمام بيته على أطراف القرية وفي عيونهما بشر لا يخطئه مبصر، فلم أرغب في مباغتتهما بالخبر الذي سيحزن علي بلا شك.

وجداني على «المصطبة» أمام البيت فألقيا بنفسيهما إلى جواري منهكين من نشوة مسيطرة على روحيهما.

في شكوى مصطنعة سألني فريد:

- يرضيك يا جدي اللي عمله علي في؟

بدأ يحكي كيف أن علي داوم فترة من غير أن يخبر أحدًا على المشاركة في «الحضرة» التي يقيمها الحاج متولي كل فترة ويدعو إليها أصدقاء من خارج القرية ويحضرها جيرانه والراغبون من أهلها بغير دعوة.

عرفت أن علي أغرى ابن عمه هذه الليلة بمرافقته إلى «الحضرة»، وهناك ذابا بين الذاكرين ولم يتوقفا عن الدوران معهم إلا وقفات قليلة تناولا فيها «القرفة»، لكنهما غادرا قبل أن يتحلق الحضور حول صواني العشاء.

طمأنتهما إلى أن نصيبهما من العشاء محفوظ في الداخل، لكن أحد جيراننا مر فجأة وسأل إن كنت علمت بمرض حسن عبد الجواد وأن أحد أقاربه نقل عن طبيب أن حالته صعبة.

لم ينتظر علي الذي كنت سأبلغه بالموضوع بعد أن يتعشى، سماع جديد وأسرع إلى منزل حسن عبد الجواد دون أن يستجيب لفريد وهو يستمهله لمرافقته.

وجد في عيني صديقه ومرشده ما يخشاه، سكنهما الخوف على صغاره، وجسده القوي مستكين لا يسعفه للحديث كثيرًا، ورائحة الدواء تذكر الزائر بعمه صلاح.

سعد حسن بزيارة علي، الذي اكتفى بالمراقبة متجاهلًا دعواته إلى شرب الشاي الذي استمرأ مرات تناوله في هذا البيت.

عاد علي شخصًا آخر غير الذي رجع قبل ساعات من «الحضرة» ممتلئًا بالنور. لم يجبني وفريد حين سألناه عن حالة حسن إلا بجملة واحدة:

- ادعوا له.

لم يمض أسبوع حتى انطوت ورقة حسن، شيعه أهل القرية يتقدمهم الشباب والأطفال الذين بث فيهم الكثير من قوة روحه وجسده وها هو الآن مستسلم ضعيف فوق أعناقهم سيلقونه في التراب ويعودون إلى دنياهم.

***

وجد علي في زيارة أولاد حسن بعض السلوى، شده اليتم المشترك إليهم، ساعد كبيرهم في المذاكرة وصحبه مرات في نزهات في شوارع القرية وبين الحقول.

لم يدخل بيتهم مرة إلا حاملًا الحلوى، واستأذنني مرات في أن يهديهم بعض الأرز والدقيق واللبن

مما تجود به أرضنا ومواشينا.

لم تكن زيارته لمنزل حسن تثير الاستغراب، فالكل يعرف العلاقة الوثيقة التي كانت بينهما رغم فارق العمر.

كان يسلم على عائلة حسن في كل زيارة ثم يستأذن صاعدًا إلى الدور الثاني حيث بنى غرفتين من الطوب اللبن تزوج فيهما وحولهما وما بينهما من مساحة إلى ما يشبه القصر الصغير.

كانت غرفة نومه في غرفة، والأخرى للأبناء وبعض ما يخزنه من أرز ودقيق وخبز وجين قديم، بينما وضع في المساحة الفارغة بين الغرفتين تلفزيونًا ومروحة صغيرين وحول جدارًا إلى مكتبة غطاها بملاءة قديمة، بينما شتلات لبلاب تتسلق بقية الجدران.

كلما اتخذ علي مكانه على الكنبة ومن حوله الأطفال يلعبون، تذكر وجه حسن النابض بالحياة ونظراته المتنقلة دومًا بينهم كأنه يحاول أن يشبع منهم قبل أن يغادر.

كان علي يزور أسرة حسن وحده أو برفقة الأستاذ مصطفى رشدي الذي دأب على أن يترك لهم بين وقت وآخر مظروفًا به مبلغ يعينهم على مواجهة الحياة.

سألته مرة أن يحمل إلى أسرة حسن بعض المساعدات فرفض وساق أكثر من حجة يبرر بها رفضه، فأرسلتها مع زوجة عمه عفاف التي نقلت إليّ عند عودتها شكوى أرملة حسن من توقف علي عن السؤال عنهم.

كان ذلك تحولًا في موقف علي حاولت استجلاء أسبابه فلم أفلح. استعنت بفريد الذي أفصح له ابن عمه عن مصيبة، ففي إحدى زياراته لأسرة حسن وجد الأبناء نيامًا فترك ما يحمله وقرر المغادرة، لكن أرملته رجته أن يبقى لتستشيره في مشكلة بعد يشرب الشاي.

نقل فريد تفاصيل أغوت بها علي، فبعد أن شرب الشاي غابت لدقائق في غرفتها قبل أن تنادي عليه ليساعدها في إنزال كرتونة تحوي أوراقًا مهمة لحسن من فوق الدولاب.

بعدها كشفت لعلي طرقًا للغواية عجز عن التصرف حيالها، فاستفزت فيه رجولة فقد السيطرة عليها وأعماه الخوف من أن تصرخ وتتهمه بمهاجمتها إن رفض إغراءها.

لم أكن أعرف أرملة حسن عن قرب؛ فهي من خارج القرية والمرات التي صادفتها فيها بالشارع لم تتضمن غير السلام، لكن عفاف بعد أن زارتها روت بلؤم نسائي أنها استشفت انشغالها بغياب علي.

رغم انقطاع علي عن زيارة بيت حسن، خشيت أن يلين تحت وطأة مراهقته ويتكرر ما وقع بينه وبين أرملته، فقررت قطع الطريق على فضيحة قد تعرقل مستقبله بعد أن بلغ الصف الثاني الثانوي وتضعنا جميعًا أمام كارثة أكبر من أن يحتويها فريد كما فعل في مرات سابقة.

في اليوم التالي كنت في بيت حسن وبين أفراد عائلته في الدور الأول وطلبت أن يستدعي أحدهم أرملته وأبناءه.

سلمت علي سائلة عن علي وهي ترجو أن يكون بخير، فعجلت بذلك رسالتي التي كنت أستبقيها لنهاية الزيارة، خاصة وأنا أمام أنوثة لا يحجب الجلباب الأسود منها شيئًا.

بينما أنظر إلى الأبناء، نصحتها بأن تهتم بالأمانة التي تركها حسن وأن ذلك غاية الوفاء له، فكل ما كان يشغله مستقبلهم، بل ومستقبل علي الذي يصرف كل جهده الآن لبنائه ولن نسمح لشيء بأن يعطله.

أدركت أني علمت السقطة التي غيبت علي عنها، وقاطعتني داعية له بالتوفيق وهي تتركنا راجعة إلى الدور الثاني.

لم تمض أيام حتى كانت القرية تلعن أرملة حسن التي تركت أبناءها لعائلته، وعادت إلى قريتها لتتزوج بقريب لها هناك.

***

بغياب أرملة حسن عن القرية، تلاشى ما كان في نفس علي من قلق سيطر عليه في الفترة الأخيرة، لكن الهواجس تملكتني من أن تتكرر التجربة ولا نستطيع التصدي لها فتؤثر على مستقبله. امتدت هواجسي أيضًا إلى فريد أيضًا الذي ربما في حياته وابن عمه بعض الجفاف، فالحزن المتجدد في عائلتنا ترك في نفسيهما مسحة من الأسى، وتراجع دور أمينة ثم صباح بعد وفاة زوجها جعل الشابين أقرب إلى الخشونة أو الجهل في تعاملهما مع الجنس الآخر.

تجددت في ذهني فكرة تزويج فريد، لعلني أستريح من عبء أحدهما وحتى لا يستسلم لحياته الخالية من أي لمسة أنثوية مكتفيًا بتنقله بين عمله في الحقل ونشاطه في مركز الشباب، خاصة أن علي يقترب من إنهاء المرحلة الثانوية وسيلتحق بعدها بالجامعة تاركًا مع انشغاله بها بعض الفراغ في روح ابن عمه.

بدا فريد ميالًا إلى الموافقة هذه المرة، لكنه طلب تأجيلها شهورًا حتى يتسلم وظيفته ويستقر فيها.

- وظيفة؟ وظيفة إيه؟

عاجله ناصر بالسؤال الذي لمع في رأسنا جميعًا. وسارع علي إلى سرد التفاصيل بهدوء كأنه يحبط غضبًا منتظرًا لعمه.

حكى علي أن مسؤولًا عن العمل الثقافي في مصنع الغزل والنسيج بالمدينة زار مركز الشباب مدعوًّا من أحد أعضاء مجلس إدارته للاطلاع على أنشطته، ولما علم بجهد فريد فيها وسمع إشادات متكررة به عرض عليه مساعدته في التوظيف بالمصنع الذي قد يفيده شخصيًّا ويثري النشاط الثقافي به.

أعطى فريد الزائر ما طلبه من أوراق بتشجيع من علي ومسؤولي المركز، كما روى، ونسي الأمر، لكن الرجل لم ينس وجاءه بموافقة على توظيفه.

ازداد وجه ناصر احمرارًا مع كل جملة وبتنا على أعتاب العودة إلى تبرمه القديم من تحمل كل المسؤولية الذي غير مسار فريد.

ارتاح فريد لتصدي علي لرواية التفاصيل لكنه واجه بنفسه، بنظرات مشجعة من علي، غضب عمه الذي بدأ ينفثه في كل اتجاه لاعنًا الدنيا التي تضن عليه بالراحة منذ خلق.

عرى فريد روحه أمامنا فبان هول ما فيها من تشتت.

ذكر عمه بحجم تضحيته وهو على أعتاب الجامعة، وكيف تحول من مشروع جامعي ثم موظف إلى مزارع لا يميزه شيء عن المئات من الذين لم يلتحقوا بمدرسة يومًا أو تسربوا منها ويقنعون بشقائهم اليومي في الحقل وحياتهم الرتيبة.

تبارز ناصر وفريد بالتضحيات فتعقد الموقف وكلنا يتابع في صمت.

هم علي بالتدخل نصرة لفريد، لكن نظرة مني منعته، غير أنها لم تردع عمه عن مطالبته في فورة غضبه بأن يخرس لأنه بلا فائدة يأكل ويشرب من خيرات أرض لم يعرق فيها يومًا ويعيش، كما كان أبوه، في دنيا أخرى.

أصبح ناصر في مرمى كل العيون الحانقة على ما قال، خاصة مع بكاء علي الموجع.

كدت ألطم ناصر فتدخلت صباح وأمينة التي جلست بجوار علي واحتضنته ثم تبعتها عفاف، فيما بناتها يبكين وفريد ينعت عمه بالحماقة وقسوة القلب.

تحولت لطمتي إلى فريد لا ليتأدب مع عمه فقط، ولكن أيضًا لإحساسي بأن البيت الذي حميت تمسكه رغم كل ما عشناه يكاد يتمزق.

انتهى الموقف مؤقتًا بتفرقنا، قصدت المسجد لأصلي، وتبعني ناصر وفريد، كل إلى وجهته، وبقي علي في حضن أمينة لا يقطع بكاءه إلا لعنات للظروف التي ألقته في تيه يسلمه إلى تيه.

***

حدث ما خشيته.

لم يكلف ناصر نفسه تطييب خاطر علي وخاطرنا بعد ما قاله، بل تمادى في غيه، قاطعنا تقريبًا وأصبح يتناول طعامه مع زوجته وبناته في غرفته.

مريم بقيت جسرًا بيننا تستغل غيابه وتدخل إلى غرفة أمينة لتطمئن على علي وترجوه ألا يغضب من أبيها وتلح عليه أن يأكل شيئًا، بل تحاول إطعامه بيديها فيأبى.

استمر الوضع أيامًا حتى فاجأني السيد صابر بأن ناصر وسطه ليحصل على حقه في الأرض الزراعية والبيت ويعيش منفصلًا عنا.

هكذا ببساطة يترك ناصر دفئنا ويختار أن يكمل الطريق وحده، لا يسعى فقط إلى تفتيت ما نملكه، بل يتعامى عن أنه يحرمني من الابن الوحيد الباقي ويضع جدارًا بين قلوبنا وقلبه.

لا بأس، سبقه اثنان إلى الموت، فليكن الثالث، ولو كان ميتًا على قيد الحياة.

الجزء الذي سيؤول إليه من البيت سيكون مقبرته، والصبار الذي يروي حياة الموتى سيكون أحن

عليهم من خضرة نصيبه من الأرض عليه.

الورقة التي أصر أن نوثق بها القسمة وشهد عليها السيد صابر وآخرون هي بالنسبة لي شهادة وفاته، ولن يحظى أيضًا بزياراتنا كما نفعل مع الموتى.

عوضي في فريد وعلي، إن كنت خسرت واحدًا فقد ربحت اثنين هما الوريثان للمسؤولية.

لا مفر من المضي في الحياة مستندًا إليهما فقط، غير أن ما يحز في النفس بنات ناصر، تحديدًا مريم التي أعرف أنها ستدفع ثمن هذا الانفصال، خاصة إذا منعها من ودنا وأبقاها خلف الجدار الذي قام بين جزئي البيت.

المسؤولية التي ملها ناصر وهرب منها لا يمكن أن ألقيها على كواهل فريد وعلي؛ فهما على أعتاب مر حلتين جديدتين، فكيف نأكل إذا أهملنا نصيبنا من الأرض الزراعية؟

أقنعني السيد صابر بأن نشارك أحد أبناء القرية في زراعة الأرض على أن نقتسم محصول كل موسم، ولم يكن هناك بد من القبول.

مضى فريد في إجراءات تسلم الوظيفة الجديدة. بعد التدريب أصبح بسرعة قادرًا على التعامل مع آلات الغزل والنسيج ثم شرع في نشاطه الثقافي بالمصنع.

بدأ فريد ينظم مسابقات واحتفاليات وعروضًا مسرحية يستعين فيها بعلي الذي عاوناه على تجاوز، أو تناسي، مرارة ما قاله عمه فانخرط بمجرد أن أنهى السنة الدراسية في نشاطات كثيرة موزعة بين مركز الشباب والمصنع حتى كون صداقات كثيرة بين عماله المهتمين بالعمل الثقافي وزواره من أعضاء الأحزاب والفنانين والكتاب.

***

بانشغال علي وفريد، أصبحت مريم أنيسي في غياب أبيها مع حرص عفاف على أن تبقي الود متصلًا من غير أن يعلم.

اكتشفت وهي تجلس قريبة مني على «المصطبة» أنها تشبه علي كثيرًا وفيها رقته وعطفه، لا تتركني إلا إلى غرفة أمينة التي تمشط لها كل يوم شعرها ثم تتركها تجول بين كتب علي لتمضي في قراءة ما تستوعبه أو تكتفي بتقليب أوراق يستعصي عليها فهمها.

وقعت على دفتر يدون فيه خواطر وأشعارًا ونصوص مسرحيات قصيرة، حاولت تقليده وخجلت من محاولاتها مرات قبل أن تستجمع شجاعتها وتعرضه عليه.

ابتسامة علي وهو يقرأ بداياتها في الكتابة أغراها بأن تطلب ما لم يتوقعه. رجته أن يصحبها معه إلى مركز الشباب ومصنع الغزل لترى بنفسها ما يفعله وفريد هناك.

شهقت أمينة وهي تسمع رجاء مريم، وسألتهما إن وافقت أنا على هذا الطلب المجنون ماذا نفعل مع ناصر وبأي حجة تغيب عن البيت أو تذهب مع علي إلى المدينة حيث المصنع، بينما تزورنا سرًّا ولا يفصل بيننا سوى أمتار.

تأكد لي بما طلبته مريم أن التشابه بينها وبين علي لا يقف عند الشكل، بل يمتد إلى الروح.

لم أستهجن أن ترافقه إلى أي مكان، رغم أن أيًّا من بنات القرية لم تسبقها إلى ذلك، لكن ناصر سيبقى بينها وبين ما تتمناه.

لم يستسلم علي وهو يرى بكاء مريم لخوفنا من ناصر، فعرض أن نكسب المعركة معه تدريجيًّا، فتصحبه في هذه المرحلة إلى مركز الشباب تحت أي ستار، ونؤجل مرافقته إلى المصنع حتى تحين الفرصة.

حين عرفت عفاف بما نفكر فيه قبلت يدي راجية ألا نقر مثل هذا الأمر؛ لأن ثمنه طلاقها، واستدارت إلى علي تستعطفه بنظراتها الخائفة.

أبدى علي استعدادًا لمواجهة عمه إذا حدثت مشكلة، لكن عفاف لم تطمئن وبكت قبل أن تطلب أن ننجيها من خراب بيتها؛ لأن ذهاب مريم إلى مركز الشباب سيكون حديث القرية وسيصل، لا محالة، إلى أبيها.

بسبب خوف عفاف، خسرنا المعركة التي توقعها علي قبل أن تبدأ، لكنه وعد مريم بحل قريب فكفكفت دمعها ربما ثقة في وفائه بوعده واكتفت بكتبه صديقًا يخرج بها إلى عوالم عصية عليها الآن قافزًا الجدار الفاصل بين شطري العائلة، وجدار الخوف من ناصر.

***

حين عودتهما من المدينة بعد إحدى الأمسيات الثقافية في المصنع، وجد فريد وعلي معظم رجال القرية عند مدخلها، بينما الخفراء يحاول إبعادهم عن شيء ما يتحلق حوله ضباط.

نزلا من السيارة لاستطلاع الأمر وعلما أن الضباط يعاينون جثة كانت تسبح مع التيار في البحر فقفز إليها مزارعون شاهدوها فأخرجوها قبل أن يبلغوا نقطة الشرطة التي استنجدت بدورها بالمركز فأتى ضباطه يحققون في الأمر.

كانت الجثة لرجل مقيد اليدين وعلى جسده العاري تمامًا علامات تعذيب.

ستر المزارعون الجثة بعد أن أخرجوها من البحر بحشائش ومنع الضباط الاقتراب منها، لكنهم فشلوا في وقف تسابق الأهالي لاختلاق أسباب هذه النهاية.

ربما كان صاحب الجثة مع امرأة ما وضبطهما زوجها أو أقاربها وانتقموا منها بهذا الكل.

قد يكون تاجرًا اختلف مع شركاء أو خانهم فكان جزاؤه القتل. ربما تنازع وإخوته على أملاك ميراث فأخرجوه من القسمة إلى الأبد..

بكى علي وهو يدفع الضباط مقتربًا من الجثة حتى ظنوه تعرف على صاحبها، حدق فيها يحاول استنطاقها بتفاصيل لن تبوح بها أبدًا.

سأل الجثة إن كان صاحبها ترك خلفه ولدًا مثلما تركه أبوه، ولماذا اختار له قتلته البحر مسرحًا للنهاية مثلما كان لأمه. هل حمل البحر جثتها إلى بلد لا يعلمه؟ هل لفظها بكامل ملابسها أم عارية؟

كان جسده الذي انهار بجوار الجثة ثقيلًا على ضابط يحاول رفعه ودفعه بعيدًا عنها ولا يزال يعتقد أنه يعرف صاحبها.

انتبه الضابط أن علي من أبناء القرية حين وجد أكثر من شخص يناديه باسمه طالبًا أن يبتعد عن الجثة ليترك الضباط يكملون عملهم.

استعان الضابط بمعاونين له لإبعاد علي عن الجثة، وحين هموا بإخراجه من الدائرة المحيطة بها فاجأه الضابط بلعنات وصفعات تعاقبه على تعطيلهم عن المهمة.

في ثوانٍ كان فريد إلى جانب الضابط يسأله بأي حق يضرب علي أو يسبه، فأوشك يكرر الأمر معه ولم يشغله عن ذلك إلا صفعة مباغتة من علي ألهبت وجه الضابط وأنذرت باشتباك بين رجال الأمن وأهل القرية.

خوفًا من العواقب، توسط كبير الضباط الفريقين وطلب من كل منهما العودة إلى موقعه، لكن أهل القرية طلبوا أولًا أن يخرج فريد وعلي من بين الضباط سالمين، فكان لهم ما أرادوا.

كاد الضابط يتمرد على كبيره مصرًّا على أن يضع الشابين في «بوكس» الشرطة، لكن نهيًا حازمًا جعله يكتم غيظه ورغبته في الانتقام.

ولم يسعفه الوقت ولا حرص رئيسه على فض الموقف بأقل الخسائر للنيل من فريد وعلي اللذين أصبحا بطلي سهرة الضباط وبعض كبار القرية في منزل العمدة.

كنت علمت بما جرى من أحد الجيران، لكن بعد أن انفض الموقف عند مدخل القرية وذهاب الضباط إلى منزل العمدة الذي دعاهم إلى العشاء عقب نقل الجثة إلى المشرحة.

طلبت من فريد وعلي بعد أن عادا صامتين ولاذا بغرفة أمينة ألا يغادرا البيت أبدًا، وأسرعت إلى منزل العمدة فاستقبلني بوجل ألهاه عن رد سلامي بل سارع -وهو ينظر إلى الضباط- إلى الاعتذار باسمي عما فعله حفيداي اليتيمان كما وصفهما قاصدًا تخفيف وطأة ما حدث.

أعدت السلام فرده الجميع إلا ضابطًا كان ينظر إلي بحنق بالغ فعلمت أنه سبب المشكلة.

نويت مصافحته أولًا، رغم وجود من هم أكبر منه سنًّا ورتبة، لكن العداوة البادية في عينيه جعلتني أجلس بغير مصافحة أحد، فزاد ذلك غيظه.

أعاد أحد الحضور من رجال القرية رواية ما حدث والحرج يحيط كلماته، وتجاوز تدخلات العمدة المتكررة للتخفيف من وقع حقيقة أن الضابط بدأ المشكلة.

رأى العمدة أن الموقف ينتهي باعتذاري، فقاطعه الضابط بإصرار على ضبط علي وفريد بتهمة مقاومة السلطات والاعتداء عليه.

وأنا أستعد للمغادرة صوبت وجهي إليه قائلًا إنه أولى بالاعتذار، بل والقبض عليه؛ لأنه سب علي وصفعه أولًا وليس بوسعه مهاجمة المنزل والقبض عليهما، وإذا فعل لن يخرج من القرية سالمًا وكل أهلها شهود عليه إن لجأ إلى أي إجراء.

فوجئ الضابط الذي كان ينتظر توسلًا مني ليصفح، وأدار العمدة وجهه حرجًا، وقبل أن أغادر تدخل الأستاذ مصطفى رشدي الذي كان يرقب الموقف صامتًا.

رأى الأستاذ مصطفى أن حضوري إلى منزل العمدة إرضاء للمجتمعين وأولهم ضيوفنا الضباط، وأننا إذا اتفقنا على خطأ الطرفين، فلا يمكن مساواة كرامة علي المعروف بأدبه وثقافته بهيبة الضابط الذي كان في غنى عن صفعه وشتمه.

مرة ثانية، تدخل كبير الضباط مؤكدًا أن الموضوع انتهى واستأذن في الانصراف فأمر العمدة الخفراء أن يضعوا ما أمرهم بإعداده من بط ودجاج وفطير وأرز معمر في سيارة «الباشوات».

***

رافقني الأستاذ مصطفى إلى البيت محييًا موقفي من الضابط، لكنه حذرني من أنه لن ينسى الموقف، وطلب ألا أنخدع باحتواء كبير الضباط للموقف، فهو مناورة يخرجون بها من القرية ولن تخمد نار الانتقام التي لا شك استعرت بتصرفي في المجلس.

أعاد الأستاذ مصطفى التحذير في حضور فريد وعلي، طالبًا منه أن يستعد للثانوية العامة وأن يتجنب المشاكل ما أمكن حرصًا على مستقبله.

لم تنس المشاكل علي وفريد الذي وجد نفسه أمام أكثر من تحقيق في المصنع ربطها مسؤولوه بضغوط من خارجه، لكنها لم تنته إلى شيء.

المستهدف أكثر كان النشاط الثقافي في المصنع، خاصة أن علي يشارك فيه. توالى المنع الأمني لإقامة أي نشاط، وعندما قررا نقل نشاطهما إلى قصر الثقافة وجدا أبوابه مغلقة في وجهيهما.

لم يفد في شيء لجوء فريد إلى ممثلين لأحزاب المعارضة في المدينة ومراسلي صحفها، للشكوى من استهداف النشاط الثقافي والتلميح إلى أسباب شخصية لتعطيله بعد أن أدركا أن الضابط الذي تبادل وعلي الصفع في القرية يتعقبهما.

قرر فريد التركيز على عمله في المصنع حتى تمر الأزمة، لكن علي لامه على هذا التفكير وقرر أن يكون «جرن» القرية ميدانًا لنشاطهما مؤقتًا.

استغرب أهل القرية إعلان علي عن سهرة ثقافية فنية في «الجرن» المجاور لبيتنا بمشاركة زملاء فريد في المصنع من هواة الفن وآخرين من المترددين على قصر الثقافة في المدينة.

غاية ما يعرفه أهل القرية من فن مباشر هو القصص التي يرويها «الصييت» في مولد سيدي أبو الفتح متنقلًا بين الحكي العادي وذلك الذي ترافقه الموسيقى، وبعض الأذكار التي ينشدها المشاركون في «الحضرة».

لذلك، ترقب الجميع هذه الليلة التي أعد لها علي وفريد كل عدة وكلف صباح بأن تطبخ ما استطاعت من طعام للزوار.

اتفقا مع صاحب محل الميكروفونات على أن يوفر لهما واحدًا ومجموعة من الكراسي وسماعتين وحزمًا من الأضواء تزين المسرح.

توقع العمدة أن تكون الأمسية محدودة كالأنشطة التي تقام في مركز الشباب أو تلك التي نظمها علي وجمعت حولها الأطفال، لكن الخفر الذين تفقدوا موقع الحدث أبلغوه بعكس ما انتظر.

كان الجمهور خليطًا من أهل القرية وغرباء، لكن القادمين من خارجها كانوا أكثر على المسرح الذي توسطه في البداية عازف «أورج» قدم مقطوعات، ثم تبعه شاعران بالعامية والفصحى، وبعدها زاد العدد حين بدأت مسرحية قصيرة يجسد أحداثها ممثلون وممثلات، يقف علي قريبًا منهم ويوجههم بحماس راسمًا حركتهم، بينما فريد يطالع النص ليضمن عدم خروجهم عليه.

كنت أتوسط الجمهور مزهوًّا وبجواري الأستاذ مصطفي رشدي ومريم التي كانت تطالع ما يدور بشغف وفرحة تكاد تقفز من عينيها وتصفيق نشوان عقب كل فقرة.

كان علي قبل أن تبدأ الأمسية ذكرها بأنها طلبت منه أن ترافقه لمشاهدة ما يفعله وفريد في مركز الشباب أو المصنع، وقبل رأسها وهو يبلغها بأنه أتى إليها بكل ما اشتهته من غير أن تبرح البيت ولا تغضب أباها.

الفضول والدهشة أبقيا المعترضين على الأمسية والواصفين لها بالمسخرة يشاهدان فقراتها وهي تتوالى حتى شق «شيخ الخفر» الصفوف إلى المسرح مطالبًا مَن عليه بأن يتوقفوا.

استرضاه فريد ليكملوا الأمسية، لكن علي تجاهله وكان يشير إلى المشاركين بالاستمرار.

غضب الرجل وهدد بأن يتولى الخفر تفريق الجمع، لكني والأستاذ مصطفى رشدي طالبناه بألا يفعلوا ذلك؛ لأنه لا يليق بما بين أهل القرية من وشائج ولا بوجود ضيوف من خارجها.

هدأت نبرة «شيخ الخفر» وهو يؤكد أن العمدة أمره بأن ينهي الأمر، وأنه لا يملك غير التنفيذ.

وعد الأستاذ مصطفى بأن يتحمل المسؤولية أمام العمدة، وأن يذهب إليه الآن ليعود بموافقته، لكنه لم يكد يكمل جملته حتى كان العمدة أمامه بين مجموعة أخرى من الخفر ووجهه يطفح بالغضب.

لم يترك العمدة مساحة للحديث بأمره الخفر بأن يهدموا كل شيء. توقعت أن يكون العمدة مدفوعًا بما فعل من ضباط مركز الشرطة في المدينة، وإلا لما تجاهل وجود الأستاذ مصطفى وعدد من مسؤولي مركز الشباب، وكلهم من عائلات لها قدرها، ومعلمين وطلاب.

بدا أن العمدة مكلف بمهمة يحاول إنجازها بسرعة، تقدم الخفر إلى قرب المسرح محذرًا من أن لديه تعليمات بفض التجمع وإلا دفع كل الموجودين الثمن.

حاول فريد ثانية تهدئة الموقف، لكن علي أغاظ العمدة بإشارته لزملائه بالاستمرار، فرد بنظرة تعني للخفر بداية تنفيذ المهمة، لكن علي ترك مكانه خلف المسرح واقترب منه يأمره أن ينصرف مع رجاله.

أدركت والأستاذ مصطفى قرب تعقد الموقف، فأمرنا علي بالصمت فلم يسمع، وقفنا بينه وبين العمدة الذي دفعني بشدة غضبه فسقطت أرضًا، فجزاه علي بصفعة موجعة وهرب إلى داخل البيت.

***

لم تنعم مريم طويلًا بالليلة الاستثنائية التي اعتبرتها هدية من علي.

منذ بدأت الأمسية، لم تكتف بالفرجة، حلقت بخيالها وجابت أركان المسرح تغني وتقرأ الشعر وتتفعل في مشهد مسرحي ثم تنحني ردًّا لتحية الجمهور.

فتح لها علي باب الدهشة لكنه سلمها في النهاية، بل سلمنا جميعًا للقلق.

بمجرد أن سقطت أرضًا ركل علي العمدة وقبل أن يهجم عليه رجاله هرب محتميًا بالبيت.

تماسكت بعد أن نهضت بمساعدة الأستاذ مصطفى وفريد، وأنساني بعض آلامي ظهور ناصر إلى جواري بعد أن جاء على صوت الجلبة التي أحدثتها المواجهة بين علي والعمدة ورجاله.

شغلني أمر ضيوف علي وفريد، لم يقبل أحد منهم تناول العشاء بعد ما حدث، لكني حرصت على أن يرافقهم بعض أهل القرية حتى يخرجوا منها بأمان.

بمجرد خروجهم، جاء ضباط المركز يبحثون عن علي، لم ينسوا ثأرهم معه، والضابط الذي تبادل معه الصفع قبل ذلك بدا مصممًا هذه المرة على الفتك به بعد أن اعتدى للمرة الثانية على أحد رجال الأمن، وهو العمدة.

رغم غضبه الشديد، رضخ العمدة لإلحاح بعض رجالات القرية للعفو عن علي شريطة أن يعتذر له على الملأ حين ظهوره، لكن بقي الضابط المتربص به وكلف الخفراء بالإمساك به.

زاد ناصر الضغط على أعصابي بضربه مريم لأنها تبكي من أجل علي، وسمعته عبر الجدار الفاصل بيننا يتهمه بأنه سبب كل البلايا ولن يرتدع قبل أن يدخل العائلة كلها في مشاكل بلا نهاية.

بتجدد مشاكل علي مرضت أمينة ولم تستطع مغادرة غرفتها وهي تغالب دموعها قلقًا، فيما غاب فريد عن العمل، وبدأت مريم -حين يكون ناصر في الحقل- في مساعدة صباح في شؤون البيت العاجلة لتكون أيضًا قريبة من علي الذي لا يغادر البيت.

كان كل من في القرية يعلم مكان علي، لكن لا أحد أفشى سره للضباط، وبقاؤه معنا هذه الفترة ربما كان فرصة ليهدأ، فهو مقبل على سنة دراسية حاسمة نبهنا إلى أهميتها الأستاذ مصطفى رشدي وفريد الذي وضع رهانه عليه وألح عليه أن ينتبه لمستقبله حتى لا يحرم منه مثله.

دفعت فريد للعودة إلى عمله، يكفيه غياب أيام ولسنا في حاجة إلى مزيد من القلق، لكنه في اليوم الأول لذهابه إلى المصنع عاد بما أحزننا.

بمجرد أن دخل البيت قصد غرفة أمينة وتحت إبطه جريدة بمجرد أن أعطاها لعلي حتى نهض بسرعة يحاول الخروج من البيت كسجين أبلغوه بالإفراج عنه.

استبقته أمينة، فلم يلتفت لها، وتصديت له قبل أن يخرج أسأله إلى أين.

قرب صفحة الجريدة من عيني فإذا هي صورة الضابط الذي يكمن له، وقبل أن تطول نظراتي المتسائلة قال إن الغمة انزاحت.

لم يكن أحد يعلم أن الضابط نقل قبل يومين إلى الصعيد، وفي أول أيامه هناك اغتاله واثنين من

مساعديه مجهولون.

كان في عيني علي ما يشبه الفرحة، خفت أن تتحول إلى شماتة تساوي الخسة إذا بدت وقت الموت.

حتى الشماتة لا تليق بالموت نفسه وقد أصبح حلًّا لإحدى أكبر مشكلاته، كما صنع غيرها من قبل.

سألته أن يسأل الله الرحمة للضابط الذي إما ترك أبوين مكلومين أو أبناء ضعافًا، أو الاثنين معًا.

انتهت الأزمة حين اصطحب الأستاذ مصطفى علي إلى بيت العمدة حيث اعتذر له فقبل اعتذاره، بل رجا ضباط المركز أن يصفحوا عنه على الأقل إكرامًا لروح زميلهم الذي لم يجف دمه بعد.

***

مع بداية سنة الثانوية العامة، ضيق الجميع الخناق على علي، خاصة فريد الذي أخبره أنه لا مجال للاشتراك في أي أنشطة ثقافية في المدينة حتى ينتهي العام الدراسي.

حتى مركز الشباب أوقف اشتراك طلبة الثانوية العامة في الأنشطة بتعليمات من الأستاذ مصطفى رشدي رافضًا مجادلة علي بأن شيئًا لن يعطله وزملاءه.

خشوا عليه من الانشغال بشيء، لكنني خشيت عليه من كبت ينفجر في أي لحظة، فهو لا يطيق الرتابة ولا يستسلم طويلًا لنظام صارم، روحه تواقة دومًا للانطلاق.

مضت به شهور العام الدراسي وأنا حريص كل يوم على تفقد أحواله، دفعته للحضور حين أقام الحاج متولي «الحضرة»، وسألته أن يدعو زملاءه من العزب والقرى المحيطة إلى عشاء ليلة «المولد» ففعل، لكن شيئًا ما عكر صفوي.

كنت نسيت الوجه والصوت، خاصة أني التقيت صاحبتهما مرة واحدة ولما أدركت ذلك ذكرتني بنفسها:

- أنا أرملة المرحوم حسن.

أرسلت مريم التي كانت تجلس بجواري على «المصطبة» إلى الداخل لتطمئن إلى أن علي بين زملائه وفريد، أحسست بأن مكروهًا يدنو منه.

باقتضاب حييتها، وبقيت واقفة تنتظر أن أدعوها إلى الجلوس أو دخول البيت، فلم أفعل. شعرت بجفائي فاستعدت للمغادرة وهي تلملم حرجها وتحاول تبرير حضورها بأنها كانت تزور أبناءها وأرادت أن تسلم علينا.

اختفت تدريجيًّا وأنا أرقب خطاها لأطمئن إلى أنها تبتعد، فربما خرج علي فجأة ورآها، لكن مريم عادت وهي تقول إنه بالداخل وتسأل من تكون هذه الضيفة، فأجبتها بالصمت.

حرصت على ألا يغيب علي عني إلا إذا كان في تجمع آمن عليه فيه. زار مركز الشباب مرات، ولما اقتربت الامتحانات تركته ينطلق كل عصر مع معظم أبناء القرية الذين يذاكرون بين خضرة الحقول ومصارف المياه.

تجاهلت رسالة ناصر إلينا على لسان مريم بعد أن سمح لها بالتواجد بيننا، كان رأى علي يدخن أثناء مذاكرته بين الحقول وحكى لعفاف في وجود مريم لتأكده أنها ستخبرني.

ترددت مريم وهي تنقل إليّ الرسالة حتى شجعتها على أن تلقي ما عندها بلا خوف على علي من رد فعلي، لكن المرحلة كان يجب أن تمر بسلام، وبعدها نتناقش فيما نريد.

علمت منذ شهور أن علي يدخن، وجدت صباح في ملابسه وهي تستعد لغسلها «مشط كبريت» وقع أمام عيني وأنا أمر بجوارها فتظاهرت بأني لم أره قبل أن تخفيه.

شممت في ملابسه رائحة الدخان، وتجاهلت رؤيتي له مرات يتسلل إلى سطح البيت ليدخن، أخفى السيجارة بين طيات كتابه حين فاجأته ذات ليلة للاطمئنان عليه وهو يسهر للمذاكرة، فكنت كأني لم أر شيئًا.

كل ما يعنيني أن يتماسك حتى ينهي العام الدراسي.

مرت فترة الامتحانات التي كان فريد أقرب فيها إليّ من علي، سهر معه أكثر من ليلة يراجع معه مرات المناهج، وحين يعود من المصنع يستعيد معه الإجابات.

رجوت فريد مرات أن يطمئنني، وكانت عيناه المستبشرتان تتولى الإجابة حتى تحول البيت إلى مأتم يوم إعلان النتيجة!

****

كأن أحدًا لم يخض امتحان الثانوية قبله، أو كأن كل طلاب القرية تلخصوا في علي.

منذ الصباح توافد كثيرون على البيت يبشرون بنتيجة تسعد الجميع، ودارت أجهزة المذياع في كل البيوت متهيأة لتسمع رقم جلوس علي الذي لم بدا آخر المعنيين بالأمر، فمنذ أن انتهت الامتحانات وهو يرافق فريد إلى المدينة تعطشًا لما انقطع عنه من أنشطة خلال الفترة الماضية.

خفت أن يكون عدم اهتمامه يأسًا من النتيجة، لكنه أوجز النقاش وأنا أنظر إليه قلقًا:

- سيبها لله يا احاج.

حاولت مرافقته إلى المدرسة لمعرفة النتيجة، فرفض. ذهب بين مجموعة من أصدقائه، ومنهم من ينتظر نتيجته مثله، يظللهم القلق الذي لم نسلم منه في البيت.

بعد ساعة، كان الشارع يضج بالزغاريد المنطلقة من بيوته، وبعض الجيران يجتمعون أمام بيتنا رغم أن علي لم يظهر بعد.

لا أعرف من أخبرهم مبكرًا بأن علي الأول على القسم الأدبي، لم أتيقن مما قالوه، لكن ها هو علي يعود وسط زفة من أصدقاء وأقارب، لكن ملابسه ممزقة!

رفض علي أن يدفع «حلاوة النجاح» لفراش المدرسة فمنعه من رؤية نتيجته، فأصر أن يعرفها وانتهى الأمر باشتباك بينهما أنهاه الموجودون في المدرسة.

مر سريعًا إلى غرفة أمينة التي فزعت من منظره، لكن الفرحة بددت فزعها وأبكتها.

كان علي مشحونًا بقلق من النتيجة أخفاه عنا وربما دفعه للاشتباك مع «الفراش»، ما عقد الأمر، فلما بكت أمينة أبكته ووجد بعد دموعه بعض الراحة.

حين هرب من دمعها بعد أن بدل ملابسه، وجد المزيد في انتظاره من جارات لم يجدن إلا هذا اليوم ليتذكرن مسعد وسامية ويبكينهما بحرقة كأنهما ماتا للتو.

ماتا؟

هل سامية ماتت؟

إذا كانت حية، أين هي الآن؟ هل تصورت أن ترى علي في هذا العمر وهذا النجاح؟

لمت نفسي؛ لأنني -كما فعلت الجارات- أستدعي سيرة الموت بينما الحياة تبتسم لنا وتهادننا بما تقدمه لعلي بعد أن سلبته الكثير.

لا مفر، على أي حال، من الموت المخادع الذي يتخفى بين تفاصيل أيامنا، فإذا انشغلنا بها وتصورنا أننا نعيش أبدًا أطل برأسه من بينها ساخرًا منا.

واجهته مرات وهزمني، ومستعد لهزيمة جديدة تطالني أنا أو أحدًا من البيت، لكن تعميه عن علي، ولو إلى حين.

أخذتنا التفاصيل، جاء «الفراش» يشكو علي فقبلت رأسه، بل أعطيته «الحلاوة» رافضًا أن يلومه أحد، فما كان كان.

لا أعرف من أي بيتٍ خرجت أباريق «الشربات»، لكن صناديق المياه الغازية جاءت بلا شك من أهل القرية الموسرين.

قالت صباح إنها تسجل كل شيء لنرد كل جميل لأهله في الوقت المناسب، وقضت أمينة أطول فترة خارج غرفتها منذ مات مسعد. هي الآن تنعش روحها ببعض عطره الباقي في حياتنا وتمعن في إبقائه في حضنها وقتًا أطول كأنها تحميه من مصير قاسٍ.

***

في نشوة النجاح، وبينما يزورنا عدد من جيراننا من أحبابنا مهنئين، سأل الأستاذ مصطفى تلميذه عن الكلية التي سيقصدها.

رأيت التردد في عيني علي، حسبت أنه يخشى التصريح بما يرغبه خوفًا من أن يحملني ما لا أستطيع، فأسرعت إلى طمأنته:

- اختار اللي أنت عايزه، وأنا مستعد أبيع هدومي عشان تكمل تعليمك.

بدا في عينيه التأثر والامتنان، لكنه وأستاذه ضحكا فجأة حين اقترح أحد المهنئين مجالًا للدراسة:

- اللهم صلي ع النبي يا أستاذ علي، طالع الأول ومجموعك زي الفل، يبقى تتوكل على الله وتخش

كلية الطب.

لم يكن لدي مانع أن يدخل كلية الطب، لكني عرفت من الأستاذ مصطفى ما أضحكهما بعد هذا الاقتراح، إذ أخذ يشرح كيف أن علي كان في القسم الأدبي ولا يحق له دراسة الطب، إنما يمكن له الالتحاق بكليات مثل الاقتصاد والعلوم السياسية والإعلام والألسن والآثار والتربية والآداب.

- وإيه اللي منعك تدخل العلمي يا ابني، إحنا قصرنا معاك في حاجة؟

سألت علي غاضبًا، فعاد الأستاذ مصطفى يشرح الأمر نافيًا أي علاقة بين الإمكانيات والدراسة، إنما الأمر متعلق برغبة الطالب وما يحبه.

أبدى صاحب الاقتراح أسفًا لأننا حرمنا من طبيب جديد في القرية يشعر بفقرائها ومحتاجيها، واكتفيت بحمد الله على كل نصيب.

سأل الأستاذ مصطفى تلميذه أي قسم في كلية التربية سيلتحق به، فعاجله علي برغبته في دراسة الأدب الإنجليزي في كلية الآداب.

دافع فريد عن اختيار علي لأنه قد يفيده في اهتماماته المسرحية ويطورها ويقوي لغته الأجنبية.

دار الجدل بين ثلاثتهم ونحن نكتفي بالمتابعة ونحاول الفهم، رأى الأستاذ مصطفى أن الدراسة في كلية التربية ستفيد علي في التوظيف بمجرد تخرجه ولا مانع من أن يطور قدراته في الإنجليزية والمسرح بنفسه بجانب دراسته، بل إن ذلك سيفيده في عمله أيضًا ويميزه بين زملائه.

لم يكن علي راغبًا في العدول عن اختياره، ولم يدافع عنه أمام الموجودين احترامًا لأستاذه وترك ذلك لفريد باعتباره محايدًا ويجيد عرض الفكرة أيضًا.

أدرك الأستاذ مصطفى -وهو الأعلم بعناد علي- أن الأمر لن يحسم في هذه الجلسة، فأنهى النقاش بالقول إن الأمر يحتاج إلى تفكير قبل الاستقرار على رأي.

لم أتدخل، خاصة أني لا أفهم فحوى الخلاف ولا الفرق بين الاختيارين، وبعد انصراف الزوار تحدثت فيما يعنيني أكثر.

ركزت علي توصية علي بأن يهتم بمستقبله وأن يهدأ في تعاملاته مع الحياة والبشر، خاصة أنه سيصادف تجارب وأفرادًا لم يعهدهم من قبل، ويختلفون بالضرورة عمن عاشرهم في القرية.

كأن مسعد جالس أمامي بعينيه المتوثبتين إلى البعيد وضجره من النصائح ورغبته في البحث عن محيط أوسع يمارس فيه حبه للحياة، لكن كيف انتهى؟ مات!

لم أشأ أن أفسد أيام علي الفاصلة بين عالمين أو حياتين، فاحتضنته طويلًا قبل أن أنظر في عينيه ممازحًا:

- بتشرب كام سيجارة في اليوم يا ولد؟

***

انتصرت رغبة علي وذهب إلى كلية الآداب. قضى الأستاذ مصطفى رشدي ليلة كاملة معه عند كوبري البحر يحاول إقناعه بدخول كلية التربية بلا جدوى، فانصاع لما يريده.

قبل أن يذهب إلى الكلية، صحبه فريد إلى المدينة يقضي يومًا مع أصدقائهما هناك ويساعده في شراء ملابس جديدة.

لم يخرج إلى الكلية إلا بعد أن أغرقته أمينة وصباح بالبخور والدعوات، بينما تجاوزت عفاف زوجة ناصر ومريم عقبة السور الفاصل بيننا والتقيتاه على سطح المنزل ترجوانه أن يهتم بسلامته وتدعوان له بالسلامة والتوفيق في رحلته التي ستتكرر أكثر مرة في الأسبوع بين القرية والكلية في عاصمة المحافظة.

مع بداية حياته الجامعية، اكتمل علي رجلًا نابضًا بالحيوية، لكن حدة مزاجه تداهمه بين حين وآخر، وهو أمر حارت فيه مريم حين بدآ يلتقيان على السطح الذي أصبح مقصده في أوقات كثيرة، إما للمذاكرة والقراءة أو لدفن نفسه في أكوام القش حيث ينام ساعات فتوقظه ابنة عمه مع الغروب ليراجع دروسه ثم يقضي بعض الوقت مع فريد قبل أن يناما.

كان الاستثناء ليلة الجمعة، إذ يخرجان بعد المغرب إلى مركز الشباب ثم يلتقيان أصحابهما حتى منتصف الليل.

تاق علي لإحياء نشاطه في مركز الشباب ومع أصدقاء المصنع وقصر الثقافة، لكن فريد حرمه من ذلك مؤقتًا حين استجاب لإلحاح أمه ليتزوج.

بزواج فريد، شعر علي بغربة.

زادت نوبات حدته وغضبات مريم منه وأصبح كثير الانفراد بنفسه. أهمل الكلية أسابيع، حاول فريد التفرغ له وإعادته إلى ما كان يشغلهما، لكنه عزف عن ذلك.

كان كالسجين الحائر، يستمرئ سجنه مرة ويضيق به مرة ويبحث عن مهرب، كما فعل أبوه قبله.

لم أفهم وأنا أحاول مساعدته ما قاله عن روحه التواقة إلى عالم أرحب، فسر لي فريد ما استعصى علي، فلم أجد، ردًّا عليه، أكثر من توهمي أنه لا متسع أكثر من الذي بلغه علي بدخوله الجامعة. ضاق عليه البيت فخرج إلى المدرسة ثم مركز الشباب ونشاطه في المصنع، ثم غادرنا إلى رحابة الحياة الجامعية، ماذا يريد بعد؟

لم يتأخر علي في الإجابة.

أحد أساتذته في الكلية لما رأى حبه للمسرح منذ أيامه الأولى فيها، نصحه بأن يلتحق بمعهد الفنون المسرحية في القاهرة بعد دراسته الجامعية.

قرر علي ألا ينتظر.

عزم على ترك الكلية والذهاب إلى المعهد من الآن. أبلغ فريد بقراره لينقله إلي، فوجمت بلا رد.

هل أستعين بالأستاذ مصطفى رشدي ليثنيه عما قرره؟ ماذا يفيد ذلك وقد فشل معه قبل شهور؟

ليذهب حيثما يريد ما دام مصرًّا على أن يباعد بيننا وبينه! يعود بعدها كيفما كان.

علمتني الأقدار ألا أعاندها، سأنحني لرغبة الطامح في الغياب وتكفيني لوعة المقيم، فأمينة تبكي نيابة عنا جميعًا، عادت إلى النواح على الأموات والأحياء.

أنهى علي كل شيء، جسد أمام لجنة الاختبار في المعهد كل مآسينا، واستعاد ذاكرة خشبة المسرح التي نبتت من خياله في «الجرن»، فقبلته بعد أداء عدد من المشاهد.

لم أعد أملك إلا أن أشجعه على اختياره ولو أرهقني ماديًّا بسكنه في القاهرة ومصروفاته هناك. فريد يهون الأمر بتنازله عن جزء من نصيبه وإخوته وأمه في عائد إيجار الأرض. يقول إن مرتبه في المصنع يساعده على تحمل تبعات ذلك، وصباح لم تتزحزح يومًا عن حب علي مهما كلف الأمر.

قبل أن يغادر فجرًا إلى القاهرة، وضعنا في حقيبته من طعام كل ما يعينه على الحياة هناك، ودست أمينة في جيبه مبلغًا فوق الذي أعطيته إياه وعلب سجائر كلفت فريد بشرائها.

عاتبتها وهي تشجعه على التدخين لكنني صمت أمام ردها:

- إحنا عارفين إنه بيدخن يا أبا، يكون معاه سجايره أحسن ما يستلف من حد.

أوصله فريد إلى محطة القطار في المدينة قبل ذهابه إلى المصنع بأحضان وقبلات حارة فانطلق به إلى عالم لا نعرف ما الذي خبأ له.

***

البيت كئيب بغير علي، اعتدنا قبل التحاقه بالمعهد أن يذهب إلى كليته ويعود مساء يلقي معظم أحداث يومه بين أيدينا ويبقي بعضها سرًّا بيه وبين فريد، لكنه الآن غارق في تفاصيل لا نعرفها، بل يصعب تصورها، فليس بيننا من عرف من قبل الدراسة في معهد الفنون المسرحية.

اسم المعهد يحيل إلى التمثيل، لكن فريد يحاول إفهامنا أن المسألة أكبر من ذلك.

شرح أكثر من مرة ما يدرسه علي وحاولت أن أحفظ بعض ما قال لأقذفه في وجه من يتفه اختياره من أهل القرية، أو يربط هذا الاختيار بضياع ابننا الذي تذكروا الآن مشاكله القديمة، وحاولوا، من باب المكايدة، لفت نظري إلى أنه يدخن، بل يجاهر بذلك في بعض الأماكن.

ردودي التي تحاول استدعاء بعض ما يشرحه فريد، ومجابهته هو نفسه لمن ينال من علي، ودفاع الأستاذ مصطفى رشدي وآخرين عنه، لم تكن كافية لأتجاوز القلق.

لن أسمح لنفسي بأن يضيع علي، ولن أسامحها إن قال أحدهم يومًا إنني تهاونت في التصدي لشطحاته ولم أقمع اختياراته التي تسير عكس مجرى التفكير في القرية.

غاب علي أسابيع لم أنعم فيها براحة، ولا توقف إلحاحي على فريد أن يصحبني في زيارته للاطمئنان عليه، فهو وحده الذي يدون عنوان سكنه بالقرب مع المعهد مع اثنين من زملائه.

فريد، رغم انشغاله في المصنع وبحياته الجديدة، أكثر مني قلقًا على ابن عمه وصديقه، بل شعوره

أكبر بما تركه من فراغ في البيت.

في غرفة أمينة، القلق أكبر، يصرخ به صمتها وتحليقها المستمران في صور علي وأشيائه، تتكلم قليلًا حين تقصدها مريم التي فقدت كثيرًا من حيويتها منذ سافر وعادت إلى تفقد أشيائه، كما اعتادت قبل سنوات، لكن الآن بمزيد من الفهم والشغف بما تحويه دفاتره وكتبه.

حين يتملكها فقدانه، تحاصر عمتها بأسئلة عنه تكمل بها ما عرفته مقتضبًا من عفاف عن شباب أبيه وموته وهروب أمه.

تمنت لو اختبأت داخله لتعلم كيف تجاوز ما عاشه وفيم يفكر؟ لكن شح ما تقوله عمتهما يبقيها على عتباته ويؤخر خطاها إلى أعماقه.

- هو هيعيش على طول في مصر يا عمتي؟

انتبهت أمينة لقسوة السؤال الذي لم تتوقعه أو تفكر فيه، ولم تقدم إجابة، غير أني كنت أدركت من شرح فريد لما يدرسه علي أنه بدأ رحلة سفر لن يعود منها إلا قليلًا مدفوعًا بالحنين أو الرغبة في الاطمئنان علينا ليرجع إلى عالمه الجديد.

نحن ماضيه الثقيل الموجع ولن نبقى في مستقبله إلا بقدر ما يحتمل تفاصيلنا، لكن لا يجب الاستسلام لهذا القدر وإلا أكون ضيعته كما يزعم بعض أهل القرية.

علينا بعد أن منحناه موتًا ويتمًا وفقدًا أن نهديه بعضًا من حياته المنتظرة، وإلا تحللت صلته بنا كما تفنى أجساد الراحلين.

***

غاب علي شهرًا حسبته دهرًا، ولمحته في عين مريم دهورًا، وكادت أمينة تقضي أيام الشهر كلها على عتبة الباب تنتظر العائد.

ما لبثت أن دخلت أمينة غرفتها ذات مساء إلا ولمحت علي آتيًا في أول الشارع محاطًا بزفة من الأطفال الذين اعتاد مشاغبتهم كلما راح أو جاء.

جذبته إلى حضني كأني أتلقاه وليدًا، وتناست مريم قرب رجوع أبيها من الحقل فجاءتنا عبر السطح بعد أن سمعت جلبة الأطفال في الشارع بعد أن مرت على غرفة أمينة سريعًا وهي تهتف:

- علي رجع يا عمتي.

فأجأنا بأن احتضن مريم كما فعل مع مستقبليه الصغار في الشارع فاحمرت وجنتاها وردت بالهروب سريعًا إلى بيتها، فانتقل إلى دفء أمينة التي تحسست كل جزء فيه لتطمئن إلى أنه حي!

أما صباح فتذكرت احتضانها مسعد مسافرًا إلى العراق وعائدًا، وانتزعت علي من شجن أمينة تحمد الله على سلامته، وعلى أن فريد عندما يعود من المصنع سيسعد بوجوده ويجد ما يملأ فراغ أيامه منذ تركه.

عرف البيت أيامًا من البهجة حاصرت صباح وأمينة خلالها علي بكل أنواع الطعام، زار أستاذه

مصطفى رشدي وأهداه مجموعة كتب عن تاريخ المسرح، وطاف وفريد على أصدقائهما، لكن ابن عمه جنبه لقاء أي شخص يغمز على اختياره الدراسي منعًا لأي اشتباك.

لاحظ علي أن مريم لم تظهر كثيرًا رغم تشوقها لرجوعه، لعل خجلها من حضنه المفاجئ أعجزها عن مواجهته، وربما رأت فيه تكرارًا لعادة تعلمها في القاهرة مع زميلاته.

كانت مرتبكة، ورغم وجوده في القرية، عادت إلى تلمس آثاره في غرفة عمتهما التي تراقب بصمت، أما صباح، وهي المحنكة بين نساء البيت، فباحت لي، وهي تتخفى في ألفاظ دعابة، بما قرأته في عين مريم، فلم أجبها بشيء.

مد جسر بين ماضي علي ومستقبله يحتاج إلى تمهل، مريم هي رهاني في ذلك، لكن الأمور لا تمضي بطريقة صباح التي تخشى فقط رفض ناصر إذا وصلنا إلى مرحلة حاسمة.

لا يعنيني ناصر، سأهدم الجدار الذي بينه وبيننا، فلا نحتاج إلى السطح.

حانت عودة علي إلى القاهرة، قبل أن يغادر أزوده بمزيد من النصائح وأن يرحم نفسه من التدخين، وصباح تحشو الحقيبة بطعام له وزميليه في السكن، بينما يرص فريد السجائر بإيعاز من أمينة التي ودعته في غرفتها وسال دمعها بعد أن خرج.

في غياب ناصر، انضمت إلينا عفاف ومريم ونحن نودع علي، كنت أسبقهم وتركته يتنقل بينهم.

وزع علي قبلاته كأن ذلك أصبح من عاداته وسط دهشتي التي لمحها فريد فعقب مداعبًا:

- الواد شكله بيبوس كتير في المعهد يا جدي.

لم تمر دعابة فريد على مريم رغم أنها كانت مدت ذراعها حاجزًا بينها وبين علي، حتى لا يقبلها ثانية فتعود إلى خجلها، أو غيرتها، أو الاثنين معًا.

***

طالت فترات بقاء علي في القاهرة، فزاره فريد مرات صحبته في بعضها للاطمئنان عليه.

أصبح خبيرًا بشوارع القاهرة ومعالمها، زرنا معه الهرم والقلعة ومكتبات عدة أفرغت جيوب فريد.

بدا النحول على جسم علي واحمر ما تحت عينيه وطال شعره، لمته على استمراره في التدخين وبشراهة كانت تجبره على أن يختفي من أمام عيني أكثر من مرة حتى لا أرى السيجارة بين شفتيه، رغم أن الرائحة كانت تفضحه.

لمحت زجاجات مخبأة على مهل أسفل كراسي الصالة، لم أكن في حاجة إلى خبرة لأعرف أنها مخصصة للخمر، ولم يشعر بأني رأيتها.

فريد وحده الذي كنت أبثه قلقي على علي من غير تفصيل ويجتهد في طمأنتي ودفع ظنوني رغم أنه يشاطرني القلق.

كنت أرى علي وزميليه في الشقة حين أزوره كالمجانين، يمسكون بأوراق يتلون منها كلامًا صعبًا على فهمي، يشيحون بأيديهم في الهواء يخاطبون مجهولًا، يتحولون بسرعة من الضحك إلى البكاء المفتعلين.

يقطع علي ما يفعلونه ليوحي لزميله بإعادة يقول إنها الأفضل ويرسم له مواضع خطاهم في صالة الشقة.

فريد، وحده، هو الجمهور. أستغرب مراقبته لهم بانتباه وتصفيقه في النهاية، أسمع أسماء غريبة، ويلخص فريد ذلك كله وهو يحاول إفهامي:

- دي روائع المسرح العالمي يا جدي بيتدربوا عليها.

ليس مهمًّا أن أفهم، يعنيني أكثر هذا الولد الذي غافلنا وكبر، أستعيد جمعه الأطفال في «الجرن»، مسرحه الأول، حيث كاد المجنون أن يقتل مريم.

أخشى أن تفلح محاولته هذه المرة ويقتلها. ويقتلني معها حين تتسع المساحة بين خشبته القديمة ومسرحه الجديد.

أراهن عليهما في بث روح جديدة في هذه العائلة تبقي حرثها ونسلها، سأبقى مصلوبًا بينهما حتى تكتب لنا قيامة جديدة تطهرنا من خطايا الموت.

فريد، أيضًا، المؤمن الوحيد بما أفكر فيه، رغم أننا لم نتحدث فيه يومًا، لكنه قادر على النفاذ إلى أعماقي ونظراتي.

فيه الكثير من صفات أمينة لكنها يئست من دنيانا، وبقي هو متمسكًا بالأمل.

ما من قدر يتغير إلا بقدر، هكذا أومن. لا أستكين لسطوة «لو»، حاولت دائمًا الثبات حين تعصف بي الأقدار، أتشبث بكل شيء لينجو من حولي.

اختطف الموت مسعد وصلاح وبعض أمينة، لكن بين يدي الآن خيوط علي ومريم وفريد تتباعد وتتقارب وأشدها إلى بكل عزمي.

فريد الحالم الذي ينحني للواقع يشعر بوحدة، ليس في أقرانه من يفهمه مثل علي. عرف التعليم والزراعة والعمل والفن والأدب، ولم يعرف نفسه.

يتزوج وينجب ويساير الأقدار، لكنه يشعر بأن أعظم أدواره لم يأت بعد. يختبئ في أحلام علي ويحثه برضا كامل على تحقيقها.

مريم المكتملة جسدًا منذ سنوات تغذي عقلها حتى التخمة ليقترب من عقل علي المحلق، تسافر معه وهي في مكانها متجاوزة الجدار وأباها ويأس أمينة الذي يكاد يكتمل.

أما علي فرأسه يتمدد ليستوعب العالم، لكن نفسه تعاود ضيقها أحيانًا، فتقيم أضلاعه قضبان سجن يحوله إلى كائن هائج منقطع الصلة بذلك الكائن الحالم. الضعيف أحيانًا.

***

تمضي السنون بعلي في المعهد، قليلًا ما يأتي، وفي كل مرة يشحب وجهه أكثر ويبدو قلقه جليًّا على وجهه وفي روحه. قليلًا ما يجلس معي، وجودي يعطل شراهة تدخينه. يجد راحته أكثر في غرفة أمينة بعد أن يتحلق حولها هو وفريد ومريم.

تدنو منه مريم بمشاعرها وهو ثابت في مكانه، نظراتها تستعطفه ليبقى أطول، وهو منذور للقلق.

أستدنيه أنا ومريم، وهو يبعد.

اقتحمت جمعهم في غرفة أمينة لأشبع منه، فوجدته يشير إلى صفحة جريدة ثم يضع إصبعه مكانه بين أبطال مسرحية قدموها أولًا في المعهد وانتقلت إلى مسرح قومي.

تقرب مريم الصفحة من عينيها تكاد تحتضنها قبل أن تتراجع وهي تنظر إلى خشية أن أكون أراقبها.

استغل فريد الفرصة ليعلن أن أحد زملائه في النشاط الثقافي في المدينة عرض عليه الانضمام لحزبه المعارض، فاشترط عليه أن يكتب مقالات وموضوعات لصحيفة الحزب ووافق.

ينهض علي ويتوسط الغرفة قبل أن ينحني أمامنا في حركة مسرحية محييًا فريد:

- أخيرًا أيها الرجل النبيل ترضى عنك الآلهة. سر إلى الأمام محاطًا بدعواتنا، وأرواحنا لك، إن شئت، قربان.

ضحك فريد ومريم، ولم أفهم ما يقصده علي لكني وجدت نفسي أمازحه:

- والله أنت اللي عايز تتضرب بالكرباج على دماغك.

علا الضحك وهو يسألني:

- كرباج إيه يا جدي. أنا بقوله قربان يعني حاجة كده زي الحليب اللي بتروح توزعه عند مقام سيدي أبو الفتح عشان يرضى عنك.

حولت مجرى الحديث حتى لا أبقى هدفًا لضحكاتهم، وسألت فريد إن كان انضمامه للحزب وصحيفته سيؤثر على عمله أو يعرضه لمشاكل أمنية.

انبرى علي مدافعًا عن الخطوة سائلًا فريد أن يفعل ما يشاء بلا تفكير في الاحتمالات، وإلا سيبقى في موضعه.

ذكرنا علي بأن شهورًا تفصله عن التخرج، وبعده سيوسع نشاطه المسرحي أو يؤجل ذلك إذا سافر في بعثة.

- سفر. وبعثة في أوروبا.

شهقت مريم، وانخلع قلبي، لماذ توسع المسافات يا ولدي؟

كثرة الخطى تربك، فابق، بربك، بيننا ولو على بعد ساعتين من القرية فآتيك وقتما أشاء أعد أنفاسك وأطمئن إلى أنها كافية لاستمرار حياتك.

خذ مريم واختر أي موضع في مصر ستعود بك حين تشتاق هي إلينا، لا تستمرئ البعد.

ألقى كرة اللهب في قلبي وهم بالخروج لملاقاة أصحابه قبل أن يسافر غدًا، وعينا مريم تستجديانه أن يكفر بكل شيء، إلا بها!

***

تكررت مرات ظهور علي في الصحف بعد كل عمل يقدمه مع أصحابه.

يأتي فريد في كل مرة حاملًا الصحيفة تحت إبطه ثم يفتحها على الصورة قبل أن يتركها في حجرة أمينة كما لو كان يراكم مبررات أمام عيني مريم لتدرك أن رهانها سيخيب.

الرهان يا فريد لا يخص مريم وحدها، أنا من ربط به مصير هذه العائلة، ولا مفر من التمسك به حتى النهاية.

علي القريب من التخرج غاب شهرين، وجدتني أصحب مريم إلى القاهرة. لم أعبأ بناصر وهو يسألني عن السبب، بل كدت ألعنه، فهو من قسمنا وأقام جدارًا يكاد يخترق النفوس.

عفاف شجعت الخطوة، هي تدري ما يمور في نفس ابنتها وتلمح لها من بعيد بأن رجاءها سيتحقق، لذلك أقنعت ناصر بأن يوافق.

حملت مريم كل ما تستطيع وسلامات من كل مَن بالبيت، وصلنا إلى الشقة التي أصبحت أحفظ الطريق إليها، وهي بجواري مأخوذة بكل ما تشاهده.

لعلها الآن تحلم بأن يأخذها علي إلى هذا العالم اللاهث، أو غيره، المهم أن تكون بالقرب من أنفاسه.

وقفنا أمام الشقة طويلًا، استخدمت الجرس والدق على الباب ولا مجيب. ناديت علي، فخشيت مريم من أن تزعج ريفيتي الجيران، لكنهم كانوا بدؤوا يفتحون أبوابهم ويلعنوننا بنظراتهم.

اكتفيت بالجرس، وأعيانا الانتظار حتى فتح الباب أحد زملاء علي بملابس النوم.

حياني ببرود وأشار إلى غرفة علي النائم، فطالبت مريم بالبقاء في الخارج.

علي في سريره بملابسه الداخلية لا يدرك ما حوله. جلست إلى جواره أحاول إيقاظه. يفتح عينيه وينظر إلي ببرود زميله نفسه ثم يغلقهما.

تكرر الأمر، ومريم في الخارج، فأحضرت ماء من المطبخ وسكبته على رأسه.

حين صدمه الماء، بدأ يشتم وكاد يضربني قبل أن يتبين، بنصف وعي، من أنا فاحتضنني وهو يرحب بي:

- أهلًا يا جدي. إيه اللي صحاك بدري كده؟

عاونته حتى حوض الحمام وصدمته مرة ثانية بالماء. قاوم وحاول تخليص رأسه من بين يدي ولم يفلح، فاستسلم حتى اكتسب جرعة ثانية من الوعي.

قصد كنبة قريبة، لاحظ أن الباب مفتوح فشتم زميليه المستسلمين للنوم وقام ليغلقه، فأمرته بأن يرتدي ما يستره ويغلق غرفتي زميليه؛ لأن مريم في الخارج.

عاد بـ»بيجامة» وتوجه إلى خارج الشقة فاحتضن مريم المرتبكة وهو يدعوها إلى الدخول.

آثار السهرة في كل ركن. زجاجات وبقايا سجائر وأوراق مبعثرة وأكواب بأحجام مختلفة.

لم نهتد إلى موضع في الصالة نترك فيها ما حملناه إلى علي، فسأل مريم أن تضعه في المطبخ وأن تصنع له كوب قهوة، فوقفت في مكانها حيرى لأنها لا تعرف كيف تصنع.

غاب دقائق وعاد بالقهوة ومريم خجلى من فشلها في اختبار إعدادها، لكنه لم يخجل وهو يدخن، بغير وعي، أمامي لأول مرة.

انتبه إلى ذلك بعد ساعات وهو يستأذننا في الغياب تصف ساعة لإحضار الغداء من مطعم قريب.

أصر أن نجرب أكل مطاعم القاهرة، رافضًا أن نأكل مما أحضرناه، فطالبته بأن يصحب ابنة عمة، فمع غيابه لا أمان عليها في الشقة، حتى لو كنت معها، في وجود مسطولين آخرين لا فرق بينهما وبين الموتى إلا الشخير.

***

سر السيد صابر بسفر مريم معي، وشجعه ذلك على ما كان يؤجله انتظارًا لظرف مواتٍ.

اقترح في غيابي على فريد أن يتوسط هو والأستاذ مصطفى رشدي في صلح كامل مع ناصر لا يغير في قسمة الأرض والبيت شيئًا، إنما ينقض معه الجدار الذي يفصل بيننا.

النفوس تغيرت بما يكفي لإعادة البيت، ناصر الآن أكثر تعقلًا وإحساسًا بالوحدة، لم يعد يحتمل وضع «المقطوع من شجرة» بينما يفصله عن عائلته نصف متر.

بلغني أن خاله السيد صابر لامه كثيرًا منذ قرر الانفصال عنا، وبعده رأى أن لا حاجة للجدار على أن يبقى كل طرف في حاله، لكنه استمر في غيه حتى تعب من تلقاء نفسه.

كان الأمر مفاجئًا لي حين عدت، وبدرجة أكبر لمريم التي وجدت سببًا نادرًا للسعادة في عائلتنا بعد أن شق عليها الوضع الذي رأت عليه علي حين نزلت معه إلى الشارع.

اكتشفت علاقاته الممتدة مع سكان الشارع وباعته، ناداه البعض بالفنان ودخل في دعابات مع البعض الآخر حتى ملأت ضحكاته الشارع.

أحزنها أنه لم يغضب حين مازحه أكبر تاجر للخضروات والفاكهة في الشارع طالبًا الزواج من العروسة التي ترافقه.

رد علي مزاحه بطلب مهلة لمشاورة العائلة في الأمر، فابنة عمه لها أب وجد يقرران مصيرها.

حاولت أن تحكي لي ما جرى على أنه دعابة، لكن حرقة حروفها كانت تكويني.

ولم ينته اليوم عند ذلك، فحين انتهينا من الغداء، رن جرس الباب ففتحت مريم، وإذا بثلاث شابات

يحملن أوراقًا وكتبًا وفاكهة وزجاجات يدلفن الصالة ويسلمن على علي بقبلات على خده.

لم أهتم وقتها بالغضب الذي فرض نفسه على وجه مريم، إنما بملامح حياة علي التي تتبدى في كل مرة نراه فيه.

قدم الفتيات على أنهن زميلات في المعهد ويتدربن معهم على مسرحية التخرج، فاستأذنته بحجة اللحاق بالقطار.

طوقت مريم بذراعي ما استطعت طوال الطريق، إذ أعرف طعم الإحساس بخيبة الرجاء، ولم تنطق هي بكلمة حتى وصلنا القرية مساء.

دهشت مريم لما وجدت أباها يجلس على مصطبتي مع السيد صابر والأستاذ مصطفى رشدي وفريد. خشيت أن يكون ناصر افتعل مشكلة بسبب قضائنا اليوم في القاهرة رغم أنه يعلم بسفرنا.

لكزه خاله والأستاذ مصطفى فانحنى يقبل يدي، ثم انتصب يقبل رأسي.

قابل الأستاذ مصطفى استغرابي وهو يضع يده على كتف ناصر:

- الأخ ناصر غلب شيطانه وعرف إن مالوش غيركم وعايز يشيل الجدار. والبركة فيك يا حاج.

تحول وجه مريم، تناست كثيرًا من غضبها وانطلقت إلى الداخل تلوذ بعمتها دون أن تخشى أباها.

أكملنا السهرة في الخارج. عرض ناصر أن يعود كل شيء إلى سيرته الأولى إرضاء لي، فاكتفيت بأن يختفي الجدار، فهذا أيسر سبيل بعد أن تبدلت أشياء كثيرة، وليس أهم الآن من أن يعود البيتان بيتًا واحدًا لعلهما يثمران ثالثًا يجمع علي ومريم رغم أن ما يفصلها يكبر كل يوم، وقد أكون وحدي من يراه، لكني لم أفقد الأمل، ولا هي كفرت بالحب، ولا ملت انتظار الغائب!

***

عاد علي بشهادة عليا من معهد الفنون المسرحية في تخصص التمثيل والإخراج، بل وأحد الثلاثة الأوائل على الدفعة. لم يدخل البيت إلا بعد أن زار مكانين: قبر أبيه، و»الجرن».. مسرح الطفولة والأحلام.

قضى أيامه الأولى متنقلًا بين بيوت أصدقائه، وزار أولاد حسن حاملًا بعض الكتب والهدايا، طاف كل أرجاء القرية، وفي الليل كان يجالس الأستاذ مصطفى رشدي.

حين بدأ يقضي وقتًا أطول في البيت ظفرت به. استعدت روح ما قبل التحاقه بالمعهد وأنا أحاول نصحه، وتذكرت كراهيته للنصائح.

قبل أن يضجر فاتحته في أمر مريم وكانت الصاعقة:

- مريم بنت عمي؟ العيلة الأمورة دي؟ الله يسامحك يا جدي.

عينا أمينة الحائرتان بيننا تقولان: كفى، لكني لا أستسلم بهذه السهولة.

ماذا ينقص مريم التي تشبعت بأفكارك لتطالك؟ أزال أبوها الجدار وأنت تعيده؟

أتحتاج إلى أن تدربها على أن تشرب معك وترقص لك أو حتى تمثل معك؟

ستفعل كل ذلك، لكن وهي زوجتك وليست زائرة كاللاتي اعتدت استضافتهن في شقتك.

لا تتعلل بأنك لم تكسب بعد ما يكفيكما، سيبقى نصيب فريد من عائد إيجار الأرض لك، وخذ حقي وحق عمتك أيضًا.

لا تخذلني يا ولدي، حين تنهي دراستها اعقد عليها وخذها إلى حيث شئت، لتذكرك بنا حين تنسانا، وتعيدك إلى نفسك حين يغلبك الشطط والجموح.

لم يخذلني علي وحده، خذلتني أمينة بصمتها، وطعنتني دموع مريم وهي تراه يسخر من الفكرة، ومن نفسه:

- بنات القرية يهربن يا جدي ولا يرجعن، دعني أكون أول رجل يهرب بلا عودة، لا أب لي ولا أم هنا ولا جذر.

سامحك الله يا علي!

لا جذر لك وأنت مغروس في قلوبنا منذ أتيت إلى الحياة؟

لتكن مريم جذرك وأرضك.

انفخ فيها من روحك تكن لك جذرًا قويًّا، تزوجها واتركها هنا واذهب أنى شئت، لن تبرح مكانها حتى تعود.

سألتني أمينة أن أتركه يمضي وألا أقيده، فمثله لن يهدأ من مطاردة قدره في أرض أخرى.

ذهب علي رغم رجاء صباح أن ينتظر فريد. ودع أطفال البيت بقبلاته، قصد السطح مباشرة حيث مريم مهزومة مقسومة بين جزئي البيت رغم زوال الجدار، كأن ابن عمها أورثها جزءًا من غربته.

بقي فريد يوافيني بأخبار علي من الصحف وحفاوتها بالفرقة المسرحية التي كونها مع عدد من زملائه وزميلاته وتقدم عروضها في القاهرة والإسكندرية.

لم تمض شهور حتى أراني صورته وهو أحد ثلاثة ابتعثهم المعهد لدراسة المسرح في ألمانيا.

بعدها بأيام جاءنا مودعًا قبل السفر.

لم أجزع، اعتدت طعناته وأحتملها، لكن جرح مريم الطازج بيني وبينه حتى تقر عينها.

***

انفتحت الجراح كلها في وقت واحد. سافر علي، وذبلت مريم، وجدد فريد حنقه على عمه.

لم ينس أن ناصر أخره خطوات عن علي حين دفعه إلى ترك التعليم بعد وفاة صلاح.

تمنى فريد لو حلق خلف علي، لكن أنى له ذلك بجناحين مكسورين: عدم إكمال تعليمه، والأسرة

التي كونها.

لم يبح فريد بشيء، لكني أقرؤه بسهولة. حين استغل ناصر صلحنا وطلب أن نؤجر له نصيبنا من الأرض بدلًا من شخص غريب، هاج فريد وأقسم إن تركها بورًا أرحم من ذلك.

غضبه القديم من عمه لم يكن السبب الوحيد في توتر أعصابه، يطارده إحساس بالخيبة منذ ابتعث علي إلى ألمانيا، لكن قدرته على التأقلم ستنقذه.

قرر فريد أن يترك المصنع، وبمبلغ ادخره اشترى ثلاثة أنوال وبنى لها غرفة في «الجرن»، أصبحت مصنع نسيج مصغرًا يديره أحد أصدقائه ويستغني بعائده عن مرتب من مصنع المدينة.

اقترحت صباح على فريد أن يوقف منح علي نصيبه في إيجار الأرض، فهو الآن يدرس في الخارج على نفقة الحكومة، بينما أسرته تكبر ولن يأتيه مكسب مصنع النسيج قبل شهور حين تكتمل السجادات على الأنوال وتتهيأ للبيع.

عاتب فريد أمه، وهو يعلم حبها لابن عمه، وأقسم إنه لن يمنع المبلغ عن علي حتى يطلب هو ذلك.

وجدت مريم في المصنع بعض الحياة، كانت حين تنتهي من مذاكرتها وفي شهور الإجازة تقضي جل وقتها فيه تراقب كل سجادة تولد بين خطوط النول وتودعها حين تحملها سيارة إلى مكان بعيد تدهسها فيه الأقدام.

تفرغ فريد لعمله في الصحيفة، وبجانب الأخبار والتحقيقات ينشر قصصًا جديدة وأخرى أهملها فترة.

أصبح جسرًا بيننا وبين علي، فهو يراسله بانتظام على عنوان الصحيفة. يسأله عنا ويطمئنه إلى تقدمه في دروس اللغة الألمانية، تحدث عن ليلة قضاها في قبضة الشرطة بعد اشتباكه مع دارسين عرب قالوا عن مصر ما لم يعجبه وحل الأمر بتدخل السفارات.

يزهو بمقارعته الألمان في شرب الخمر، ورغم ذلك يتفوق عليهم في الدراسة، خاصة أن سوسن وصفي، زميلته في البعثة، تتكفل بكل شؤونه، إلا العاطفية، فالأجنبيات لا يقصرن معه.

يضحك فريد وهو يقرأ لنا ما يمكن قراءته من خطابات علي، أشعر بأنه يقفز فوق الفقرات وأطالبه بأن يقرأ كل شيء لنطمئن عليه، فيحمر وجهه وينظر إلى أمه وأمينة وزوجته فأفهم رسالته وأضحك.

ما أوقفني عن الضحك ذات مرة طلب أمينة من فريد أن نسجل لمسعد شريطًا يؤنسه في غربته، فصوب لها الأمر:

- مسعد مين؟ علي اللي مسافر يا عمتي، في ألمانيا.

- أيوه صحيح، علي في ألمانيا. ومسعد في العراق!

***

منذ قدم استقالته وجد فريد وقتًا أطول يضقيه معنا، فارتباطاته في الصحيفة والحزب لا تحتاج إلى

السفر يومًا إلى المدينة.

عاد إلى القراءة بنهم والاستمتاع بحركة ولديه صلاح وعلي حوله، يكفيه دخله من الصحافة والمصنع الصغير، ولا يرغب في أكثر منه.

يقصد مركز الشباب أحيانًا، ويقرأ قصصه كل فترة على جمهور قصر الثقافة في المدينة بين أدباء منها وزائرين. ينتشي بالإشادات التي لا تخلو من الأسف لأنه لم تتح له بفرص علي الذي ينشر بين الحين والآخر مقالات حول المسرح العالمي وسبل تطوير الحركة المسرحية في مصر بتوقيع «علي منصور».

لا شيء يوغر قلب فريد ضد علي، يروض نفسه حين تحدثه بسوء يعلم أن الأحق به عمه ناصر، أما علي فهو في مقام تلميذه ويسعد بنبوغه، أو ابنه الذي يمنحه كل شيء بلا انتظار لمقابل.

كان يعلم محاولاتي لربط مصيري علي ومريم، وأشار لي ذات مرة إلى الجدار قبل إزالته وهو يقول إنه لولاه لتغيرت أمور ولاتسعت المساحة بينهما بدلًا من أن تضطر إلى القنوع بآثار علي في غرفة عمتهم ولا تستطيع النفاذ إلى جوهره فلم تزد لديه شيئًا عن أنها ابنة عمه.

رآها ضحية ناصر لكنه لم يفقد تعاطفه معها، حدثها عن الأقدار والمصائر والرضا بما نواجهه من غير أن يأتي مباشرة على ذكر علي.

نصحها بأن تكتب ما يؤرقها، حاول اصطحابها معه إلى أمسيات قصر الثقافة، ورفضت فعهد إليها بمهمة المصنع كاملة، خاصة أنها تقضي وقتًا طويلًا فيه من غير أن تتأثر دراستها.

وفي ألمانيا، كانت حياة علي الخاصة، كما تقول خطاباته لفريد، موزعة بين امرأتين: سوسن وصفي، وسيليرا، الشابة الألمانية التي عرفها في إحدى السهرات.

صد سوسن مرارًا، بل احتقرها حتى قبل أن يعرف صلتها برجال الأمن في السفارة المصرية.

حذره كثيرون منها في مصر، خاصة أنها كانت تتردد على الشقة، لكنه كان يسخر من التحذيرات، فليس لديه ما يقلقه أو يخيفه.

تصور أن علاقتها بالأمن انتهت بعد التخرج، لم ينزعج من اهتمامها به وأدرك مع الوقت أنها تحبه، وأكد له ذلك زميلهما في البعثة كمال الغرباوي وحذره منها، لكنه لم يبادلها أي شعور.

بدأ ينتبه إلى أنها تفتش في أوراقه وجيوبه وتحاول استدراجه للحديث عن الأوضاع في مصر، فيقول إنه سيبوح بكل شيء يومًا ما، لكن على المسرح.

سيليرا كانت حارسته، لا يصدها ولا يمل أنفاسها، يتركها تتمدد في روحه حتى ينتشيا، أجمل ما فيها احترامها صمته، وشروده أحيانًا، وقسوة مشاعره أحيانًا أخرى.

لا تسأله عن شيء رغم شغفها بمعرفة ما وراء هذا العربي الصموت، وتعجب منه حين يتحدث في الإذاعة أو يقف على خشبة المسرح تنطلق كلماته كالرصاص بألمانية لا عوج فيها.

وحين يثمل ينظر بعيدًا ويحدثها عن أمور تبدو لها أساطير فيزداد غموضًا.

لم تعرف من مسعد وفريد وسامية والأستاذ مصطفى ومريم وزوجة حسن عبد الجواد و»الجرن» والمقابر والصناديق التي نقلت البعض إليها.

كان يلعن الموت والعمدة الجبان والضابط الذي صفعه ورد له الصفعة، ويقسم أن يصفعه ثانية حين يلتقيه وقد أصبح الآن في رتبة أعلى يتلذذ مع زملائه بصفع من يعرضون عليهم ويشترون صمت الرئيس الأهبل بحمايتهم له.

لعن بعض أساتذة المعهد المراهقين، ومخرجين شواذًا، جسدًا وروحًا وفكرًا، وممثلات لا موهبة لديهن إلا النوم في أسرة المتنفذين.

لم تأبه سيليرا إلا به، قنعت بأن حديثه إليها وهو غائب عن الوعي يريحه، وهذا يسعدها، لكنه سيزعج آخرين إن سمعوه.

***

رصدت سوسن وصفي كل شيء قاله علي لسيليرا أو فعله معها. كانت مجبرة على ذلك من الضابط الذي تتعامل معه في السفارة، لكن حبها لعلي، ورغم صده لها، منعها من أن توصل ما يؤذيه.

احتفظت بالتسجيلات لعلها تساوم علي بها يومًا، أو تؤدبه إن لم تظفر من قلبه أو جسده بشيء.

بقي علي معظم الأيام الأخيرة للبعثة قبل العودة إلى القاهرة برفقة سيليرا. أغوته بالبقاء في ألمانيا ومساعدته على العمل فيها، فرفض، معتبرًا أن أفكاره يجب أن ترى النور في مصر.

ولم يستبعد أمام دموع سيليرا المودعة أن يعود يومًا إليها ووعدها بألا تنقطع الاتصالات بينهما.

عودة علي وسوسن وكمال بعد البعثة احتفت بها الصحف، مبشرة بأفكار جديدة وشابة تفيد دارسي المسرح والمشتغلين به.

لم يزرنا علي فور عودته إلى القاهرة، وحين عاتبناه حين جاءنا تعلل بأنه احتاج إلى أيام لينهي أوراق تعيينه مدرسًا في المعهد والتخطيط لمشروعاته الفنية.

كبر الولد واشتد عوده، استعصى قليلًا على حضني، ضعفت أنا عما كنته قبل أن يسافر، لكن أمينة لم يتبدل في وضعها شيء إلا كثرة نسيان الأسماء أو عدم ربطها بأصحابها، فها هي تسلم على علي منشرحة وهي تقول أكثر من مرة:

- مسعد حبيبي رجع، كويس إنك بخير يا مسعد.

مرة أخرى يذكرها فريد بأن العائد علي فينخفض صوتها وهي تحتضنه طويلًا.

أوت مريم إلى محرابها الجديد: مصنع السجاد، لا تريد رؤية علي عن قرب، أدركت أن جدارًا استطال بينهما واستحال معه أن تكون كما كانت من قبل.

علي نفسه لم يعد يراها كما كانت قبل سنوات، فاضت أنوثتها رغم محاولاتها كبتها.

تذكر وهو يقترب من مريم المنهمكة في ربط الصوف بخيوط النول، سيليرا التي احتملت نزقه وحدته طوال الوقت، فلم تغضب مرة وكان حضنها أرحب من هذه القرية، بل مصر كلها.

حاولت التماسك وهو يسلم عليها ويضع عينيه في عينيها لتقول له إنها لم تعد «العيلة الأمورة» التي عرضها عليه جده، هي الآن شابة في الثانوية العامة وتدير مصنعًا صغيرًا وتكتب قصصًا تحتمي في أبطالها حين تداهمها الوحدة.

قال إنه سينتظرها في القاهرة لتدرس وتجد متنفسًا لنفسها وأبطال قصصها، فردت بجفاء وهي تشير إلى النول:

- السجادة دي حتى قبل ما تكمل أوسع عندي من القاهرة واللي فيها.

لم يكن يعلم عمق جرحها، ولا أنه من صنعه، لم تتزحزح يومًا عن موقعها عنده: ابنة العم.

بدا علي لي أخف حدة مما مضى، تجربته الدراسية التي أغنت موهبته ربما زادت ثقته، أو وهمه، بأن الآتي من مشاهد حياته سيصنعه هو، أو سيديره كمخرج.

زار قبر أبيه والتقى الأستاذ مصطفى رشدي وغادر إلى القاهرة.، حيث تنتظره معارك أخرى.

***

بغير اتفاق، كان علي وسوسن وصفي وكمال الغرباوي عائدين من البعثة ببذور ثورة يريدون ألا تستثني شيئًا بدءًا من طرق التدريس بالمعهد وطبيعة العلاقات داخله مرورًا بالمسرح وأشكاله واختيار من يقفون على خشبته، وصولًا إلى كثير من ملفات وزراة الثقافة.

مع بدء عملهم في المعهد، آثر كمال البعد عن المعارك بعد أن ساعدته قدرات أسرته على شراء بناء قديم في وسط القاهرة حوله إلى مسرح خاص وكون فرقة تقدم عروضها عليه.

أما سوسن فاستطاعت بعلاقاتها أن تجد فرصًا للتمثيل في المسرح والتلفزيون والسينما بجانب العمل في المعهد، وفقدت حماسها لأي صراع مع الواقع.

أما علي فبقي الوحيد المطارد بأفكاره وبدأت صداماته في أكثر من اتجاه.

لم يكن له صديق من أساتذة المعهد فاشتبك مع كثيرين منهم وواجههم بما يعرفه منذ أن كان طالبًا بلا خوف من تبعات ذلك.

فضح علاقات مؤكدة بين أساتذة وطالبات لا تتوقف عند ضمان نجاحهن وإنما تمتد إلى منحهن فرص في الوسط الفني لا تتاح لغيرهن، والمقابل معروف.

هاجم طرق التدريس والتدريب ليس في أروقة المعهد فقد، بل أيضًا في مقالات بالصحف أثارت انزعاج كثيرين.

حاولت سوسن إثناءه عن هذه المعارك التي رأتها تبدد جهده ومواهبه المسرحية، بل ستجر عليه ويلات من كل الاتجاهات، ولم يتوقف.

الأخطر بالنسبة لمن أوغر علي صدورهم أن طلابًا التفوا حوله وبدؤوا يروجون أفكاره عن التجديد ونزاهة الفرص في المعهد وخارجه.

بدأت الردود تتوالى بحدة تتصاعد مع الوقت.

هاجموه في مقالات ساخرين مرة من هذا الشاب الذي يهدم قواعد الفن المستقرة، مشيرين مرة إلى انقلابه على المعهد، بل الدولة التي علمته ولم تتوقع أن يسيء إليها.

رغم هذه المقالات مضت الأمور طبيعية، فحاول أصحابها تأليب الأمن عليه بالتلميح إلى التفاف طلاب حوله مما يعطيه فرصة لبث سمومه التي لا يقصد بها المعهد، بل الأمر يخص الوطن كاملًا.

استدعاه الأمن أكثر من مرة بعد أن راقب تحركاته ولقاءاته بالطلاب ليطالبه بالتقليل منها.

لم تتح له فرصة للقول إنها محض حوارات بين أستاذ وطلابه القريبين منه في العمر حول أفكار ثقافية هي جزء من أحلامهم لمصر كما يحلم غيرهم في مجالات أخرى.

لم يفده التبرير في شيء، خاصة أن اللقاءات انتقلت إلى بيته أو الشقة التي سكن فيها أيام الدراسة بالمعهد وبقي فيها أحد زملائه ثم تركها له بعد عودته من البعثة.

بعد عدة لقاءات، انضمت سوسن إليهم، لكنها قليلًا ما تتدخل في الحوار تسمع وتستوضح ما جعل طلابًا يحذرونه من وجودها وأن أسئلتها فيها استدراج.

مر التحذير عليه كما سبقه، فعلمه بأن سوسن تحبه قد يجعله لا يخاف منها، وخلال علاقتهما في المعهد وأثناء البعثة لم تتسبب له في مشكلة، والأهم اعتقاده أنه لا يقول ما يستحق المراقبة، ومستعد لتكراره في أي تجمع.

سوسن نفسها كانت تترك اللقاء أحيانًا وتقلب في الكتب والأوراق الموزعة في الشقة أو تقف في البلكونة تدخن ولا تخشى أن يفوتها شيء من الحديث ويصل إلى الأمن من مصدر آخر؛ لأنه هو نفسه الذي تشهده أروقة المعهد.

ما أغضبها هو استمرار العلاقة بين علي وسيليرا التي لم تطق البعد عنه شهورًا، فخطابها الذي وجدته في أوراقه يقول إنها ستصل قريبًا..

***

لم تعد أمينة تناجي في صحوها ونومها غير مسعد.

تناديني أحيانًا، وتنادي فريد أحيانًا أخرى لتسأل:

- طمنوني على مسعد، هيرجع إمتى؟

لا يراوغها فريد ويواجهها دومًا كلما سألت بإجابة وحيدة:

- مسعد مش هيرجع يا عمتي.

أمينة مصدر قلق منذ فترة، أشعر في بعض الأوقات أن علاقتها تنقطع تمامًا بحياتها وشخوصها وتسافر إلى عالم آخر لا تتذكره هو الآخر حين تعود منه.

شيء ما يومض في عقلها فتتبعه تاركة واقعها إلى راحلين وحيوات توقفت منذ سنوات وتخلط بين الوقائع والأسماء كأنها تعيد ترتيب عالمها.

تركيزها على مسعد أقلقني على أحوال علي بلا داعٍ حتى باح فريد مرة باشتباكه على صفحات الصحف مع زملاء في المعهد ومثقفين وفنانين يبدو أنهم متفقون على مهاجمته.

صعب عليّ فهم محاور خلاف علي مع هؤلاء، لكنني لم أتخلَّ عن قلقي. أعرف روحه الحادة وعقله الصدامي، من يحميه منهما في القاهرة كما كنت أفعل وفريد هنا في القرية؟

دفعت فريد إلى زيارته فذهب حاملًا ما استطاع من مؤن وقبلات وسلامات منا، ما عدا مريم.

اندهش من خوفي عليه ومن استسلام فريد لهذا الخوف لدرجة زيارته.

صرخ فيه مطالبًا بألا نعامله كطفل يخشون عليه من نزول الترعة أو زيارة المقابر في القيلولة والمساء، فهو الآن عقل مكتمل ولسانه ويداه قادرة -رغم النحول الذي بدأ يعتري جسده- على صفع كل من يهاجمه بما يخرسه من غير أن يهرب محتميًا بالمنزل أو منتظرًا تدخل العمدة.

ضحك فريد وهو يستعيد مواجهاتهما في القرية وكيف كانت أكبر من سنهما، أو على الأقل قدرات أقرانهما، لكنها لم تكبر أبدًا على احتمال جدهما وقدرته على حمايتهما.

حذره فريد من أن العواقب هنا ليست كتلك التي عرفها في القرية، فتجاهل حديثه سائلًا عن أحواله في الصحيفة والحزب، وأخبار كل من في القرية، خاصة أمينة ومريم، فتاة السجاد، كما وصفها ضاحكًا.

اختصر فريد أحوالهما في جملة حتى لا يشتت انتباه علي وسط ما ينبت حوله من معارك.

- عمتك تنسج ماضينا بطريقتها وتعيد ترتيب وقائعه على هواها، وابنة عمك لا تأتمن غير السجاد على ما في عقلها وقلبها.

- وأنت؟

- مالي؟

- راضي؟

- جدًّا.

- عايز منك كام قصة أختار واحدة منها أخرجها مسرحية. أقول لك، عايز قصة «حمار العمدة» اللي قريتها مرة.

- سيبك من العمدة وحماره، هتخرج المسرحية فين؟ ومين هيشتغل معاك وأنت معادي الكل؟

أغمض علي عينيه دقائق وكاد دخان سجائره المتلاحقة يخفي رأسه، لكنه عاد إلى فريد بالمدخل

إلى نشاطه المسرحي:

- هو كمال الغرباوي، بينا عشرة، ومسرحه خاص، حتى لو قفلوه يقدر يستحمل الخسائر ويعيش بمساعدة أسرته.

- أنت مصمم تورط كل اللي بيحبوك معاك، ربنا يستر!

- ما تخافش، تخلص زيارة سيليرا وبعدها نشوف.

***

خشي فريد أن يصحب علي صديقته الألمانية إلى القرية، لئلا يغضب جده ومريم، ولما تأكد أنه لن يفعل لم يفته أن يجهز له هدية له، فطلب من مريم سجادة صغيرة بألوان زاهية ورسوم تعكس حياة الريف من غير أن يخبرها بمن ستذهب إليه.

آه لو علمت مريم ما عرفته عن سيليرا وأنها تنسج لها هدية بيديها تقوي أواصر صلتها بعلي.

جولاتها في القاهرة كانت أعظم هدايا علي لسيليرا المهتمة بأن تقترب من جذوره وترصد طرق تعامله مه البشر، وهي لا تعلم، ربما، أن أشباهه نادرون وأننا -رغم أنه من نسلنا- نحار في فهمه.

مضى الشهر سريعًا، وقضت سيليرا أيامًا كثيرة منه تراقب من بلكونة شقة علي -حيث تقيم- حركة الناس وأصواتهم العالية.

كل تفاصيل اجتماع علي وسيليرا في الشقة لم تفلت من رقابة سوسن، لكن هذه المرة غلب حسها الأنثوي على الأمني وغارت أكثر عليه وليس على الوطن الذي يقول لها رجال الأمن إنها تحميه.

تعذبت سوسن بتفاصيل العلاقة، ولم يفلح هدوء علي وصمته، حتى في لحظات اختلاط أنفاسه بسيليرا، في تهدئتها، فها هو يبوح ببعض أسرار جسده معها ويرتمي في حضن امرأة، فلماذا لا تكون هي؟

ارتاحت كثيرًا حينما غادرت سيليرا، وأخذت تعزي نفسها بأنها لن تأتي إلى مصر كل يوم، وقد لا تعود ثانية، وقد لا يذهب هو إليها، وقررت أن تبذل المستحيل لتملأ -بأي شكل- المسافة بين مصر وألمانيا فتسد عليهما طريق اللقاء.

زادت زيارات سوسن لشقة علي، كان كثيرًا ما يعود من سهراته ليلًا ليجدها في انتظاره وقد أعدت عشاء وخمورًا.

لم تنجح، كالعادة، في إغوائه، كما بدأ ينشغل أكثر بالتجهيز لأعمال مسرحية بعد أن وافق كمال الغرباوي على أن يمنحه المسرح يومين في الأسبوع، رغم تخوفه من التبعات.

وجدت سوسن اتجاه علي للإخراج فرصة للاقتراب منه أكثر ولم تتردد في طلب العمل معه، فلم يمانع خاصة أنها شاركت في عروض.

بدأت التجربة بمسرحيات عالمية اقتصر جمهورها على مثقفين وصحفيين وطلاب من المعهد وغيره، ولم يجد فيها كارهوه ما يؤلبون به الأمن عليه، بل ضايقهم الإشادة بأسلوب علي

الإخراجي وما فيه من تجديد.

بجانب الإخراج، كتب أكثر من نص وزاد الاحتفاء بتجاربه في صحف المعارضة.

حين قرر أن يقدم مسرحية فريد «حمار العمدة» نجح هؤلاء في اصطياده بالإشارة إلى أنه يقصد الرئيس ويوحي باعتماده على عديمي الكفاءة.

صعدوا الأمر ببيان وقع عليه عدد منهم يطالب بمحاسبة علي وأغفلوا في ظل تركيزهم عليه ذكر المؤلف وإلا تضاعفت المصيبة، ومنعتهم المصالح التي تربطهم بكمال الغرباوي الذي يستعين ببعضهم في عروض تجارية، من الوقوف عند أنه صاحب المسرح.

صوبت الأقلام نحو علي وحده، حتى لم يقفوا عند سوسن وصفي، فذهبوا به إلى أقبية الأمن ولم يخرج إلا بعد تحذير شفوي صارم من الخروج عن النص.

كان ذلك انتصارًا كبيرًا له أحزن من ينتظرون نهايته خاصة أن أحدًا في مصر لم يجرؤ على التعاطف معه ما دام الأمر متعلقًا برئيس الجمهورية كما أشيع.

هذا المأزق خلا من أي معنى لدى شخص واحد قرر أن يفعل أي شيء لإنقاذ علي. لم تنم سيليرا إلا بعد أن حركت كل من تعرفه في ألمانيا دفاعًا عن علي، أحد أصدقاء ألمانيا في مصر والمعبرين عن ثقافتها يحكم دراسته المسرح هناك، وحرية رأيه.

غضب المثقفين الذي أشعلته سيليرا في ألمانيا نقلته سفارتها في القاهرة إلى أجهزة في الدولة، فأمرت بإغلاق قضية علي منصور.

***

على غرار فريد، قررت مريم ألا تكمل تعليمها بعد الثانوية العامة قانعة بمتعة قضائها معظم يومها في مصنع النسيج، وتدوين خواطرها بين وقت وآخر.

عارضها فريد، ولم تغضب من مهاجمته أباها الذي حرمه من استكمال تعليمه، وقابلت تأكيده أن علي سيغضب بشدة من هذا القرار بسخرية موجعة.

نصحها بألا تضيع فرصة الجامعة، وفعل ناصر وعفاف وصباح الأمر نفسه، ولم تتراجع.

حاولت الاستعانة بأمينة، لكن مصيبتها بدأت تتبدى، لم تعد تخلط بين علي ومسعد فقط، وعلى فترات، فجزء كبير من ذاكرتها يسقط أحيانًا وتحتاج إلى وقت للربط بين الأمور.

بذل فريد من أجلها كل جهد في إنعاش ماضيها مستعينًا ببعض الكتب المتعلقة بالموضوع، وبقيت استجابتها بطيئة. أسمعها بعض الشرائط التي سجلناها لمسعد أو أرسلها إلينا من العراق، ولا رد فعل لها إلا السؤال عن موعد عودته!

أقنعتها مريم أكثر من مرة بالجلوس معها في شمس الضحى أمام المصنع ولاحظت ابتهاجها بألوان السجاد والصوف المتناثر في المكان، لكنها رفضت فجأة تكرار التجربة.

تناوبت مريم وأخواتها وصباح وعفاف على رعاية أمينة التي حملت همومنا طويلًا قبل أن تبدأ في

الانهيار يأسًا من كل شيء.

اليأس نفسه هو ما دفع مريم إلى قبول الأسطى حسن زوجًا، رافضة كل من تقدموا لها من القرية.

رغم شهرته باسم الأسطى حسن، إلا أن الرجل الذي يأتي كل شهور من بنها لشراء السجاد من مصنع فريد وبيعه إلى تجار في القاهرة، يحافظ على أناقته ويحمل شهادة دبلوم تجارة.

بمجرد معرفته أن مريم لن تكمل تعليمها، فاتحنا في رغبته بالزواج بعد أن حبسها فترة خوفًا من أن ترفضه متعللة بالجامعة أو تجرحه بالفارق التعليمي.

فاجأنا الرجل بأنه لم يفاتحنا إلا بعد أن استشف موافقتها، فوافق ناصر، أو بالأحرى لم يرفض، فما يهمه هو وعفاف الاطمئنان على ابنتهما، وهاج فريد حتى كاد يشتبك مع عمه.

هل ترغب مريم في الهروب هي الأخرى مثلما فعل سابقوها؟

أليس لدى العائلة ما يغري بالبقاء، فإن لم نمت نصر على الفرار؟ لماذا تتعرج قصصنا ولا تمضي مستقيمة كما كل من نعرفهم؟

اكتفيت بمحاصرة نفسي بالأسئلة التي أجاب عنها فريد دون أن ألقيها:

- إحنا عيلة درامية يا جدي.

- والمخرج بتاعنا ما عندوش حل.

- تقصد علي؟ ده بالذات أحد أبطال المأساة ومالوش إيد في حاجة زينا.

محاولات فريد الأخيرة لم تجد صدى لدى مريم، فاضطر على غير رغبتها إلى إبلاغ علي وكان حضوره، ككل المدعوين من دون أن يبدي أي رد فعل، سببًا في حسمها الأمر، وانتقلت مع الأسطى حسن إلى بيته في بنها، فلا هي بلغت القاهرة حيث هو، ولا بقيت في القرية، حيث نحن.

***

لم ينحن علي منصور للموجة على عكس ما توقع زملاؤه في المعهد ومن يناصرهم ضده، بل نعتهم أمام الطلاب بأقذع الألفاظ وأعاد فضحهم بالاسم.

ما عكر صفوه امتناع المسارح حتى الخاصة، عن التعامل معه مخرجًا أو ممثلًا. وخاب سعي سوسن وصفي لحل مشكلته، فلا أحد من المسرحيين رضي المغامرة بالتعاون مع رجل ارتبط اسمه بالإساءة إلى الرئيس.

انشغال فريد بالمصنع بجانب عمله في الصحيفة ونشاطه الحزبي منعه من زيارته في القاهرة لمؤازرة علي، فاكتفى بخطابات يحثه فيها على الصمود والصبر ويبشره بأن أحلامه التي ولدت في «الجرن» ستجد لها مسرحًا يحتضنها وستبقى خالدة حين ترحل الأنظمة ومن يواليها.

هذه الخطابات أضاءت فكر علي بطريق مباغت لمن يعاديه، لكنه سيوسع مواجهاته ويرسخ فكرة معاداته للنظام والتيار الثقافي الرسمي.

لم يتردد، فمنذ متى وهو يتحسب لعواقب؟

فكر علي في أن يعود إلى ميدانه الأول:»الجرن»، فهو البراح القادر على احتوائه خاصة حين يتحصن بالفلاحين والطلاب والمتحمسين لفكره حتى يقدم أعمالًا تجهر بما يكتمون.

قرر أن تكون البداية من القرية، حيث فاجأ فريد بما ينتويه.

حاول فريد صده عن المضي في الفكرة حرصًا عليه، مؤكدًا أنه حين ذكر له «الجرن» كان يقوي عزيمته ويستحثه على المواجهة، لكن ليس بهذه الطريقة.

اتصل علي ببعض طلابه ليحضروا إلى القرية ودعا عددًا من فناني الحزب الذي ينشط فيه فريد، وبعد أيام من التحضيرات بدأ تجربة «مسرح الجرن»، كما سمتها الصحافة المعارضة، وبالمسرحية نفسها التي صنعت الأزمة «حمار العمدة».

وصفته سوسن وصفي بالمجنون حين قرأت متابعات الصحف لمشروعه الجديد، ولم تستغرب منه أي شيء، لكن المتربصين به بدؤوا في التحرك بكل الاتجاهات.

صوروا الأمر مواجهة صريحة مع النظام، وانقلابًا على المسار الثقافي الرسمي، وتحريضًا للفلاحين والطلاب على معاداة الدولة.

توقع فريد أن الخطر سيطارد التجربة وأن الأمر قد يستعصي على الحل حتى إذا تدخل الألمان مرة ثانية. كلف عددًا من شباب القرية المتحمسين لأفكار علي بمراقبة مداخل القرية لرصد أي وجوه غريبة.

هذه الوجوه لم تتأخر كثيرًا وحضرت إلى القرية لاصطياد علي والذين معه، لكنهم، بفضل تحذير الشباب، هربوا قبل الوقوع في أيديهم ثم ظهروا بعد أيام في قرية أخرى يقدمون العرض نفسه.

بدأت المطاردة بين الفريقين، وكل منهما يجدد أساليبه في التخفي، لكن الخناق بدأ يضيق تدريجيًّا على علي وأصحابه مع تجنيد الأمن لعدد أكبر من المخبرين والأهالي.

بسقوطهم عرفت ملفات الأمن «قضية مسرح الجرن» التي تجاوزت في صحف الحكومة كونها محاولة لإنشاء مسرح موازٍ إلى عمل تنظيمي يستهدف التخريب وتشجيع الخروج على النظام.

ازدوجت مصيبتي، فالأمن لم يستثن فريد هذه المرة ولم تفلح صحيفته ولا بقية صحف المعارضة في المواجهة.

حتى سيليرا لم تكتف بمساندة علي ورفاقه عن بعد وحضرت من ألمانيا ومعها صحفيون أجانب للضغط على الحكومة لتطلق سراحهم.

غارت سوسن وصفي وهي ترى سيليرا تعود مجددًا بعد أن أملت بانقطاع صلتها بعلي، فحاولت -وهي تعلم النتيجة- التدخل ودخل «الجرن» أروقة محاكم أمن الدولة.

لم تستمر المباراة النسائية لدعم علي بين سيليرا وسوسن، فمريم ظهرت في المحكمة التي لم تطل جلساتها لنظر القضية وأبدت صرامة وصلت إلى قرار ضبط المحتشدين مساندة للمتهمين حتى

قادتهم جميعًا إلى السجن لمدد متفاوتة.

***

بعد شهور لم نستطع فيها الوصول إلى مكانهما، خرج فريد وبعض رفاقه في الحزب ما هون مصيبتنا، لكن بقيت مشتعلة باستمرار سجن علي المعاقب بثلاث سنوات.

كان الحكم فرصة لإدارة المعهد فسارعت إلى فصل علي وعاقبت طلابًا تعاطفوا معه بالحرمان من الامتحانات، فخاض فريد معركة الدفاع عنه وعنهم عبر صحيفته وبدأت مراسلات بينه وبين سيليرا ليستمر ضغطها من الخارج.

قررت أن أزور علي بعد أن استقر في سجن طرة، رفضت اصطحاب فريد حتى لا يتعرض لمضايقات أمنية وحتى لا يغيب عن البيت بعد أن ساءت حالة أمينة وزاد انفصالها عما يجري حولها. السيد صابر أصر على مرافقتي غير عابئ بتحذيراتي، فرتب فريد أمر الزيارة مع محام من حزبه كان أحد أعضاء فريق الدفاع عن علي.

نقلتنا سيارة من القرية إلى السجن لأفاجأ بشبح يشبه علي الذي نقص وزنه كثيرًا وزاغ بصره. تجاهل سلاماتي ومحاولاتي والسيد صابر معرفة أحواله بالسجن وصدمني بسؤاله عن سامية:

- أمي فين يا جدي؟ هربت صحيح مع راجل بعد وفاة أبويا؟

أقسمنا له مرارًا إن ذلك لم يحدث ليهدأ، فهاج زاعقًا في الحراس:

- قولوا لولاد الكلب اللي جوه أمي ما هربتش. أمي ما هربتش.

أدركت أنهم نكأوا جرحه حين بدا صامدًا، عذبوا روحه وجسده بملف قديم حسبناه أغلق؛ لأنه رد لهم كل شتيمة بمثلها، بل رد أول صفعة تلقاها وبعدها غلبته الكثرة.

عاد طفلًا يبكي رجولته وأحلامه الضائعة، وليس بوسعي هذه المرة حمايته، فعدوه هذه المرة ليس العمدة ولا ضباطًا في المركز نسترضيهم.

صبرته وداخلي يغلي، بشرته بفرج قريب وأنا في سجن أكبر من الذي يحتويه ودخان سجائره المتلاحقه، رغم سعاله الحاد، يعميني عن رؤية بصيص نور.

أصمت فيعيد سؤاله عن أمه، وأكرر أيماني فيصرخ من جديد:

- قولوا لولاد الكلب اللي جوه أمي ما هربتش. أمي ما هربتش.

أحاط به الحراس وسحبوه إلى الداخل وأنا ألوح له مودعًا وأكاد أسقط في مكاني فيسندني السيد صابر.

تركت له نقودًا وسجائر في الأمانات فتقبلها الحارس ساخرًا:

- وفر على نفسك يا حاج، الست سوسن قايمة بالواجب.

- سوسن مين يا ابني؟

- الممثلة يا حاج.

جاراه زميله في سخريته هو يشير إلى امرأة أخرى تزوره:

- ولا الست مريم اللي بتيجي تقطع قلبنا من العياط كل فترة وتسيب له فلوس وسجاير وتمشي.

نقلت المأساة كلها لفريد فنشط من جديد في مهاجمة إدارة السجن في صحيفته واتهامها بتعذيب علي، وكرر ذلك في خطاباته إلى سيليرا فضاعفت جهدها متكئة هذه المرة على قضية التعذيب وتحدت النظام أن يسمح لصحفيين أجانب بزيارة علي الذي تعتل صحته يومًا بعد آخر.

بعدها بأسابيع بشرنا فريد بالإفراج عن علي لأسباب صحية بعد أن خبؤوه في مستشفى محاولين ترميم جروح جسده، لكن روحه كانت عصية على المداواة.

***

رغم كل شيء بقي حب مريم لعلي لا يتزحزح.

حين زارتنا بصحبة زوجها التقينا في غرفة أمينة واستعدنا تجربة سجنه. أخبرتها أني عرفت بزياراتها المتكررة للسجن فأدركت أنها هي الأخرى في زنزانة بلا حراس.

اعترفتْ أنها عاندت نفسها حين قبلت بالزواج من حسن. كانت تود الهروب تهرب من أي مكان يذكرها بعلي، وعندما عرفت بسجنه وما تعرض له من جراح نسيت نقمتها عليه، بل إنها الآن في غرفة أمينة تتحرر من سجنها مع حسن بأنفاس علي التي تسكنها وأملها ألا تعود إلى بنها.

نصحتها بألا تظلم نفسها وزوجها، فسجنها الحقيقي أن تبقى أسيرة علي يبعدها ويقربها، فذاك الجحيم الذي سيهدم حياتها.

قطعت أمينة حواري مع مريم مرات تسأل عن علي تارة، وتارة أخرى ترجو أن نستعد لعودته من العراق، فقد وعدها بذلك في آخر شريط.

كنا نرقبها صامتين فتقطع صمتنا بسؤال موجع توجهه إلى مريم:

- بت يا سامية، هو مسعد راجع إمتى؟ إوعي يا بت يكون هيتأخر وأنت مخبية علي؟

سارعت مريم إلى احتضانها وهي تنتحب وترجوني أن نفعل شيئًا لاستعادة أمينة، فكنت أجيبها بشرود وأخشى أن أخبرها بالحقيقة.

أمينة يا ابنتي تموت ببطء، أو ماتت بالفعل. إنها تخسر ذاكرة السنوات التي عاشتها، نهش الحزن ماضيها وحاضرها ومستقبلها. هل يبقى من الإنسان شيء إذا خسر الزمن وأحداثه وبقيت أنفاسه فقط؟

ما معنى أن نصف إنسانًا بالحي وكل ما يربط بين وقائع حياته ممزق؟ ما جدوى أن يفقد القدرة على استرجاع لحظات السعادة من ماضيه فيأنس، أو استعادة أوقات الحزن ويبتئس؟

لا يهم إن كان يتذكر فرحًا أو حزنًا. جدوى الحياة أن تبقى خيوط الإنسان متصلة، فإذا مزقها

الحزن أو الحسرة اضطرب وجوده وارتبك زمنه؟

ما أصعب أن يتحلق حولك صغار ينتظرون أن تروي لهم حكايات فيجدون رأسك فارغًا رغم سنوات طوال عشتها ثم فقدتها.

هل لذلك معنى غير الموت؟

ضعفت عن قول ذلك كله لمريم، فلديها ما يكفيها، وأنا الآن أولى بأمينة وإن كنت لا أستغني عن صباح وعفاف في أمور لا يمكنني القيام بها، فهما الأقدر على تغيير ملابسها ومساعدتها على الاستحمام وقضاء حاجتها بعد أن بدأت تضل الطريق إلى الحمام.

بقيت مريم طويلًا في «الجرن»، مؤكد أنها الآن ترى علي بين الأطفال ثم بين أصدقائه من المدينة يرمح على مسرحه الفطري حين لم تكن علمت حقيقة جروحه.

وفي مصنع السجاد لم تطق الوقوف طويلًا، ربما لم تسمع تذكير حسن لها بأنه رآها هنا لأول مرة وأصر أن يتزوجها.

كانت بكل حواسها هناك. عند علي، تكاد تنطق: كم أنت محظوظة يا عمتي بذاكرتك الفارغة، وتتمنى أن يسقط من حسابات العمر كل ما حال بينها وبين علي.

***

انزوى علي في شقته بعد تجربة السجن، نتناوب أنا وفريد على زيارته أو يقصده كل منا منفردًا بين فترة وأخرى نحمل إليه طعامًا ونقودًا ولا شيء يؤنسه غير خمره.

كنا نقضي الساعات نحاول استنطاقه بلا جدوى، حاول فريد إجباره على الأكل ولم ينجح، حذرته من مغبة الإفراط في الشراب ولم يسمع.

صحته تسوء ولا يقيم لذلك وزنًا، يسخر من اقتراحنا أن نعرضه على طبيب ويقول إنه سيشرب من دم كل من أهانه وتآمر عليه وبعدها يشفى.

صادفنا سوسن وصفي في الشقة كثيرًا ونحن نزوره، كانت تبذل جهدًا أكبر في إطعامه وتوفير الشراب له. خشيت من تشجيعها له على تدمير صحته، ورأى فريد -رغم أنه لا يطمئن إليها- أنها ربما تعصم علي من نفسه؛ لأنها فقط تحبه.

طرقنا الباب ذات مرة ولم نجد علي، قال الجيران إنه خرج ليلًا ولم يرجع. كان الانتظار الخيار الوحيد، فلسنا نعرف جهة يمكن أن يقصدها وليتنا لم نفعل. قرب الظهر رجع علي متكئًا على سوسن وصفي وفي عينيه آثار لكمات وملابسه ممزقة.

بعد أن أودعناه سريره بدأت سوسن تحكي وقائع الساعات التي قضياها خارج المنزل. كانت أقنعته بأن يخرج من محبسه ليرى الناس والشوارع لعل ذلك يهدئ نفسه، جابت معه بسيارتها أماكن عدة قبل أن تقوده إلى مقهى في وسط القاهرة يقصده الفنانون والمثقفون.

شعر بغربة أولًا بين الوجوه الموزعة في أركان المقهى، وبدأ يشرب ثم أفرط بينما ينضم إلى

الرواد ممثلون يعرفهم وتبعهم مخرج شهير كان ممن حرضوا عليه.

غافل علي الجميع وأطبق بيديه على رقبة المخرج وأقسم ألا يتركه إلا قتيلًا، وقبل أن يهرع الموجودون لفض الموقف أدرك أن قواه الخائرة لن تتصفه طويلًا إذا هاجموه فكسر زجاجة كانت أمام المخرج وهدد بذبحه إن اقتربوا منه.

دقائق مرت حبست أنفاس كل من في المقهي والعابرين وكادت تنتهي بموت المخرج بين يدي علي من شدة الخوف، لكنه لم يصمد في وجه مهاجميه الذين قيدوا حركته واستغل المخرج الفرصة وكال له اللكمات وهو يرميه بالجنون.

خارت قوى علي بسرعة وسقط وسط المقهى فتدخل الحضور لتهدئة المخرج وإبعاده عنه، بينما علي بصوت واهن يصفه بالخائن المتآمر الفاشل ويقسم أن يقتله.

أنهض الموجودون علي وأجلسوه علي كرسيه وبدؤوا في وضع الثلج على مواضع اللكمات، ساعدته سوسن على شرب الماء وبعده طلب خمرًا، لاعنًا كل من ينصحه بأن يهدأ أولًا.

ميز وجه كمال الغرباوي جالسًا بجواره يسأل الموجودين أن يتركوه يشرب ما يشاء حتى يهدأ.

تجمد الموقف تمامًا بعد فترة صوبت العيون خلالها عليه وهو مستكين بين كمال وسوسن يطالبانه بالهدوء كلما شتم المخرج الشهير الذي أحاط به مجموعة من الأشخاص خارج المقهى.

أشار كمال لسوسن أن تصحب علي إلى البيت ليستريح، وعندما ساعدته على النهوض سحب يده من قبضتها وفتح بنطاله وبال وسط المقهى.

لما انتهى سحبته سوسن خارج المقهى بسرعة بينما قال كمال إنه سيقنع المخرج بألا يوصل الأمر إلى الأمن حتى لا يتعقد الموقف.

قضى معها الليلة في بيتها وصمم بعد أن استرد وعيه أن يعود إلى شقته.

***

أي عجز هذ الذي أعيشه؟ نفسي مشتتة بين أكثر من جبهة: أمينة، ومريم، وعلي، بل إن فريد تأكل هذه المصائب روحه، وإن كان لا يتكلم كثيرًا.

خسر مستقبله قبل ذلك وقابل ذلك برضا وأمل أن يكون ما ينتظره أحسن، لكنه الآن يتعرى تدريجيًّا بفقدان من كانوا سنده وسر اطمئنانه. ورغم ذلك يدير أمور أسرته ويرعى أمه ويلتزم بعمله الصحفي والحزبي ولا أفتقده أبدًا حين أحتاج إليه ولا يتأخر في أي أمر يخص أحدنا.

معاركه كلها تدور داخل نفسه، لا يسمح بغبارها أن يتسلل إلينا، أليس ذلك أقسى مما أعيشه أنا؟

لسنا في وارد تقسيم الوجع، فأقل نصيب منه قادر على قهر الروح والجسد، ولا أشكو من أن لي الجزء الأكبر، فقط أحاول التوقف واستمهال أحداثنا المتلاحقة كأننا في مسلسل يختصر سنوات في ساعات.

أستحث فريد ليعاود زياراته لمركز الشباب ولقاءاته بالأستاذ مصطفى رشدي أو يصطحب ولديه

في نزهة بين حقول القرية، لكنه يرجئ كل شيء، ويبدو أن أمد التأجيل سيطول.

لم نفق من صدمة علي العائد مصابًا مجروحًا من المقهى حتى انفتحت صفحة مريم بكارثة.

تلغراف من زوجها يطلب حضورنا على عجلٍ لأمر مهم. ذهبت وفريد وناصر لنصدم بما لم نتوقعه أبدًا، فمريم في المستشفى تغطي الضمادات رأسها ولا تنطق ولا أحد من الأطباء يفيدنا بشيء.

الأسطى حسن شارد من هول الموقف، نلح عليه في أن يروي ما حدث وكلما هم بالحديث ألجمه شيء ما.

- لم نأتِ إلى هنا لنسمع صمتك وتهرب الأطباء عن الإجابة.

صرخت فيه وسط المستشفى وفريد يحاول تهدئتي ونظراته ترجو حسن أن يكشف غموض الموقف، فخرجت عباراته بطيئة متباعدة يستحثها ناصر لتكتمل بمعنى مفيد.

أدرك حسن منذ البداية أن جدارًا ما يفصله عن مريم، وصبر عليها محتملًا تقلباتها التي تصل بها إلى حد الشراسة أحيانًا، لكنها بعد أن بدأت أزمة سجن علي زادت نوباتها المزعجة المخيفة، ومنذ عادت من القرية بعد الزيارة الأخيرة صامت عن الكلام.

أقسم إنه حاول أن يعرف كنه ما هي فيه وأن يخرجها منه وأجابته بصد واستمرار في الصمت واعتصام بغرفتها، حتى عاد من عمله قبل يومين حاملًا لها بعض الحلوى والفاكهة وحاول مداعبتها وإضحاكها ففوجئ بها تجري خارج البيت حافية.

تبعها محاولًا اللحاق بها وتبعه بعض المارة الذين يعرفونه قبل أن تصدمهم جميعًا بالقفز في النيل. نزل من يجيدون السباحة خلفها ونجحوا في إنقاذها من الموت لكنها خرجت برأس يتدفق الدم من جوانبه فهرعوا بها إلى المستشفى ومع تأكيد الأطباء خطورة حالتها أرسل لنا التلغراف.

ها نحن أمام مجهول جديد، لا ندري إن كانت مريم ستعود، وبأي حال، أم لا.

بقيت في المستشفى مع حسن ننتظر إشارة النجاة وأرسلت فريد إلى القرية يتابع أحوال البيت فغاب أيامًا وعاد بصباح وعفاف لزيارة مريم وبقيت زوجته هناك ترعى أمينة والبقية.

بعد الزيارة عادوا جميعًا، رغم رفض ناصر في البداية ترك ابنته، وأصررت على البقاء إلى جوارها أرقب صمتها وأخشى على علي مما ينطق به هناك في قلب معركته.

أحاول أن أدس نفسي في رأسي مريم وعلي الآن لأعرف إلى أين يذهبان بنا.

***

حسنًا فعل فريد حين أدرك أن بقائي إلى جانب مريم سيشغلني فترة عن علي فقصد شقته يزوره. أصبحت سوسن وصفي جزءًا من حياة علي الذي أفلت من تهمة الاعتداء على المخرج، لكنها شاعت في الأوساط الثقافية ومعها خوف منه يمنع من التعامل معه.

وهكذا أصبح حبيس جراحه وبيته مسكونًا بالقلق محاصرًا بالمقاطعة إلا من كمال الغرباوي

وسوسن التي تخفي عنه خطابات متلاحقة تأتيه من سيليرا.

هي اللحظة الأضعف في حياته، فقبلها كان يتألم لكنه يتعالى على ألمه ولا يترك ساحة المعركة منسحبًا أو خاسرًا. نفذت سوسن وصفي من هذه الثغرة، بين يقظة منهكة وغياب عن الوعي عرضت عليه أن يتزوجا فلم يرفض كما فعل مرارًا، ربما لأنها ملاذه الوحيد الآن مع إحساسه بعدمية الموضوع كله، فلا فرق إن كان ما يربطهما عقد رسمي أو شيء غيره.

استغرب فريد وكمال الغرباوي موافقته ولم يبذلا جهدًا لمنعه، ربما رأيا في الارتباط منجاة لعلي من اكتئاب متوقع ومزيد من الانسحاب إلى ذاته تعززه العزلة التي يعانيها.

شهد الاثنان على عقد كان الملمح الوحيد من أجواء الزواج، بدا علي مستسلمًا وقنعت سوسن بالزفاف المحاصر كأحد أطرافه، بل غلبتها السعادة وهي تحقق ما أرادت.

كسبت سوسن المعركة، وإن قلت أو انعدمت غنائمها، فعلي لم يعد الرجل الذي شاهدته كثيرًا في أحضان سيليرا وسمعت عن بعض مغامراته النسائية في الشقة نفسها أيام الدراسة في المعهد.

كان علي بدأ قبل الزواج يدون بعض يومياته بإيعاز من فريد أملًا في أن يتخفف مما يثقل روحه، وفي كل زيارة كان فريد يعود بما كتبه ابن عمه ويحفظه في حقيبة خاصة بدولابه.

لم يتوقف علي بعد الزواج عن التدوين، فقد وجد بعض الراحة فيه، ومضى يشهد فريد على أمور لم يتوقعها.

فاجأته سوسن بما احتفظت به من مشاهد تجمعه بسيليرا في ألمانيا، لم يعد مهتمًّا بتأكيدها بنفسها ما كان يشاع عن علاقتها بالأمن، لكنها أقسمت له إنها اصطبرت على صده لها كثيرًا وراهنت بقوة حبها على أنه سيكون لها يومًا فلم تطلع أحدًا على ما لديها.

رأى علي في التسجيلات جانبًا آخر وهو أنها تستحث رجولته التي تشهد عليها علاقته بسيليرا ثم انسحقت أو كادت تحت وطأة ما تعرض له، أو تستنهض جزءًا من ماضيه ينقذ حاضره.

قلق فريد من إشارات سوسن واعتبرها ضغطًا مبكرًا على علي وتعبيرًا عن مللها السريع من هذه العلاقة، وشغله تدافع الأحداث عن ذلك، فهناك الآن ما هو أهم.

فوت فريد أكثر من زيارة لي في المستشفى وأنا مقيم حول مريم من دون أن يخبرني بزواج علي. لعله كان يتعامل معه كحدث عابر أو يحميني من تبعات أي تطورات جديدة حتى تعود مريم من غيبتها.

قطعت إقامتي في المستشفى يومين زرت خلالهما القرية لتفقد أحوال أمينة التي توغل في الغياب، والاستراحة بعد أن حرمت نفسي النوم الهانئ وتسللت إلى عظامي برودة المستشفيات حيث أبيت رغم إلحاح حسن أن أقضي الليل في بيته، أو أذهب نهارًا وقت القيلولة.

عدت إلى بنها فاستقبلني حسن ببشرى استعادة مريم وعيها ولو ببطء. بدأ الأطباء يتحدثون عن ارتطام رأسها بحجارة في النيل وتفاصيل تعامل مع الحالة لم نفهمها. انشغلنا فقط ببدايات عودتها وحاصرنا الأطباء بأسئلة عن المقبل وليس ما فات، فطالبونا بالصبر.

***

أراحت نفسها أمينة مما يلحق بعائلتنا المنكوبة على الدوام. أفكر الآن في ماضينا فلا أجد جيلًا منا سلم من الوجع، مهما اجتهدنا في سد الثغرات يأتينا من حيث لا نحتسب.

ما كدت أفرح بخروج مريم من المستشفى، رغم أن تحسنًا لا يطرأ على حالتها، حتى أتاني فريد جزعًا بما حدث له خلال أيام معهودة.

بعد زواج مريم وانشغاله هو، تولت زوجته إدارة المصنع وفهمت بالتدريج ما يقتضيه ذلك من تعامل مع تجار الخامات والعمال ومن يشترون السجاد.

كان العمل يمضي بشكل مرضٍ، غير أن صباح ألحت عليه كثيرًا أن يبحث عن شخص يحل محل زوجته في المصنع، ولم تذكر سببًا مقنعًا لهذا الإلحاح.

الغريب أن عفاف فعلت الشيء نفسه، وفاجأه أن ناصر طالبه بأن يغلق المصنع منعًا للمشاكل.

تصور فريد أن عمه يتدخل فيما لا يعنيه ويسلط زوجته أيضًا، فلم يرد الوقوف أمامه معتقدًا أنه متأثر بما جرى لمريم. استوقف فريد أن أمه هي من بدأ الموضوع، فبرأ عمه وزوجته من أي غرض، وقصدها محاولًا الفهم.

تمنعت صباح في إجابة ابنها، لكنها في النهاية رضخت لتساؤلاته الحيرى وصدمته بشكها في سلوك زوجته.

قبل أن يستوعب الصدمة أشارت إلى تصرفات بعينها بين زوجته وشاب من المدينة يأتي كل فترة لشراء السجاد.

لم يعهد فريد في أمه الكذب أو الادعاء على أحد، بل أدرك أن هذه التصرفات لفتت نظر عمه وعفاف، وليس بين الثلاثة وزوجته شيء يدعوهم لرميها بهذه التهمة.

من غير أن يبين لزوجته أي شيء، تتبع خيط التهمة وسألها عن موعد تسليم السجاد للشاب فحددت له يومًا. ادعى أنه سيصحب أمه وعمه وزوجته وابنيه في هذا اليوم لزيارة مريم وأوصاها بألا تهمل عمته في غيابهم.

أخبر صباح وناصر وعفاف بما انتوى، وفي اليوم المحدد غادروا البيت مبكرًا بعد تجهيز لوازم زيارة مريم. غادروا في الصباح الباكر إلى المدينة حيث بقوا ساعات ثم عاد فريد إلى القرية رافضًا أن يرجع عمه معه.

وجد سيارة الشاب أمام المصنع مغلقة وزوجته ليست فيه، قصد غرفته فتثبت من شكوك أمه وعمه وعفاف ووقف مذهولًا لا يقوى على شيء!

هرب الشاب بسرعة، وبقيت زوجته تنتظر حكمه عليها بالموت، لكنه بصق عليها وألقى يمين الطلاق قبل أن يسألها ألا يرى وجهها حتى يموت وأن تنسى ابنيها.

بكى فريد كما لم يبك من قبل وبقي في البيت يوشك أن يحرقه لتنمحي منه آثار ما رآه، ثم رجع إلى

منتظريه في المدينة يسبقه خذلانه والطعنات بادية في خطواته وهو يهذي:

- انتهى كل شيء.

واسوه بصمت، إلا صباح، احتضنته ودمعها يبكي خيبة جديدة في حياتنا.

لم يعد فريد إلى القرية، جاءني في بيت مريم حيث نزف تفاصيل ما وقع، وبعدها استأذنني في الذهاب إلى علي يشاطره الوجع، كما اعتادا معظم الوقت.

***

سوسن وصفي في عيني فريد الآن ليست التي طاردت علي واحتملت سنوات لتتزوجه.

هي الآن امرأة ملولة تكاد تعاير ابن عمه بأنها ترعاه. وذلك لا يزعج فريد، فربما تعجزها قواها عن الاستمرار في خدمة شبح رجل محاصر بالخيبة والخمر، ما يخيفه أنه يشم فيها رائحة خيانة، ومن أقدر على تمييزها منه وقد زكمت أنفه وسدت حلقه حد الاختناق في تجربته مع زوجته؟

بقي فريد أيامًا في بيت علي وقنع لنفسه بمجرد البوح المختصر بما فعلته زوجته فكال لها ابن عمه شتائم تكفي نساء الأرض.

زاد يقينه من أن سوسن عافت علي وتضاءل في ناظريها إلى حد أنها لا تراه موجودًا فتخرج وتدخل كما يحلو لها وبهيئة لا تشي بزوجة مأزومة.

خشي فريد أن يكون ما تعرض له أصبح مقياسه في الحكم على النساء، لكنه يحدث نفسه بأنه ليس طفلًا ولا أهوج إلى درجة أن تختلط عليه الأمور وتفسد جريمة زوجته قدرته على الفهم.

ترك علي من غير أن يبثه شيئًا مما شعر به، وعاد إلى بنها حيث يغيب الرجاء في انتشال مريم من آثار قفزها في النيل، وألقى في صدري الذي يضيق مع الوقت جرحًا جديدًا اسمه سوسن وصفي.

خشيت مثله أن يكون جرم زوجته هز ثقته في سوسن، محاولًا صده عن المضي في هذا الطريق، فصمت واستأثرت لنفسي بخوفي مما قد ينتظرنا.

مر وقت قصير قبل أن تطعنا غمزات في بعض الصحف عن علاقة فنانة متزوجة من مسرحي يمر بأزمة، ومخرج كبير. توحشت التفاصيل التي تطل من السطور بإشارة إلى اشتباك الزوج والمخرج قبل فترة في مكان يقصده المثقفون، ثم علاقة الممثلة بجهات ساعدتها على عدم التحقيق في الواقعة، وأمور أخرى تكاد تنطق بأسماء أطراف الموضوع التي يعلمها كل من في الوسط إلا علي.

هل يخبره فريد، أم يكتم عنه الأمر؟ ولو أخفاه ألن يلعننا إذا تفجرت الفضيحة وعرف أننا كنا على حوافها وبقينا نتفرج كالأغراب؟

أخشى أن يقتلها علي عند علمه، لكن من جزم بتورطها في الفضيحة وليس كل ما تقوله الصحافة صحيحًا؟

مضطر أن أترك مريم لفترة، قادني فريد إلى منزل كمال الغرباوي، فرأيت في استقباله ملامح الفضيحة المنتظرة يحاول أن يداريها عنا وهو موقن بحدوثها لا محالة.

حاصرته بالأسئلة فأكد بسكوته واضطرابه ما نخشاه. أطرق فريد يتحسس جرحه الذي يمتد إلى علي، فقررت بحسم أن يطلق سوسن الليلة حتى إذا تأكد للناس بذلك صدق ما يشاع.

ذهبنا في سيارة كمال إلى شقة علي فإذا به غارق في غيابه لا يدري بشيء حوله.

أحطنا به ننظر إليه في شفقة، بل تمنيت أن يطول سكره حتى تنمحي آثار طعنته الجديدة، غير أن سوسن أمعنت في قتله إلى حد عودتها مع المخرج إلى الشقة حيث فوجئا بنا فاستدارا هاربين وفي أعقابهما بقية الفضيحة تجري على ألسنة الجيران كالحريق وتنتقل من مجلس إلى آخر.

***

أشعر بأني الآن مقتلع من جذوري، فحتى البيت محروم منه وكأنه ينضم إلى الأموات، بل إني في بعض الأحيان أوقن أنني ميت، فهل الحياة التي أعيشها الآن متنقلًا بين مصيبة وأخرى وبيت وآخر من غير أن أنعم براحة تختلف كثيرًا عن الموت؟

لا يهم ما أعانيه الآن، إنه يهون أمام ما يجري لعلي ومريم. وفريد أيضًا رغم تظاهره بأنه تجاوز كل شيء.

هربت سوسن والمخرج وبقي علي ممدًا أمامنا في الضياع تحتوي الكنبة ضآلة حجمه وصخبه المخمور وتفصله، مثل القبر، عن الضجة التي يتردد اسمه فيها في كل مكان.

ماذا أقول له حين يفيق ويسأل عنها؟

بعد ساعات قضيتها وفريد نرقب علي، بدأ ينتبه. يفتح عينيه ببطء ليرى من نكون ثم يتلفت في أرجاء الصالة ليعرف أين يكون. أجلس إلى جواره لأضمه إلى صدري بينما وعيه لم يكتمل. يسنده فريد إلى الحمام وأنا أشير له أن يبقي رأسه تحت الماء طويلًا لعل الروح تسري فيه مجددًا.

دخل الحمام بسيجارة وخرج منه بأخرى وسعاله يكاد يخلع قلبه، وفريد ينتظره عند الحوض. كلما هم برفع رأسه من تحت الصنبور أومئ لفريد أن يضغط عليه حتى كاد يخرجه عن طوره.

أعاده إلى الكنبة، أشعل سيجارة ثم أعاد التحديق فينا ورحب بنا مستغربًا وجودنا.

نادى سوسن ولم يأته جواب، حاول التحرك إلى الغرفة يوقظها، فأبلغه فريد أنها ليست موجودة، وزدت عليه أنا بقولي إنها لن تعود ثانية.

لم ينتبه لكلماتي، لذلك لم يتوقف عندها كثيرًا. طلب من فريد أن يشتري طعامًا من السوق، فاقترحت أن نتناول طعامنا في الخارج.

رفض علي اقتراحي في البداية متعللًا بالإرهاق والرغبة في النوم، صنع فريد له القهوة ولما وجد أن سجائره نفدت تركنا لدقائق واشترى له علبتين من محل قريب.

هذه التفاصيل الرتيبة البطيئة تقتلني، كنت أتعجل مغادرة الشقة ومعنا علي، لا أريد أن يرتطم رأسه

بتفاصيل سوسن وهو هنا ولا في العاصمة كلها.

أخيرًا، نترك الشقة، يمشي بيننا طفل يتيم لا يعرف ما ينتظره، وكل العيون في البيت والشارع تعرف.

تتكرر وقفاته طالبًا أن نستريح فأستحث خطاه لنبتعد عن المكان، يكاد فريد يحمله إشفاقًا عليه وهو يتمنع مستغربًا.

استندنا إلى سور حديقة خارج المنطقة ليستريح هو على الأقل لساعات قبل أن يدرك أنه لم يبرح مأساته منذ ولد، ففصولها تتعاقب بلا هوادة.

خشيت رد فعله حين يعلم لماذا لن تعود سوسن وصفي إلى بيته، سيكرر بلا شك ما فعله مع المخرج وكان وقتها مجرد معادٍ له، فماذا لو عرف جريمته الثانية؟ ولا شك أيضًا أنها لن تفلت من غضبه.

المكان الآمن الذي أستطيع فيه السيطرة عليه هو القرية، ففي البيت المكلوم على الدوام يمكن أن نزيد جراحه ونستوعب التبعات.

اشترينا سندوتشات على عجل وأقنعناه بتناول أحدها حتى يمكن له مواصلة الرحلة إلى القرية، التي فوجئ بها حين أحطنا به في سيارة الأجرة.

بصوت مستسلم، خشي أن يثير غيابه قلق سوسن، فأدرت وجهي وأنا أخفي دمعة وأحاول طمأنته:

- ما تخافش، عمرها ما هتقلق عليك.

***

شاعت قصة سوسن والمخرج في كل مكان، قابلها بعضهم بالتشفي في علي الذي لم ينحن بسهولة أمامهم، وغذى بها آخرون جلسات النميمة وسهرات المثقفين والفنانين وخاضوا في تفاصيل معظمها لم تتضمنه، وتسلل بعضها إلى الصحافة.

وحده كمال الغرباوي الذي يعرف الحقيقة كاملة ولم يخض في وقائعها أبدًا رغم مضايقة البعض له بتكرار أنه كان شاهدًا على عقد زواج علي وسوسن.

الإشارات التي كانت في الصحف بدأت تعود تختلط فيها الأحرف الأولى والتفاصيل المدعاة بخيال الصحفيين.

أقمنا جدارًا طويلًا بين القصة كاملة وعلي الذي جعل البيت كله مستشفى يرعاه.

تناوبت صباح وعفاف على إطعامه، وجاء الأستاذ مصطفى رشدي بطبيب بانت على ملامحه نتيجة الفحص:

- في حاجة إلى رعاية مستمرة واستمرار في تناول الدواء. جسمه مليء بمشاكل صحية أخطرها الآن في الصدر والكبد.

سيستريح الكبد وهو بعيد عن الخمور، إنما الصدر لن ينجو من سجائره التي لا يكف عن طلبها من فريد.

ساعدناه مرات على النوم على «قش» سطح البيت منذ الصباح حتى الظهر لينعم جسمه بالشمس، وأعددنا له متكأ في «الجرن» لنحرره من الاستسلام للنوم الطويل في الفراش.

يتحسن ببطء شديد، يريحه البقاء في الجرن، مسرحه الأول ومهد أحلامه، لكن فريد طاوعه واشتري له خمرًا. غضبت بعد أن اكتشفت صباح الزجاجة تحت سريره، ورجاني فريد ألا أحرمه من متعه ولو أضرت به.

نسينا أمينة في غمرة ذلك كله، وشجعنا انشراح صدر علي بجلسة الجرن أن نخرجها إلى جواره يومًا وليتنا ما فعلنا. لم يكن علي عارفًا بتطور حالتها أو تدهورها بمعنى أدق، حين احتضنته صدمته وهي تهتف منشرحة:

- حمد الله ع السلامة يا مسعد، طولت الغيبة، بركة إنك بخير يا خويا.

- مسعد مين يا عمتي، سلامة الشوف!

منعه فريد من الاسترسال واختصر لها حالتها:

- خلاص تقريبًا مش فاكرة أي حاجة.

استنكر علي تركنا لها على هذه الحالة وأخذ يقسم أدوارنا في علاجها وكيف نتكاتف لتذكيرها بكل ما مرت به، ثم تذكر أن سوسن تعرف طبيبة متخصصة في هذه الحالات وأنه سيصطحب عمته معه لتعرضها عليها فتضع لها خطة علاجية.

حرت في أمر هذه العائلة، من يعالج من فيها، بل من الأولى بالعلاج: أمينة التي أفقدها الانزواء في غرفتها ذاكرتها أم علي الذي يترنح بعد هزائمه المتكررة بسبب انطلاقه في الحياة؟ وماذا تفعل التي اختارت طريقًا وسطًا وأيضًا لم تسلم: مريم؟

آه، نسيت مريم، همست في أذن فريد بألا يبوح لعلي بما جرى لها وأوصيته به لأني سأسافر إلى بنها.

قابلني حسن بما لم أتوقعه.

- مريم اتجننت يا حاج.

أصبحت تهذي ثم تهيج طالبة تركها تذهب إلى علي لأنه ينتظرها في شقته. جمعت ملابسها استعدادًا للسفر فأخفاها عنها، وكان ينام نهارًا وأنا أرعاها حتى يقوى على السهر بجانبها خوفًا من أن تغافلنا وتهرب.

لولا أنها في هذه الحالة لطلقها حسن لتكرارها رغبتها في الذهاب إلى علي، لكنه يرأف بها واستدعى أكثر من طبيب لمعاينة حالتها وتفسير ما حل بها رغم أن جراحها تندمل.

نصح أحدهم بعرضها على طبيب أمراض عقلية فطالبه حسن بخفض صوته لئلا تسمع عائلته ذلك

ونظر إليّ مستنجدًا، فعجزت عن الرد.

***

قبل اكتمال أسبوع على وجودي في بنها، جاءني فريد هلعًا. لم يصبر على الكتمان أمام علي المصر على أن يسافر بعمته إلى القاهرة لتعرضها سوسن على الطبيبة، وحكى له كل ما أخفينا عنه.

هاج علي وكسر كل ما طالته يداه وصمم على السفر فمنعه فريد خوفًا عليه ثم تحجج بأنه سيصحبه ويجب انتظار عودتي لأرعى أمينة وأدير شؤون البيت، فتظاهر بالموافقة.

في الصباح لم يجد علي في البيت فأدرك أنه سافر إلى القاهرة وتمنى ألا يورط نفسه في مشكلة جديدة وقرر اللحاق به.

اهتدى فريد إلى قرار المرور عليّ في بنها قبل الذهاب إلى القاهرة، خاصة أنه يحار في تحديد أي وجهة سيقصدها علي.

أين لي بطبيب أمراض عقلية الآن؟

أنا الآن على حافة الجنون ومطلوب مني أن ألم شتات هذه العائلة.

أحس فريد بورطتي حين عرف بما استجد على مريم فقرر أن يذهب منفردًا ونصحته بأن يتوجه إلى كمال الغرباوي، فهو الأقدر على مساعدته.

أسقط في يد كمال بعد أن حكى له فريد ما غاب عنه وعرف لماذ لم يجد علي في الشقة حين ذهب للاطمئنان عليه بعد انتشار قصة سوسن والمخرج ولماذا لم تجبه حين سألها عنه في المعهد، فتخيل أنها تتجنبه حتى لا يحدثها في الموضوع أو يلومها إكرامًا لعلي.

وقفت كل الاحتمالات شياطين أمام كمال وسردها لفريد ليقاسمه الفزع من الآتي. كل شيء ممكن إلا أن يؤذي علي نفسه.

قرر كمال أن يتصل بسوسن وصديقها المخرج محذرًا من انتقام علي، لكنه كان أسبق، فقبل أن يرفع السماعة رن الهاتف ليخبره أحد مساعديه بأن علي كمن لها أمام شقتها وبمجرد نزولها طوق عنقها بيديه من الخلف بشدة قبل أن يهرب حين سارع المارة لإنقاذها.

سوسن التي حمت علي من سطوة الأمن في ألمانيا ومصر؛ لأنها تحبه، ذهبت هذه المرة إلى قسم الشرطة تناشد الضباط حمايتها منه بالقبض عليه.

الهارب لم يكن علي وحده، فالمخرج الكبير خاف من انتقامه وطلب من الشرطة حمايته وأسرته في منزله الذي لن يبرحه إلى أي مكان.

دار علي في الشوارع يترنح كالذبيح، ولما أعياه التعب رجع إلى شقته حيث وجد رجال الأمن في انتظاره وفي أيديهم كل ما سجلته سوسن في ألمانيا ونقلته معها إلى الشقة بعد الزواج.

كان الصحفيون يلتقطون تفاصيل كل تطور وينقلونه إلى أصدقائهم من الفنانين والمثقفين الذين

تسمروا بجوار هواتفهم في المسارح ومواقع التصوير والمقاهي والبيوت في انتظار كل جديد.

استقر علي في المستشفى تحرس الشرطة غيبوبته وتسرب للممرضات والأطباء حكاية المخرج الذي شرع في قتل زوجته؛ لأنها خانته مع آخر.

مرة أخرى، ينام علي وتستيقظ فضيحته وكأننا لم نبعده إلى القرية تجنبًا لذلك.

راهن فريد بعد تجاوزه أزمة زوجته بواقعيته وصلابته التي يداري بها سوءات حياتنا، على أن علي سيلعن سوسن ثم يطلقها وينساها، خاصة أنه لم يحبها يومًا، ويكفيها الفضيحة التي تطاردها في كل مكان.

خاب رهان فريد، فهو رغم أن ابن عمه أقرب إنسان إليه، لم ينفذ إلى عمق جراحه المتوالية وتتوسطها سامية التي أخرجها الضباط في المعتقل من مرقدها وضغطوا عليه بها، فاعتبر ذلك جزءًا من مؤامرة كبرى عليه تتعقب خطاه حيثما ذهب.

طلبني فريد في هاتف منزل جيران حسن وطلب أن ألحق به في المستشفى حيث يرقد علي. أدركت أن الجرح يتسع قبل أن أعرف بالتفاصيل التي قابلني فريد وكمال بها في المستشفى.

يفيق علي ويغيب عن الوعي، إن لم يكن بقوة ما يسكن جسده من ألم، فبقسوة صرخات روحه التي تتوعد المتآمرين عليه بمحاكمة وشيكة وتلعن كل من خذلوه، فيسكته الأطباء بالحقن.

تشغلني روح علي وأنتظر عودتها، ويسأل كمال عن أحوال جسده فيجيبه الأطباء بمشاكل في الصدر والكبد.

***

علي في المستشفى يدعو له أعداؤه معنا بالشفاء ليسترد جسده فيقدر على مواجهة صور التنكيل به، بينما حسن في بنها يحاول الإفلات من توصية الأطباء بعرض مريم على طبيب أمراض عقلية.

أقنعت فريد بأن يزورها لأني سأبقى بجوار علي، بينما تحمل ناصر، بعد أن شاعت قصة علي في القرية، مسؤولية البيت والعناية بأمينة.

جاءني الأستاذ مصطفى رشدي والسيد صابر يزوران علي، فبكى أستاذه عنفوانًا وأفكارًا قتلها الجموح.

اصطحبا معهما أولاد حسن عبد الجواد الذين أصروا على زيارة علي صديق والدهما الراحل وداعمهما قبل أن ينشغل بمآسيه، ومعهم عدد من شباب القرية وأصدقائه.

قبل أن يغادروا، وضع كثيرون منهم أموالًا في يدي وجيبي لا أعرف مقدارها عونًا لنا في مواجهة الأزمة.

وبينما يتنقل فريد بين القاهرة وبنها، يفلح الأطباء في منح علي بعض العافية الكفيلة بصموده أمام المحققين من الشرطة والنيابة.

لم ينكر ما فعله، بل توعد المتآمرين عليه بالمزيد من الضربات ورفض تسميتهم.

وأشهد المحققين على أنه يطلق سوسن وصفي الآن ليكفوا عن وصفها في أسئلتهم بزوجته.

انسحب معظم حرص الأطباء على حياة علي وأصبحت تفاصيل علاجه روتينية ليحل محلها تشديد أمني يخشى هروبًا لن يفكر فيه أبدًا.

أقنع فريد زوج مريم بأن يرضخ لطلب عرضها على طبيب أمراض عقلية حتى تستريح ويستريح هو ويتفرغ لأعماله، فلا يمكن لحياتهما أن تستمر بهذه الوتيرة.

جاءا بها عند المستشفى الذي يعالج به علي فصعد حسن لزيارته وبقيتُ وفريد ومريم التي لا تعلم أن بطل مأساتها يرقد على بعد خطوات منها.

ذهبت معهم إلى الطبيب الذي قرر أن نودعها مستشفى الأمراض العقلية؛ لأن علاجها سيطول.

تبادلنا النظرات لعل أينا يهتدي إلى فكرة تنقذنا، فحسم الطبيب الأمر بأنه لا حل غير ذلك وشرع في كتابة تقرير نحمله إلى المستشفى حيث أودعناها وهي غير معنية بما يجري.

عاد حسن إلى بنها بتعليمات زيارتها أسبوعيًّا، بينما حملتني دموعي وصدمة فريد إلى علي المتأهب للمحاكمة.

نقل من المستشفى إلى السجن وهو يقول إن فصول المؤامرة تكتمل ويهدد كل من سيذكره بأن أمه هربت بالقتل.

لو مضى الأمر كما نشتهي لكان علي ومريم الآن في بيت واحد بالقاهرة يحتضن الزائرين من القرية كل فترة وربما كان الآن مخرجًا وممثلًا لا يدمن محاربة طواحين الهواء!

أهرب وفريد إلى القرية تاركين علي ومريم في سجنيهما، الأول تحيطه جراحه والخيانات ومكبرات الفضيحة، والثانية في صمتها المطبق وعجزها الغادر، أو بالأحرى موتها غير الرسمي.

أهرب إلى جذر المأساة ومنبع مائها: بيتنا، حيث أمينة فرع آخر مكسور سقطت ذاكرته ومعها علي ومريم وكلهم يسحبونني، رغم عجزهم، إلى قاع سحيق.

ماذا لو منحتنا الأقدار حق ترتيب الأحداث، ولو مؤقتًا، لنرى أيهما أفضل: قبولها بهذا الترتيب المؤقت، أم استمرارها بأوجه المجهول التي تطل علينا كل فترة وتغير ملامح حياتنا؟

ماذا لو لم يمت مسعد وتهرب سامية؟ هل كان ذلك يبدل مسار علي ومصيره وينقل أمينة، ككل فتيات القرية، إلى بيت زوج يستحق طيبتها؟

وماذا لو لم يمت صلاح؟ أكان فريد يكمل تعليمه ويعيش على ضفة أخرى من الحياة؟

ماذا لو لم يمت مصطفى ابن الحاج سعد ولم يقرأ الشيخ حامد في مأتمه ويلهمنا اسم مريم؟ هل لو حملت اسمًا آخر لتغير مصيرها؟

با للمفارقة، إن الأموات هم من يكتبون فصول حياتنا!

***

تحتشد القاعة قبل أن تبدأ محاكمة علي، تختلط وجوه معروفة من المثقفين والفنانين بأخرى متطفلة وعدسات الصحافة المصرية والأجنبية تتأهب.

بمجرد دخولي القاعة مستندًا إلى فريد أقبلت عليه فتاة أجنبية تسلم عليه بحرارة وينقل مترجم النقاش الدائر بينهما. التفت إليّ قائلًا إنها سيليرا صديقة علي الألمانية التي حضرت لدعمه، نظر إلى حقيبتها التي تبدو في أحد وجهيها كسجادة يدوية صغيرة، ثم إلي فشرحت ما كنت أجهله:

- نعم، هي هدية علي التي لا تفارقني.

زفر فريد وهو يقول لي إن مريم هي التي صنعت هذه السجادة، وصمتنا.

يظهر علي في القفص، فقد ما منحه أطباء المستشفى من عافية قبل السجن، لكنه أكد لنا أن معاملة الضباط فيه مختلفة هذه المرة، فهم يعرفون أن كثيرين في مصر وخارجها يتابعون القضية، كما أنه ليس في عنفوانه القديم.

يسعده وجود سيليرا الوجه المعروف لمن تابعوا سجنه قبل ذلك وعرفوا ما فعلته من أجله، تقف إلى جوار القفص تشد من أزره قبل أن تعود إلى مقعدها مع بداية الجلسة.

استهلكتنا الجلسات ونستغلها لزيارة مريم التي لا يطرأ على حالتها جديد، بينما صحة علي تتراجع من جلسة لأخرى حتى انتهى ملف المحاكمة بسجنه ثلاث سنوات ، إذ لم تفلح محاولات فريق الدفاع عنه في تبرئته.

استكان علي في سجنه، وحمته إثارة قضيته من وقت لآخر في ألمانيا وبعض الدول الأوروبية بفضل سيليرا من أي أذى، فبدأ بعد الشهور الأولى يمد فريد عند زيارته بأعمال مسرحية تنشرها صحيفة الحزب رغم معارضة الفريق المناوئ لعلي وسعيه لوقف النشر بزعم أنه تأييد لموقف مجرم مدان.

ردت الصحيفة على التهديدات المبطنة التي تصلها بالإشارة إلى نيتها فتح تأثير العلاقات الخاصة على الوسط الفني، فزاد ذلك الأمر سوءًا وسرب الأمن كل التسجيلات التي وجدها في منزل علي ولم يخرجها كاملة اكتفاء بما سيناله من عقوبة بعد محاولة قتل سوسن وصفي.

وجد المتربصون بعلي في التسريبات صيدهم، ووزعوها على الصحف الحكومية لينفرد كل منها بجزء، لكن جمعها التحريض على محاكمة علي أمام محاكم أمن الدولة.

بدأت الدورة من جديد، ومرة أخرى بسبب سوسن التي يحاول أن ينسى ما فعلت به وينغمس في الكتابة بالسجن، لكنها تقفز له في كل خطوة.

ورغم تدهور صحته ونقله أكثر من مرة إلى مستشفى السجن، تغيرت معاملة الضباط بعد قضية أمن الدولة وأصبحت عصاهم الغليظة لا تعبأ بالاهتمام الخارجي بقضية علي الذي لم يعد في الصحافة الحكومية مجرد مجرم شرع -مثل آلاف

غيره- في قتل شخص، بل انضم إلى خانة القلة التي أنفقت الدولة عليها لتربيها وتعلمها فانقلبت تعض يدها.

تكرر نقل علي للمستشفى، لكن كان الأمر أشبه بإجراء روتيني يبرئ ساحة السجن، حتى الأطباء بدؤوا مرغمين في إهمال حالته وصرف العلاج.

حذر بعضهم من تدهور الحالة إلى حد يقتل علي في السجن، وكابر الأمن لكنه أصبح بعد فترة أمام سجين موشك على الموت فسعوا في عفو عنه هللت له الصحف الحكومية.

***

مرة أخرى، يعود علي إلى القرية يستمد منها بقية من حياة. معظم وقته يقضيه في «الجرن» حيث تسعفه ذكريات طفولته ببعض النشاط فيكتب لكنه لا يكمل مشروعًا.

هي مجرد خطط يبدأ في كل منها ثم يهملها أو يعجز عن استكمالها، فيجمعها فريد ليضمها إلى حقيبة أوراق ابن عمه التي يحتفظ بها.

يلجأ علي إلى الرسم لتتجاور في أوراقه سوسن وصديقها وضباط السجن والأطباء المتخاذلون والفنانون والمثقفون الذين يصفهم بالمتآمرين، يحيطهم جميعًا على الورق بسياج ثم يحرقهم على مهل بسيجارته وينام في الهواء الطلق.

يسأل إن كنا بحثنا لأمينة عن طبيب ينعش ذاكرتها فيعلم أننا لم نفعل حين تخرج إليه مهللة كالأطفال:

- مسعد رجع، مسعد رجع.

يحتضنها ثم يسب فريد لأنه مقصر في حق عمتهما.

يتحلق حوله الجميع فتبين في عينيه فرحة نادرة، يتقرب، كمن يكتشف أن له أهلًا، من أبناء ناصر وفريد ويأنس لحديث صباح، ويصبر على تفاصيل عفاف التي تتعمد شغله بحكايات لا رابط بينها، من غير إشارة إلى مريم كما نبهنا عليها.

في لحظة يأس أو إحساس بالعبثية، سأل علي فريد إن كان شيء في هذا البلد يستحق المعاناة، وماذا جنى من تتبع أحلامه وأفكاره في وطن يجهض الأحلام والأفكار ويضع أصحابها على حافة الجنون.

رأى فريد في اللحظة النادرة التي يميل علي فيها إلى اليأس منجاة له أو خاتمة تكفيه مشقة الآتي، حتى لو كان المقابل إحساسًا بالخذلان يستمر معه بقية حياته.

- يكفيك شرف المحاولة.

- شرف؟ أي شرف؟ الذي داسته أمي حين هربت، أم الذي داسته سوسن، أم الذي سجنه النظام بمعاونة الخونة والمتآمرين ووضع عصاه في مؤخرته؟

- سيزول ذلك كله، لست أول المنهزمين ولا آخرهم، ستنصفك الأيام.

- أيام هذا البلد يا فريد لا تتذكر أحدًا، هذا بلد ذاكرته مثقوبة كذاكرة عمتك أمينة يستوي فيها الخبيث والطيب، وحين ترى أملًا في التداوي يقتله أمثال سوسن وصديقها.

ماذا لو فقدت ذاكرتك أنت أيضًا يا ولدي لتنسانا جميعًا وتتحرر من عبء سنواتك الماضية ولا تنشغل بالمقبل منها؟

لا أنكر أن ذلك صورة من صور الموت، ليكن، مت هنا في «الجرن» كما أزهرت فيه، عد طفلًا أقصى مشكلاته ضرب زميل في المدرسة أو مضايقة طفلة.

ارجع شابًّا يخطئ مع أرملة حسن عبد الجواد ونسترك، اكتف بالثانوية العامة وسأسلط ناصر ليقطع الطريق على أحلامك كما فعل مع فريد.

قدم أوراقك في كلية الآداب واظفر بشهادة تبقيك معلمًا في إحدى المدارس وتزوج ابنة عمك وعنفها أو حتى اضربها حين يحتد مزاجك، وسنصلح بينكما.

غاية جهدي يا ولدي أن أصلح بينك وبين ابنة عمك كزوجين، أما خلافك مع وطن كامل فلا أقدر عليه؛ لأنه وطن فاجر في خصومته ولا يقيم لمن يحبه وزنًا.

لا جدوى الآن من ذلك كله، مشينا في الطريق وسنكمله.

قطع حسن الصراع الدائر في رؤوسنا بزيارته وملامح وجهه لا تبشر بخير. قصدنا غرفتي حتى لا يعرف علي بحالة مريم التي ملها زوجها وها هو يأتيني بقرار طلاقها لأن جهده نفد وأعماله توقفت وعائلته تضغط عليه للخلاص من هذا الوضع.

أنهى حسن العلاقة، كما بدأها، كريمًا وأخرج ظرفًا قال إنه حق مريم لديه. وغادر.

***

يستطيع علي الآن المشي في أرجاء القرية والسلام على أهلها، يحميه فريد من تفاهات بعض الشامتين أو عتاب الذين يسألونه ماذا جنى من معاركه.

أسعدته زيارات كمال الغرباوي المتكررة، لكنه في آخر زيارة لم يأت وحده. ها هي سيليرا بكل حيويتها تحيط علي بحبها في «الجرن» الذي يكاد ينطق بالألمانية من كثرة ما تحدثا.

أقنعته سيليرا بألا يطيل الهروب وألا يدمن الإحساس بالهزيمة، انتصرت هي على صوت فريد الذي رجاه البقاء وعلى أمنيتي أن يقنع بـ»الجرن» مسرحًا لا يخونه ولا يطعنه.

سافر علي، وبعد أيام أرسل خطابًا إلى فريد يخبره أنه مسافر إلى ألمانيا مع سيليرا.

بعد شهور، عاد بها إلى القاهرة وهي زوجته يعرض على كمال الغرباوي نص مسرحيته الجديدة «أمك اسمها سوسن» ويطالبه بتقديمها على مسرحه.

قرأ كمال النص وحذره من عودته إلى الصدام؛ لأن العواقب وخيمة، فاستخف به.

لم يقبل مخرج واحد من الذين توسم علي فيهم خيرًا الاقتراب من النص، بل رجاه كل منه ألا يخبر أحدًا أنه عرضه عليه.

نصحه بعضهم بأن يعود إلى ألمانيا مع زوجته ويرتبط بوظيفة هناك ليستريح، فاستكثر الراحة

على نفسه.

كان النص عن زعيم دولة متخيلة أوصلته سوسن -أمه الفاتنة- إلى السلطة بتنقلها في فراش كبار مسؤوليها وأعيانها. رغبتهم فيها نقلت الابن من منصب إلى آخر حتى عهدوا إليه بالحكم مطمئنين إلى أن كل الأمور في أيديهم، أو بالأحرى بين فخذي أمه.

وكلما حاول الابن التمرد على سطوة أحد من كبار الدولة سخر منه بجملة واحدة:

- «أمك اسمها سوسن».

لم ينج أحد من المحاكمة في نص علي منصور: الزعيم وبطانته والقائمون على شؤون الفن والثقافة والتعليم والأمن، وينتهي بصوت يأتي من كواليس المسرح يهتف فيهم وهم مجتمعون «كلكم أبناء سوسن».

قضى كمال الغرباوي ساعات متفرقة في شقة علي يحذره من عواقب لا يتصورها، ينصحه بحرق هذا العمل الذي لا شك وصلت تفاصيله إلى الأمن من أحد الذين عرضه عليهم.

ضاع جهد كمال الغرباوي سدى، حتى سيليرا اقترحت أن يعودا إلى ألمانيا ويقدم النص هناك فصدها ساخرًا:

- مفيش واحدة في ألمانيا اسمها سوسن.

بإيعاز من كمال، أتت به إلى القرية تستعين بفريد في إقناعه بحرق النص وعدم الحديث عنه كثيرًا، فحاول ذلك وهو يعلم أنه لن يتراجع.

عادا إلى القاهرة ولا شيء يشغل علي غير النص، تفجع سيليرا حين يصف ما كتبه فيه بوصيته وتبكي بين قدميه ليبدأ معها حياة جديدة هنا أو في ألمانيا، فيشيح بوجهه عنها.

انهارت حين اقتحم الأمن الشقة ليلًا وفتش كل شبر فيها ولم يجد ما يبحث عنه، اقتادوه إلى شقة كمال لعله أخفاه عنده وخاب ظنهم فاحتجزوا علي أيامًا عاد بعدها أكثر إصرارًا على أن يصرخ في وجه كل شخص:

-»أمك اسمها سوسن».

***

حضر علي إلى القرية بعد الإفراج عنه أسبوعًا قضى معظمه مع فريد يحاول إقناعه بأن يترك النص مدفونًا في «الجرن» بعد أن بانت له مقدمات التربص به.

لجأ فريد إلى الأستاذ مصطفى رشدي ليساعده ولم ينفع ذلك، تدخلت ولم يسمع لي علي الذي طلب من فريد أن يحضر عددًا من أصدقائهما في المدينة الذين اشتركوا معه قبل ذلك في أنشطة كثيرة، بل قدموا معه أمسية في «الجرن» تسببت له في مشكلة مع العمدة.

هذه المرة، اختارغرفة أمينة مسرحًا لما ينتوي فعله، فبعد أن نسخ وفريد النص مرات وزع الأوراق على أصدقائهما وجهز تسجيلًا.

ما إن رأت أمينة التسجيل وعناية علي به حتى سألته فرحة:

- مسعد بعت شريط يا ولد؟

قادها برفق إلى عفاف تعتني بها، بينا أغلق باب غرفتها عليه مع فريد وأصدقائه وبدؤوا في تسجيل النص. حين علا صوتهم بشتائم وألفاظ غريبة توهمت أن خلافًا دب بينهم، لكن ضحكاتهم الفاصلة بين ما يقولون بددت وهمي.

بعد ساعة خرجوا من الغرفة ووجه علي ينطق بنصر قريب لم يستطع معه البقاء طويلًا فأصر على السفر وفريد يوصيه بنفسه وهو يعلم أن الأمور لن تمضي بسلام.

بعدها بأيام مرت دون أن يقع شيء يخشاه فريد، اصطحبته لزيارة مريم التي توقف حسن عن زيارتها بعد أن أغلق صفحتها.

لمت نفسي لأنني لم أخبر علي بموضوع مريم، فهو في وضع أحسن الآن ويحتمل أن نشركه في أمرها لعله يفيد في التعامل معه.

قررت أن نعرج عليه بعد زيارة مريم، لكننا فوجئنا بالشقة موصدة. لم أفهم سببًا لتجنب الجيران مجرد الكلام معنا، سألت بعض أصحاب المحال الذين أعرفهم في الشارع، فلم نلقَ منهم أزيد مما لقينا من الجيران.

بث فريد الخوف في نفسي من أن مكروهًا وقع لعلي، فماذا عن زوجته؟ ولماذ يرفض الجيران الحديث معنا؟

مشينا بخطى حائرة وأفكار مضطربة حتى اقترح فريد أن نقصد كمال الغرباوي. استقبلنا الرجل على باب البيت باشًا كعادته، رغم قلق لمحته في عينيه. سألناه عن علي فأطرق فأسند فريد رأسه إلى الحائط وكأن ما يخشاه وقع.

لم أكن أعرف التفاصيل وأدركت أن فريد أخفى شيئًا عني.

أجلت عتابه وربطت سريعًا بين زيارة علي للقرية ودعوته أصدقاءهما القدامى وبين ما استجد.

تابعت حوارهما في ذهول واكتملت لدي قصة النص الذي سجله علي وفريد وأصدقاؤهما في غرفة أمينة، وهو ما لم يكن كمال يعرفه.

حين عاد علي إلى القاهرة قضى يومين في شقته ينسخ ما يستطيع من الشريط ثم تخفى في زي فلاحي يحتفظ به منذ غادر القرية للدراسة في القاهرة ووضع النسخ في أظرف على أبواب بعض المسارح والمقاهي التي يقصدها الفنانون والمثقفون.

نسخ علي توالدت إما إعجابًا بالنص أو رغبة من البعض في توريطه مجددًا، وأصبحت كالعفريت يتنقل في أرجاء القاهرة، يضبطه الأمن في مكان فيظهر في غيره، بل انتقل إلى بعض المحافظات، وصار اسم المسرحية «أمك اسمها سوسن» شتيمة يتداولها البعض.

أما علي نفسه فلا أحد قادر على تحديد مكانه وزوجته بعد أن غادر الشقة وتسبب في تفتيش الأمن

لبعض شقق جيرانه من غير أن يعرفوا السبب حتى شاع أمر الشريط.

***

خرجنا من عند كمال يعتصرنا الخوف على علي، هذه المرة ليست كسابقاتها، فصرخته التي سجلها وأصدقاؤه أقوى من أي تنظيم واجهه الأمن. هو السابق إلى الصفع هذه المرة وآلاف يقتفون أثره ليردوا له الصفعة، أو يسكتوه للأبد.

بعد أمتار من بيت كمال استوقفتنا سيارة نقلتنا إلى مكان لا نعلمه معصوبي الأعين. وبعد دقائق شعرنا بأيدٍ ثقيلة تدفعنا إلى مكان بارد، انتظرنا على حالنا دقائق أخرى قبل أن يرفعوا العصابتين ويدفعونا إلى غرفة صغيرة بينما الضابط الجالس خلف المكتب يهاتف أحدًا ويأمره بوقف البحث في القرية لأن جده وابن عمه مقبوض عليهما.

أدركنا أنهم فتشوا بيتنا وبيت كل من توقعوا أن يقصده علي في القرية والقاهرة وأنهم يراهنون علينا الآن في خطة الوصول إليه.

كل أسئلة المحققين قابلتها بالنفي، فلا علم لي بالنص ولا مكان تسجيله ولا مكان وجود علي.

فعل فريد مثلي، بل فاجأ المحقق بظنه أن جهة ما في البلد أخفت علي، وبالتالي فالسؤال عن مكانه من حق عائلته ولن تسكت عنه.

فشل المحققون في قنص معلومة منا على مدار يومين من الاحتجاز والتحقيق، وسهل وجودنا في القاهرة وذهابنا إلى شقة علي للسؤال عنه -وهو ما كان الأمن يرصده- مهمة الإفراج عنا.

خرجنا من مكان التحقيق بلا خطة ولا هدف، صوت علي يظهر لنا في أماكن متفرقة، لكن من أجهزة تدير شريطه.

علمنا من الصحف أن سيليرا سافرت إلى ألمانيا، فزاد قلقي.

علي الآن وحده يواجه المجهول، ماذا لو بقيت بجانبه تؤجل النيل منه؟

فريد مقتنع بأن الموجة أعلى من التصور هذه المرة ولن يفرق في شيء بقاء سيليرا من سفرها، فالسهم نافذ لا ريب.

نعود إلى كمال الغرباوي، هو مدار الأحداث بالنسبة لنا في هذه الفترة، لا أحد غيره نثق فيه فنلجأ إليه. يفرط الرجل في الحفاوة بنا بعد يومي الاحتجاز الذي لم يكن مصدر عنائنا، فكل شيء يسير بشرط أن نطمئن على علي.

خشينا أن نكون أثقلنا على كمال الغرباوي أو نعطله عن ارتباطاته فقررنا أن نعود إلى القرية لنطمئن على أهل البيت، فلا شك روعهم تفتيش الأمن له.

لفت نظر فريد قبل أن نتركه أن كمال وحده في المنزل، فلا زوجة ولا أبناء ولا معاونين، فارتبك وشعرت أنه يعرف عن علي شيئًا ولا يود أن نعرفه.

استحلفته أن يريح رجلًا مثلي مثقلًا بنوائب تدمي قلبه ولا تترك له فرصة للراحة.

تردد كمال وشرد فترة كأنه ممزق بين أمرين وأنا أكرر رجائي أن يكمل جميله معنا الذي لن ننساه أبدًا. أشفق عليّ ونظر إلى فريد كأنه ينتظر منه استعطافًا هو الآخر.

- هقولك يا حاج، بس بأحلفك أنا كمان إن الموضوع يفضل سر بينا.

سحبت نفسي إلى مقدمة الكرسي مقتربًا منه وأقسمت إنني سأحفظ سره، فطلب أن نتبعه إلى الدور الثاني من البيت، ففعلنا.

فتح غرفة، فإذا علي ممعن في الغياب بعد أن أعياه الشراب.

بادرت كمال بقبلة شاكرة عنايته، رغم خطورة ذلك، بعلي الذي أعرف أن شعوره بالانتصار أسكره أكثر من الخمر.

تأكدت أن علي يتنفس وحاولت أن أوصي كمال به فلم يدعني فريد أكمل وأعاد شكره مؤكدًا أنه مؤتمن عليه.

عدت أنظر إلى علي وكلي أسى لما وصل إليه، أحكمت الغطاء على جسده مثلما كنت أفعل وهو صغير واكتفى فريد بكلمة واحدة:

- أنتظرك هناك، «الجرن» يفتقدك.

***

احتملت في القرية كل نظرات الفضول التي تتلهف لمعرفة شيء. علي تلوكه الألسنة وتنشغل به المجالس. ما إن وصلت البيت، استقبلني الجميع بأسئلة عما جرى لي ولعلي؛ طمأنتهم على نفسي وأقسمت إني لا أعرف شيئًا عنه.

دخلت غرفة أمينة، لا لأعرف أحوالها؛ فهي ثابتة، لكن لأتعذب ببقايا علي كما كانت مريم تفعل في غيابه.

استعدت حياته القصيرة المثقلة بما يكفي عمرين، هو وأبوه الآن في عمر رجل لم يدركه الموت، لكنهما ابتلياني باللوعة، أحدهما انهالت عليه أجولة الحبوب في العراق فعاقبته على توثبه وعنفوانه، والثاني تزاحمت الأفكار والأحلام في رأسه حتى حطمته.

مسعد أورثنا صدمة مزقت أمينة وأضاعت سامية، وعلي لم يهب مريم من جنون أفكاره إلا جنونًا حقيقيًّا، وأنا وسط ذلك كله أجاهد للحفاظ على عقلي لأحمي هذا البيت ومن فيه.

لن أستسلم لبقايا علي في غرفة أمينة، فهو ماضيه الذي صنع حاضره البائس المكوم الآن في بيت كمال الغرباوي ولا يعلم أحد ماذا تخبئ الأيام له.

سارعت إلى المقابر أعاتب أم صلاح التي تعجلت في تركي، ومسعد الذي كان يسد بوجوده أبواب الجحيم، أما صلاح فيعوضه فريد.

لا أملك شجاعة البوح إلا للموتى، لن يفضحوا انكساري، لكنهم أيضًا لن يمسحوا دمعي ولو روى صبارهم، فلماذا أثقل عليهم؟!

عدت إلى البيت وأنا نادم على ترك علي بمفرده وقد لمحت في عين الضباط خلال التحقيق واحتجازي أنا وفريد أن الصفعة التي ردها علي للضابط عند الجثة الملقاة بجوار شاطئ البحر تعملقت وأصبحت كفًّا بحجم الوطن سيضغط على هزال علي حتى يسكته للأبد.

سألني فريد أن أستريح فوجودنا بجوار علي لن يفيده وسيصعب مهمة كمال الغرباوي في حمايته مراهنًا بمشواره الفني ومصالحه.

أويت إلى سريري فلم أطق البقاء فيه، لجأت إلى «الجرن» وتبعتني أمينة تسأل أين مسعد الذي كان ينام هنا قبل سنة، ولماذا تركته يسافر؟

لم تنتظر إجابة وغابت في غرفتها دقائق وعادت بجهاز التسجيل وهي تنادي كل من في البيت لنسجل شريطًا لمسعد.

وجمت صباح وعفاف، فأشار لهما فريد بأن تجارياها، وضحك الصغار وسارعوا بالتحلق حول الجهاز، بينما أمينة تزغرد وتصر على أن تبدأ هي الكلام أولًا رغم أن أحدًا لم ينازعها، خاصة أنه لا شريط في الجهاز.

تنحت قبل أن تغني:

يا غالي عليّ يا حبيبي يا خويا

يا أجمل هدية من أمي وأبويا

أعادت المقطعين مرات والصغار يتضاحكون وأنا أرجوها بدموعي أن تكتفي بما سجلته، فزغردت وانسحبت إلى غرفتها.

قبل أن تبلغ غرفتها، التقطت حجرًا وهشمت الجهاز فأنهضني فريد ورافقني حتى فراشي يرجوني أن أستريح.

***

قاوم فريد رغبته في زيارة علي حفاظًا عليه وعلى كمال، وبدأ يهرب من قلقه إلى مكتب الصحيفة والحزب مستعينًا بما تبقى لديه من صلابة في مواجهة الأسئلة التي تطارده عن علي وما فعله ومن شاركه في تسجيل المسرحية.

هرب من محاولة البعض في الحزب فتح شهيته للكلام بامتداح ما فعله علي والتعاطف مع العائلة. أقسم أحدهم إن الألمانية -يقصد سيليرا- تأويه في سفارة بلادها، وجادله آخر بأنها ساعدته على التخفي والهرب إلى ألمانيا وسيظهر هناك بعد فترة.

ود لو صرخ في وجه كل منهم:

- «أمك اسمها سوسن».

قبل أن يعود، طلبه أمين الحزب وسأله أن يحشد فريق محامين قويًّا هذه المرة، ليس لتبرئة علي، فهو لن يفلت، لكن لمحاولة تخفيف الحكم عنه وإثارة التعاطف معه.

- يخرج منين؟ وحكم إيه؟

- ما تعرفش إن علي اتقبض عليه قبل ساعتين؟

جاءني فريد على عجل بالنبأ المحزن، ويرجوني أن أبقى في البيت لأني لا أحتمل كل هذا المجهود، وأنه سيذهب يستطلع الأحداث، فسبقته إلى الباب استعدادًا للسفر.

وصلنا إلى بيت كمال وبيننا علي طوال الطريق ينبعث صوته ورفاقه من «تسجيل» السيارة بعد أن وعد السائق الركاب بأن يسمعهم شريط «أمك اسمها سوسن»، فلا خوف من ذلك ما دامت السيارة تجري على الطريق بعيدًا عن آذان الأمن.

يسمع فريد المقاطع التي سجلها بصوته وينظر إليّ، فأتجاهل نظراته وأشير إليه بأن يصمت خشية أن يتحدث فينتبه أحد إلى صوته.

قبل بيت كمال بأمتار، وقف فريد كأنه انتبه إلى شيء. سألني إن كنا سنجده في بيته، ليروي لنا ما وقع قبل أن نسأله.

كان موجودًا وحمدنا الله أن الأمن لم يضبط علي في بيته، بل خارجه وعلى مسافة بعيدة.

- وكيف خرج إذًا؟

فوجئ كمال بسوسن وصفي تزوره وتدعي قلقًا على صديقه علي الذي سامحته رغم محاولته قتلها، لكن كل من شتمهم في التسجيل الملعون لن يسامحوه.

تحسب كمال لمحاولتها الإيقاع به أو تسجيل حديثهما، فشاطرها القلق الزائف على علي الذي قاده اندفاعه وخيانة البعض له إلى ما فيه الآن.

أقسمت له إنها -رغم كل شيء- تحب علي، بل تحبه أكثر من هذه البنت الألمانية التي منحته نفسها، كغيره كثيرين، منذ كانوا في البعثة.

لم تنكر أنها أخطأت في لحظات ضعف، لكنها تحب علي. فضل كمال الصمت، فانصرفت وهي ترجوه أن يبلغها إن اتصل به علي أو علم عنه شيئًا.

سمع علي من غير أن تراه سوسن كل ما قالته، ولولا حرصه على كمال لظفر بروحها هذه المرة في منزله.

بمجرد أن غادرت نزل إلى كمال يشكره على ما فعله معه مصممًا على تعقبها، فمنعه وأقنعه بالهدوء لأن التفاصيل التي تطوق حياته أهم من انشغاله بها.

غاب كمال لدقائق لإعداد شيء يشربانه وفزع حين عاد بأن علي ليس موجودًا في البيت.

بمجرد أن ابتعدت عن بيت كمال هاجمها علي وهو يقسم لها إنها لن تنجو منه هذه المرة، لكنها أفلتت بصرخاتها التي استنفرت كل من في الشارع وانتهى به الأمر في قبضة الأمن من غير أن يعرف أحد أن كمال الغرباوي كان يأويه، إلا أنا وفريد.

منحنا كمال مفتاح شقة علي، فتفهمنا ما لم يقله عن رغبته في إبعاد نفسه عن أي شبهة، فتوجهنا إلى هناك لنفكر فيما سنفعله لعلي.

***

زار ناصر وعفاف ابنتهما مريم مرات قليلة في بيت حسن بعد خروجها من المستشفى، وفي مستشفى الأمراض العقلية.

لا يجيد ناصر التعامل مع الشوارع والعناوين ويتعثر في التنقل بين المواصلات، وزوجته ليست بأفضل منه.

لذلك، أحمل عبء الاطمئنان عليها ورعاية شؤونها أنا وفريد، لكن ناصر وعفاف حين أدركا أن انشغالنا بعلي قد يطول هذه المرة ويؤخرنا عن زيارة مريم، قررا أن يتكفلا بالمهمة هذه المرة. وخشية أن يتوها في القاهرة أو يصيبهما مكروه، استعانا بالسيد صابر رفيقًا في الرحلة المحفوفة بالغربة والخوف بالنسبة لهما.

منحهم الأستاذ مصطفى رشدي عنوان شقة علي الذي تركه له في أحد لقاءاتهما طالبًا أن يزوره فيها في أي وقت.

وبعد أن قضوا معظم النهار مع مريم جاؤوا إلى الشقة التي نشعر فيها أنا وفريد -نحن الفلاحين المعتادين على البراح- بالاختناق، خاصة أننا ننتظر منذ أيام خبرًا عن علي الذي اختفى في دهاليز الأمن وأغلقت خلفه أبواب التفاصيل التي تطمئننا.

تعلم فريد أن يروض قلقه بأن ينزل إلى السوق كل صباح متعللًا بشراء إفطار أو غيره، وأنا أعلم أن الانتظار الذي لا نعرف مداه يقتله.

حاول أن يقنعني بمرافقته حتى لا أتيبس في مكاني، لكن شعورًا بالعجز عن الوقوف أو المشي يقتلني.

كلما كانت الجراح سخينة لا أشعر بالألم ولا أنتبه إلى النزف، إنما في الأوقات الفاصلة بين مصيبتين كالتي نعيشها قد يجد الألم متنفسًا في أجسادنا يطل منه.

هل هو فعلًا وقت فاصل، أم أنني يجب أن أعترف أن العظم وهن مني واشتعل القلب شيبًا؟

تدلك عفاف زوجة ناصر قدمي بينما أضعهما في ماء ساخن، لكنها

تلقي في وجهي سؤالها الحارق:

- هي مريم خلاص كده يا حاج مفيش منها رجا؟

لم تعتد عفاف أو صباح السؤال كثيرًا عما يدور حولهما، يثقان في إدارتي للأمور ويتعلم أولادهما أن القرار عندي دائمًا، الآن لست أفهم من عفاف بأمومتها التي تفجرت حزنًا لمرأى ابنتها في مستشفى الأمراض العقلية.

أكملت عفاف استفسارها دمعًا لم يقف في وجهه ناصر بكل ما فيه من خشونة تبلغ حد القسوة

أحيانًا، ولا أحد منا، تركناها تخرج ما استقر في أعماقها سنوات حول ابنتها ولم تتصور أن يرتقي إلى درجة إيداعها مستشفى المجانين.

أشعر مرة أخرى بضيق المكان، وحتى إذا قرر أحدنا أن ينأى بنفسه بعض الوقت، فأين يذهب؟

ما أضيق القاهرة على سعتها؟

وما أبعد الناس فيها على كثرتهم؟

ورغم أي شيء، لا يمكن أن أترك علي وحده، فهو ليس ضائعًا في «مولد» أو مختبئًا في «جرن» وسيظهر بعد فترة.

يتصل كمال الغرباوي ليعرف أخبارنا، ولا جديد عندنا، فأسأله عن أخبار علي، فلا يضيف شيئًا، لكنه ينصحنا بأن نغادر إلى القرية، فقضية كالتي يواجهها علي لا تخضع لقواعد الزمن أو الإجراءات ولا أحد يتوقع تطوراتها.

كنت أثق أنه سيتكفل بالتعامل مع أي أمر يستجد بالنسبة لعلي، لكني، مرغمًا أوصيته، فأقسم إنه مكاننا هنا، فارتحلنا.

***

اجترأ ناصر وعفاف على الطريق إلى مريم وحدهما، بقيت وفريد في القرية في انتظار ما يجيء.

هو حظ أمينة التي أهملناها فترة بغير قصد وكلما سنحت فرصة لمزيد من الاهتمام بها التهمتها الأحداث. تأتي إلى حضني كالصغار حين تخذلني قدماي فأستسلم في سريري، وحين أخرج إلى «الجرن» تتبعني متشبثة بجلبابي كبقية أفراد العائلة.

يذهب فريد إلى المدينة كل عدة أيام لعله يكون أسبق مني إلى معرفة شيء عن علي في الحزب أو مكتب الصحيفة. يرفض طلب مدير المكتب أن يكتب يوميات عن ابن عمه، لأنه –ببساطة- لن يقتات على جثته كما قال لي.

ثقيلة الأيام، متشابهة، فهل هي كذلك أيضًا لعلي الذي ألمح ظله في كل ركن؟

أجلس في الجرن ذات صباح ألتمس من الشمس بعض العافية، فيأتيني ناصر وعفاف العائدان مساء أمس من زيارة مريم.

خلف ملامح عفاف شيء ما يحاول ناصر قمعه فتستنجد بي.

تتردد، وتنظر إلى ناصر أكثر من مرة ثم تتجاهله تمامًا لتقول ما لديها:

- شفت واحدة في المستشفى عند مريم شبه...

- شبه مين يا بنتي؟

- شبه سامية.

- سامية مين؟

- أم علي!

تنطلق غير عابئة بناصر في الحديث عن امرأة لفتت نظرها في المستشفى وأحست أنها تعرفها. اقتربت منها أكثر ولم يصعب انحناء ظهرها وتبدل ملامحها معرفتها بها.

إنها سامية. صرخت في ناصر، فوصفها بالمجنونة. تجاهلت وصفه وسألت الممرضين عمن تكون هذه المرأة فقالوا إنها تقيم في المستشفى منذ أتى بها شخص وجدها مشردة قبل سنوات طويلة.

أطعمت عفاف المرأة من بعض ما تأخذه لمريم رغم أنها رفضت الحديث إليها، وبعد أن شبعت انزوت في ركن من ساحة المستشفى.

رمى ناصر زوجته بالجنون، وهذا غاية جهده، أما أنا فناديت فريد أخبره بما تقوله زوجة عمه، فاتخذ موقفًا وسطًا، لا يكذب ولا يصدق.

عزمت على أن يصحبني بعد أيام إلى المستشفى من غير أن يُشيع شيئًا عن الموضوع حتى نحسمه. سندخل لزيارة مريم ثم نتتبع المرأة التي وصفتها عفاف.

بقي قلبنا مع مريم وعيوننا تتبع المرأة، نجوب ساحة المستشفى تتوسطنا مريم في نزهتها المعتادة ولتكون وسيلتنا إلى الاقتراب من المرأة المنفردة في نفسها بأحد الأركان.

اقترب منها فريد عارضًا عليها برتقالة ولما استدارت صدقت رواية عفاف!

إنها سامية، أو بقاياها.

ليس لظهورها أي معنى الآن -هكذا قلت لنفسي- بعد أن أوشكت مأساة علي على الاكتمال. هل يلجم مصيره معرفته أننا عثرنا على أمه وفي مستشفى الأمراض العقلية التي لا يعرف أن مريم أيضًا فيها.

سأدعه الآن في دائرة العقل، فجنون الأمن في التعامل معه يكفيه، لكنني لا أستطيع أن أخفي مكان سامية عن العائلة أو أهلها أو بقية أهل القرية، ولو لم يخرجها ذلك من هنا.

أخبرنا مدير المستشفى بمن تكون سامية، ومنحه غياب الدليل مساحة للشك فينا فوعدناه بأن نعود إليه قريبًا به.

هللت القرية لظهور سامية التي أنفقت ليالي في البحث عنها في قاع البحر، وبقيت غصة في الحلوق سببها المكان الذي وجدناها فيه وغياب علي في أقبية الأمن.

تعاونا مع أهلها في جمع كل الأوراق التي تخصها وبلاغ غيابها ونزعنا -لأول مرة- صورة زفافها إلى مسعد من غرفتهما المغلقة، وذهبنا في مجموعة كبيرة إلى المستشفى نثبت أن المرأة التي عاشت طويلًا فيها بلا هوية هي سامية، ولم يغير ذلك من الأمر شيء، فعلاجها يفرض أن تبقى هناك!

***

أغلق ملف هروب سامية التي تقاطر أفراد من أقاربها وأهل القرية لزيارتها، لكن الأمن فتح ورقة

جديدة في ملف علي بإعلانه عن هروبه من مستشفى الأمراض العقلية.

ألم يكن علي في قبضة الأمن؟ من ذهب به إلى مستشفى الأمراض العقلية؟ ولماذا؟

أجاب الأمن عن أسئلتنا وغيرها من أسئلة تناثرت في صحف المعارضة والجلسات برواية دحضها خطاب من أحد المعتقلين معه وصله مهربًا إلى فريد مع محام التقاه في إحدى جلسات محاكمته.

مضت أيام علي منذ القبض عليه بوتيرة واحدة، فهو الوجبة اليومية على مائدة التعذيب. مقاومته فشلت أمام الصفعات والضربات المتلاحقة، وصراخه في الأيام الأولى لم يشفع له، ثم فقد القدرة عليه.

تعذيبه لم يطل، فجسده بما فيه من مرض لم يعد يغريهم، إنما روحه التي كانت تسخر منهم وتطاردهم بعبارته الشهير «أمك اسمها سوسن» ظلت هدفًا لهم يرمونه من كل اتجاه.

أعادوا قصة هروب سامية، وفاجأوه بابنة عمه الملقاة في مستشفى المجانين، أسمعوه تأوهات سيليرا في أحضانه، ومجون سوسن في فراش المخرج فأخرسوا لسانه، وأخرجوا ألسنتهم له تدميه بصرخته هو:

- «أمك اسمها سوسن».

تكلم الدم المنطلق من صدره بما لم يقدر عليه لسانه. عجل انهيار روحه بتهاوي جسده وخشوا أن يموت في عهدتهم، فبعثوه مع تقرير يزعم معاناته من خلل عقلي إلى مستشفى الأمراض العقلية، ثم أشاعوا هروبه منه.

كيف يهرب عليل محطم مثله؟ وكيف أتته قوة التفكير والتخطيط؟ لا شك أنهم فتحوا لعلي الأبواب ليغقلوا القضية عند هذا الحد بعد أن بدأها بلسانه الحاد وأكملوها بأيديهم الباغية.

الكل يعلم كيف سارت الأمور بغض النظر عن الجهل بالتفاصيل، لا يمكن لمن يعرف علي أن يستسلم لفكرة الخلل العقلي، لكن «المجنون» أصبحت الصفة اللصيقة به في الصحف الحكومية ومجالس من عاش واثقًا من تآمرهم عليه.

انتظرنا منذ اعتقاله أن نعرف مكانه ونطمئن عليه، وها نحن مثله خطانا ضالة لا نعرف إلى أين تنتهي بنا.

لننتظر هنا في القرية، حيث تكويني وفريد خشية أن يلصقوا به بعد أيام تهمة قتل سوسن أو صديقها المخرج أو أي شخص آخر. تقاسمنا -عن بعد- هذه الخشية مع كمال الغرباوي، اتصل به فريد من سنترال القرية على هاتف منزله يستشيره فيما نفعل لنجد علي ونحبط أي مسعى لتوريطه في أمر جديد.

تعهد كمال لنا ولسيليرا التي لاحقته بالاتصالات من ألمانيا، ببذل كل جهد لإنقاذ علي ونجح بعد أيام في العثور عليه في حديقة خائر القوى مشتت الذهن.

حين اتصل به فريد ثانية طمأنه وناشده أن يستبقيه في بيته حتى نذهب إليه، فأخبره أنه فعل ذلك

واستدعى له أطباء يسعفون جسده.

بقي علي في منزل كمال الغرباوي أسبوعًا شمله فيه بكل رعاية، وما إن ظهرت بوادر التعافي حتى هرب منه مجددًا.

هام علي في الشوارع والأمن يتعقبه، فرجاله كانوا يعرفون أنه في منزل كمال وهو يعرف أنهم في أثره.

خطواته المتمهلة غارقة في دخان سجائره، وبعض من يعرفونه من المارة يتجنبون مساره.

لا شيء أوضح في ذهنه الآن من خريطة المتآمرين والخونة، كما يصر على تسميتهم، ولا يعرف من أين يبدأ.

سوسن وصديقها الآن أحقر لديه منهما في أي وقت مضى، معركته معهما حسمت، ولو بهزيمته. هما جبهة في الحرب ضده، ورؤوس من يديرونها هي المطلوبة. لن توصله قلة حيلته وهوانه على وطنه إلى كل الرؤوس فليتخير أحدها.

يقترب من منزل وزير الداخلية. يستحث مراقبوه خطاهم ليقطعوا الطريق عليه، لكن صوته الواهن يسبقهم بالهتاف:

- يا سيادة اللوا. أمك اسمها سوسن.

- يا سيادة اللوا. أمك اسمها سوسن.

- يا سيادة اللوا.

تقطع الضربات والركلات المتلاحقة على كل جزء في جسمه الطريق على صراخه، فيذوي بينما الأذرع تحمله وتلقي به في مكان بعيد.

***

سيزيف المعذب بصخرته، سيزيف المعذب بصخرته، هكذا ينهي فريد مكالمته مع كمال الغرباوي يأسًا من نجاة علي.

- سيزيف مين يا ابني؟

- علي هرب تاني من بيت كمال يا حاج. وربنا يستر.

بقيت الحياة في جسد علي النحيل أقوى من إرادة قاتليه، لكن النزال لن يستمر طويلًا، فلا تكافؤ بين الطرفين، ولا صمود للكلمة أمام المؤامرة التي يتصورها.

لم يبق في جسم علي مكان لجرح جديد ليضرب، ولا في روحه موضع للانتهاك فيسجن، وأدارت له القاهرة ظهرها، أو هكذا رأى كبارها ذلك.

وعندما قرروا التخلص منه نهائيًّا ألقوا به على مشارف القرية لينزف عمره كله فيها ويعود إلى ترابها فيبقى عنوانًا لمن يجترؤون على الحلم أو ينازعون المتربحين -من ثبات الأفكار والأوضاع-

مكاسبهم.

وجد مزارعون علي ملقى في الصباح الباكر بين الحقول يتوزع الدم على أنحاء جسده وملابسه ممزقة، فحملوه على عجل إلى البيت يتبعهم متطفلون وعدد من أهل الشارع.

صباح أول من تلقفه، صرختْ فخرجت وفريد نستطلع الأمر.

حملوا علي إلى سريري، فسارع فريد إلى تبديل ملابسه ومحو الدم المتجمد على جسده وآهاته العاجزة مستقرة في قاعه تجاهد للخروج.

أتى طبيب أفرغ فيما تبقى من عروقه مرئيًّا بعض الحقن وترك وصفة أدوية تعينه على البقاء ريثما نعرضه على أطباء أكثر خبرة متخصصين في الأمراض الصدرية والكبد.

رعت صباح وعفاف وهن علي، وبقيت وفريد حارسين لا نطلع أحدًا على طفولته التي عادت وفرضت نفسها عليه. أوصدنا الأبواب في وجه الراغبين بزيارته حتى بدأ يتمالك نفسه وطلب أن ننقله إلى غرفة أبيه ونسمح لأصدقائه بزيارته.

فتحنا غرفة مسعد ليدخلها هواء حرمت منه طويلًا ونفضت عنها صباح وعفاف غبار السنوات القاسية التي لم ننسها أبدًا لكن تفاصيلها تدفع بعضها بعضًا حتى اكتملت المأساة.

حسبت فتح الغرفة حياة جديدة تنغصها أمينة رغمًا عنها حين تراقب علي في السرير وتزغرد لأن مسعد جاء بالسلامة، ثم تنصرف.

من تعلقت عيونه أكثر بالغرفة هو علي ابن فريد، أمعن في النظر إلى تفاصيل الجسد النحيل يستكثر بعقله الطفولي أن يكون صاحبه من يشغلنا ويشغل الكثيرين.

أفاق علي على الصغير وهو يتمعن فيه فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مجهدة وإشارة بالاقتراب.

سأل علي الصغير إن كان يعرفه فباغته بالإجابة:

- أنت عمي علي سيزيف.

- مين اللي قال لك كده؟

- سمعت أبويا بيقول اسمك لجدي.

منذ ساعتها لم يغادر ابن فريد جوار علي، حتى حين زاره أصدقاؤه الذين سجلوا معه الشريط، كانت عيناه تتعلقان بحوارتهما التي تعقبها ضحكات أو شتائم من علي لأسماء لا يعرفها الصغير.

كلما حاول فريد إخراج ابنه من الغرفة حين تتجاوز الألفاظ والشتائم حدود براءته، أبقاه علي كأنه يتكئ على ذاكرة غضة تصون جزءًا من حياته من غير انطباع تفرضه تفاصيلها السابقة.

بدا كأنه يبرئ نفسه أمام صغار العائلة الذين تبعوا ابن فريد إلى غرفته، مما سيتركه لهم من تهم الجنون أو المجون أو الضلال يلاحقهم بها الناس.

خشيت أن يسلك أحدهم مساره فيجدد للعائلة حزنها، فكنت أفرق اجتماعهم حوله، لكن علي الصغير

يراوغني ويقيم حوله يسمع منه أو يراقبه نائمًا.

تولى فريد ترتيب زيارة علي لطبيبين في القاهرة واتفق معه على أن يصحوا مبكرًا بعد أن رتب مع سائق من القرية أمر توصيلهما وإرجاعهما.

اندهش فريد من موافقة علي السريعة وهو الذي لا يحب الأطباء ولا يقصدهم إلا مضطرًّا. بدا له مطيعًا على غير العادة، تناول سلاطة أعدتها صباح وبرتقالة ودخن سيجارة.

مازح فريد طالبًا معروفًا أخيرًا منه: زجاجة خمر، فنهره.

استسلم علي صامتًا لأبوة فريد المعتادة، بل طلب كطفل احتضانه قبل أن يخلد للنوم، فاحتواه فريد وهو يقاوم دمعة تأسى على كل ما فات وتكاد تطارد علي بالسؤال الذي رددته أنا كثيرًا:

- ما فائدة كل هذه المعارك التي استنزفت روحك؟

أغلق فريد الباب وخرج، وقبل أن يدخل إلى غرفته قابلته في الصالة أعرض عليه الذهاب معهما إلى القاهرة، فآثر أن أستريح. نزلت عند رغبته واستشرته في إبلاغ علي بوجود أمه مع مريم في المستشفى وأن يزوراهما ما داما ذاهبين إلى القاهرة.

رأى أن نصبر على هذه الخطوة، فعلي لا يحتمل صدمة جديدة، فما بالنا لو عرضناه لصدمتين بإبلاغه بالعثور على أمه، ووجودها في مستشفى الأمراض العقلية، فضلًا عن قربه من مأساة مريم.

وافقت على تأجيل الأمر، وما دمت لن أذهب معهما قررت أن أطمئن على علي وأشد أزره.

وجدته ينظر إلى صورة والديه المعلقة فوق جدار الغرفة.

شعرت به يضع نفسه بينهما وهو يكرر ما تمنيته مرارًا:

ماذا لو لم يمت أبي؟

ماذا لو لم تهرب سا... بل أمي؟

هل كنت سأصبح غير الذي أنا عليه الآن؟

هل الموت هو زعيم المتآمرين عليّ؟

أبغيره أصبحت سيزيف كما يراني فريد؟

أما آن لهذا الموت أن يرفع الصخرة عن كاهلي؟

متى يصير الداء دواء؟

لا شيء يمنعني من تجرعه؛ فلا ولد لي يضل من بعدي ويشقى ولا أخت يأكل النسيان ذاكرتها؟

جاء علي الصغير يتفقد عمه قبل أن ينام، استبشر به ووضع يده في يده، فأحسست أنه ينقل إليه راية المأساة!

طلب علي من الصغير شربة ماء، وأشار لي بالاقتراب منه، فوضع رأسه في حجري ثم أغمض عينيه وسافر بلا عودة.

***

أنظر إلى جسد علي المسجى بجواري وقد أغمض عينيه وبرأ من كل جراحه، وأستعيد ما قلته أمام مرقد مسعد «أي قبر يجرؤ على أن يحتويك يا ولدي؟».

أغطي وجهه وأنا أبثه جزعي وأتشبه أمام صمته الأبدي بأدائه المسرحي.

يا علي!

حسبت أباك آخر نموذج للعنفوان ومقارعة الحياة، لكنك فُقت كل حد. ذهب به جموحه بعيدًا، وملكت أنت ما لم نتصوره من قدرة على مقارعة الأقدار، وها أنت، مثله تعاقب.

كنت ظل هذا الفرع الأخضر من الشجرة، وفقدتكما معًا: الفرع والظل، كأن ضلعًا انتزع مني وبقي مكانًا فارغًا تنفذ منه النار فتزداد اتقادًا في روحي.

سامحك الله يا أم صلاح، ألم يكن بوسعك أن ترحلي قبل إنجاب مسعد وأمينة وترحميني من كل هذا؟

ماذا لو مات مسعد بغير زواج؟ ألم يكن ذلك كفيلًا بمحو صفحة علي كاملة بدلًا من أن أجد نفسي بجواره الآن أتشبث بالمستحيل وبكل «لو» ممكنة لأحتمل تصور أنه رحل؟

لن تفيد محاولاتي العبثية لترتيب الأقدار، الأولى أن أنشغل بتشييع الولد إلى جوار أبيه.

أفكر في انتظار أول ضوء حتى لا يزداد الليل ثقلًا بهذا النبأ، غير أني لا أحتمل وحدي البقاء إلى جوار جثة علي، هذا جنون.

أذهب إلى باب غرفة فريد وتمتنع يداي عن إيقاظه وهو الذي نام مستعدًّا لمرافقة علي إلى القاهرة.

أخرج إلى «الجرن» أبلغه بإسدال الستار على قصة حبيبه، فتستبين لي ظلمته حدادًا وصمته أنينًا مكتومًا.

هل أخبر أمينة؟

وماذا يجدي؟

يفاجئني أنها ترهف السمع لوقع خطاي؟ تقرب رأسها من الباب فتصطدم به خفيفًا وتسأل خائفة عمن في الخارج؟

أطلب منها أن تنام فتطمئن وتفتح الباب سائلة إن كان مكروهًا وقع لمسعد، فأجبتها على الفور:

- مات.

عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب وكأنها لم تسمع شيئًا.

خرج فريد من غرفته نصف منتبه ليعرف ما يدور وقبل أن ينطق بكلمة جذبته بسرعة إلى غرفة علي وأغلقت الباب.

رفعت الغطاء عن وجه علي فشهق فريد، وقبل أن تدوي صرخته في جوف الليل سددت عليها الطريق بيدي فاستسلم لانهيار جسده حتى جلس على الأرض.

نظرت إليه وهو يفتح نصف فمه ثم يتأوه بصوت خفيض كالمطعون، أجلس إلى جواره وأهمس له راجيًا بألا وقت للصراخ، وأن يستر مصيبتنا حتى يقبل النهار.

راح فريد في صمت يكاد يمزقه، أسمع جسده يرتج بصخب سيرته مع علي، تتلاحق الحكايات في روحه التي تتسع لسنوات من الالتصاق بينهما قبل أن تضيق بسرعة حتى يوشك على الانفجار.

لمت نفسي لتأجيل الإعلان عن وفاة علي، فقد يكون ثمنه فريد أيضًا الجالس إلى جواري الآن على أرضية الغرفة كما يفترش أهل القرية الطريق الرئيس في انتظار مواكب موتاهم الآتية من الخارج.

تسعفنا نحنحة المؤذن في ميكروفون المسجد قبل أن يفسح الطريق لقرآن الفجر الآتي من القاهرة.

يحل المذيع مكان مؤذن مسجدنا ليقدم القارئ، فإذا هو الشيخ حامد متولي يتأهب لقراءة ما تيسر له من سورة «مريم».

ينتبه فريد، ويتلألأ في ذاكرته صوت القارئ الذي عرفه وعلي صغيرين في مأتم مصطفى ابن الحاج سعد، وها هو يناجيهما من بعيد، لعل علي يسمع الآن تحيته «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا».

ينهض فريد ليقف أمام جثمان علي يعيد عليه سلام الشيخ حامد متولي، وينعيه إلى مريم التي انتبذت رغمًا عنها مكانًا قصيًّا لا تأكل فيه ولا تشرب ولا تقر عينًا.

بدأت القرية يومها على نبأ رحيل علي ينطلق من مآذن المساجد بعد صلاة الفجر تمهيدًا لتشييعه بعد الظهر.

أحمد الله أن جثمانه بيننا وليس في قبضة الانتظار كما كانت جثة أبيه الآتية من العراق.

لا حاجة لـ»الكلوبات»، فالنهار يضيء الفاجعة، صرخات صباح تصعد إلى مرتبة لا تستطيع عفاف بلوغها؛ خبرة الحزن فارقة، أما أمينة فتبكي مسعد ولا تقف عند تفاصيل.

دخل الأستاذ مصطفى رشدي يودع علي وتبعه السيد صابر وآخرون يجهزون «الأمانة» العائدة إلى ربها، لا أعرف من اشترك معهم ولا من عزاني عند البيت.

وعند المسجد، احتشد أهل القرية ينتظرون خروج علي بعد صلاة الجنازة.

يا بؤس أيامك يا علي، أحين يرفعونك يومًا على الأعناق تكون ميتًا ولا أحد يرى وجهك؟

يا بؤس رحيلك، كما حياتك، لا أم ولا ابن ولا زوجة ولا حبيبة في وداعك؟

انهض يا ولدي وفاجئهم بأنك تمثل وتدعي الموت لينساك المتآمرون، قل لهم إنك تمددت على خشبة الغسل بإرادتك ليرتبك حراس السجن فتجد بينها مهربًا.

حائر فريد بيني وبين علي ونحن في الطريق إلى قبره، يسندني مدة ثم يمشي تحت النعش، كأنه يقول لي: سامحني، أنت باقٍ، حتى لو تعثرت، لكن نصفي الآخر سقط ولم يستطع النهوض هذه المرة فأهالوا عليه التراب.

تفاصيل الوداع تتكرر، أصبحت أحفظها، لكني أشفق على هذا الولد المنكوب الذي لم يهزمه إلا الموت.

نعود إلى البيت من دونه، وحتى فريد الذي كان يسندني احتاج إلى من يحرس خطاه المهزومة ووجد في الأستاذ مصطفى رشدي ضالته.

تحتضن يد صغيرة يدي ويمشي صاحبها في ظلي، أنظر فإذا هو ابن فريد!

لا أخجل من دمعة تسقط من خدي على خده وتقول له:

- سيزيف قتلته الصخرة يا ولدي!

***

لا أستطيع منذ خرج علي من البيت أن أدخله، أرفض رجاءات كل من يقنعني بالراحة أو تناول شيء من الطعام.

أكل الموت مني حتى شبع وفي كل مرة أشيع فيها جزءًا مني أعود إلى هذا المكان.

يتوافد معزون أترك لناصر والأستاذ مصطفى رشدي والسيد صابر مهمة استقبالهم. أكتفي وفريد بالسلام عليهم ونحن جالسان وبيننا موضع لن يملأه أحد؛ لأنه لعلي وحده.

تخرج أمينة من حين لآخر ناعية مسعد وتملأ بصرخاتها المكان قبل أن تعود إلى غرفتها كأنها لم تفعل شيئًا، والنساء القادمات لمواساتنا بين مشفقة عليها أو علينا وبين موشكة على الضحك وتداري فمها بطرحتها.

صرنا بيتًا للعبثية، وما الجديد في ذلك؟

لست قادرًا على الاستمرار في مكاني، يرافقني فريد وأنا أتعثر في حيرتي أي سرير أقصد؟ أقوده أنا إلى غرفة علي، موضعه في السرير لا يزال دافئًا، لكن مسعد وسامية يكسران إطار الصورة يسالأنني بعنف عنه، فأقسم إني لم أضيعه، وإني حاولت جهدي أن أبقيه بينهما لكنه غافلني قبل ساعات وانسل هاربًا، لكن إلى قبره هذه المرة.

أعدهما بأن أعيده، أصيح فيه أن يرجع، لا يعنيني غضبه أو عناده ولا الوحوش الآدمية التي تنشب أنيابها في جسده النحيل.

أستنجد بفريد ليعاونني في إقناع علي بالعودة، فيأتيني ومعه وجوه أعرفها ثم يلحق بهم شخص يغرس في ذراعي شيئًا يأخذني إلى حيث لا أعلم.

أفتح عيني وفريد واقف إلى جوار السرير فيهمس لي:

- حمد الله على السلامة يا جدي.

- علي رجع يا ابني؟

- وحد الله يا حاج، ما صدقنا الإبرة نيمتك كام ساعة.

أخفقت مجددًا في استعادة علي، ولا أحد سيتحمس لقضيته هذه المرة. لا أعلم إن كان يقف وحيدًا الآن يسأل بغير محام ولا محبين يناصرونه فيخسر القضية، أم يرأف به سائلوه ويشفع له بؤسه الذي رافقه منذ كان بذرة في رحم أمه.

أسمع صوت معزين في اليوم الثاني ولا أستطيع النهوض لأشكر من يجلس في غرفة الضيوف أو من ضاق به المكان فبقي في الكراسي أمام البيت.

ينادي أحدهم فريد فيغيب دقائق ويعود خلف كمال الغرباوي الذي يدخل غارقًا في دموعه يلعن الصحف التي نعت إليه علي ويؤنب نفسه التي غفلت عن رقابته في بيته فهرب إلى بدايات حتفه.

يواسيه فريد بأن علي استراح وترك لنا جميعًا جمر مأساته مشتعلًا، يرجوه أن يهدأ ليشم في المكان رائحة علي التي سيغلق عليها المكان بعد العزاء حتى لا تهرب في أثره.

يدخل السيد صابر عارضًا على الضيف أن يتبعه لتناول الغداء ويرفض كل اعتذارته، فيقسم كمال إنه لن يأكل شيئًا إلا برفقتي.

أتحجج بعجزي عن الوقوف فيقطع كمال وفريد الطريق علي. استندت إليهما بينما يطلب مني السيد صابر أن أقوى كما اعتادوني.

تحلقنا حول طعام ولم نقدر على أن نمسه، أنقذني من الإلحاح على الأكل توالي المعزين من أصدقاء فريد وعلي في المدينة، هو الغائب الوحيد عن مجلس يستعيد حضوره الاستثنائي في حياة كل من عرفه. حتى أعداؤه وجدوا غريمًا غير معهود كلما تلقى طعنة تحولت آهاته إلى فضيحة لهم.

خسارته الأكبر أنه ذهب مرغمًا إلى المجهول، لكنهم سيلحقونه مهما استطال بهم الزمن وأدمنوا طعم الانتصار عليه.

وإن كنت حاولت وفريد حمايته وفشلنا، فلا باس من تكرار المحاولة، حتى لو غاب جسده.

لن يهنأ غرماؤه بفرحتهم لغيابه، لن تفلح مطاردتهم له -رغم رحيله- بتهمة الجنون أو الخروج على نظامهم المزعوم.

سأجعل من غرفة علي و»الجرن» مزارًا لمحبيه، وسيفي فريد بوعده أن يبقي إبداعه نارًا في حلوقهم.

عشه الذي بناه على الريح سأشد وثاقه إلى أرضنا لتنطلق منه كلماته محلقة تأكل غربانهم وتقول لكل منهم «أمك اسمها سوسن!».

***

لم ينس كمال الغرباوي ذكرى الأربعين، انضم إلينا مرة ثانية في عزاء لا ينفض كأنه لم يغادرنا في اليوم الثاني لرحيل علي.

لا يأتي وحده هذه المرة، معه سيليرا وعزاء جديد. قطعة من روح علي هربت بها إلى ألمانيا في أحشائها وجاءت بها تغرسها في أرضنا.

بيننا وبين سيليرا لسان ثالث يترجم هو كمال الغرباوي، غير أن مشاعرها تجاه علي لا تحتاج إلى وسيط، بل تخرج من شفتيها الصغيريتين وعينيها المتشحتين بالحزن إلى قلوبنا.

جلست سيليرا بين النسوة حول الطعام، وصباح تكاد تضعه في فمها إكرامًا لها ولعلي وبقاياه في بطنها.

لغة المحبة بينهما تكفي، ونظرات الحاضرات إلى سيليرا تحسد علي حتى بعد موته.

أود أن نستبقيها حتى تضع حملها بيننا فيفتح عينيه في غرفة علي وبين ما تركه من رائحة وأوراق فيها، ويتسلل تراب القرية إلى وجهه وأنفه ليقول له إنه ابن هذه الأرض.

شاركتني صباح وعفاف ما تمنيته، ونبهنا فريد إلى أن اللغة ستبقى جدارًا بيننا خلال الشهور المتبقية من حملها، ولم أكن في حاجة إلى جدران جديدة في البيت.

سلمتها مفتاح شقة القاهرة الذي أخذته من كمال، فاحتضنت المفتاح صامتة وودعتنا مع كمال عائدة إلى هناك حيث تبقى فترة ثم تعود إلى ألمانيا لمتابعة حملها مع الأطباء.

استحلفتها بعلي أن تعود لتلد في مصر، وألا تأخذ ورقة مما تركه بالشقة، فوعدتني أن تفعل.

لحقنا بها بعد أيام في القاهرة أنا وفريد وناصر وعفاف التي عاونتها في ترتيب الشقة وتنظيفها ورص ما حملناه إليها من مواد غذائية تغنيها عن قصد السوق كثيرًا.

اندهشت أكثر من الأرز المعمر والبط والخبز الفلاحي، وقالت كلامًا كثيرًا يبدو من ملامحها أنه امتنان لنا.

تذكرت أننا لن نستطيع أن نقيم حوارًا معها فأشرت إلى التليفون أستأذنها في استخدامه، وطلبت من فريد أن يطلب كمال الغرباوي يطمئن عليه ويعاوننا في نقل ما نود التعبير إليها.

سلَّم الغرباوي عليّ أولًا ورجوته أن ينقل لها أنها ابنتنا وألا تتردد في طلب أي شيء وأن تتذكر دومًا وعدها لنا بأن تضع ابن علي في مصر.

ناولت سيليرا السماعة فكان وجهها يزداد امتنانًا وتأثرًا مع ما يقوله الغرباوي على الطرف الآخر.

بقينا مع سيليرا حتى الظهر، وبالإشارة وبضع كلمات إنجليزية تبادلتها مع فريد ودعناها إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث سامية ومريم.

بعد غياب علي، شاورت أهل سامية في أمرها ورأيت أن نعيدها إلى البيت بعد هذا الغياب الطويل

وحتى يكون في وجودها بيننا قدر من العوض، ففوضوني كعادتهم في الأمر أتصرف كيف أشاء.

أيد فريد ذلك، بل عرض أن نعيد مريم أيضًا لنرمم جسد العائلة ولو كان عدد من أعضائه يعاني ما تعانيه سامية ومريم وأمينة.

فكرت فيمن يتحمل عناء رعاية الثلاث، فصباح لن تتأخر بلا شك، لكن صحتها لا تسمح، وعفاف قد تتولى أمر ابنتها مريم، لكن لديها غيرها.

هللت عفاف حين سمعتنا نتحدث في الأمر وأقسمت إنها لن تتوانى عن رعاية الثلاث، إن لم يكن إكرامًا لنا ولروحيْ مسعد وعلي، فتصدقًا عن عافيتها ورجاء في أن يكرمها الله في مريم.

القرار ليس ملكنا، لذلك استشرنا الأطباء في المستشفى، وغنمنا نصف ما تمنينا، فمريم يمكننا إرجاعها معنا بعد تحسن في حالتها شرط ألا تغيب عن عيوننا وألا نعرضها لصدمات، أما سامية، فلا أمل يرتجى من حالتها.

حتى اليأس يطال أمك يا علي، وحين نهتدي إلى ضوء يتلاشى على لسان الأطباء الذين جادلهم فريد، فاجتمعوا، آسفين، على أن صدمات عميقة حفرت في نفسها أخاديد من الرهبة من البشر والرغبة في الانعزال وفقدان الوعي بمحيطها، ما يستدعي بقاءها تحت الإشراف الطبي.

***

أمينة التي اعتادت ألا تسأل إلا عن مسعد، قابلت مريم حين دخلت البيت بسؤالها عن علي وإن كان أنهى دراسته في العراق.

أربكت أمينة يومنا الأول، فمريم تجاهد للربط بين علي والعراق وأنا أدعو عفاف إلى أخذها إلى غرفتها لتستريح، بينما فريد يتولى أمر أمينة.

استغربت مريم كل ما يحيط بها من تفاصيل، وبقيت قليلة الكلام دائمة التحليق في الوجوه والأشياء تعيد ترتيبها لعلها تعيدها إلى ما قبل صدمتها في علي وقبولها، يأسًا منه أو غضبًا، الزواج من حسن.

تتسلل إلى «الجرن» ولا تتوقف عن الالتفات يمينًا ويسارًا، وأنا وفريد نرقبها من بعيد، تقترب من مصنع السجاد المغلق وتتحسس قفله الصدئ.

تكاد تعرف أن لها ذكريات هنا وتتعثر في الرجوع إليها، ولا أحد فينا يساعدها في استعادتها، ففريد وارى جرح ما فعلته زوجته، ولا قوة لي تجعلني أواجه خروج طعنات الماضي من مراقدها.

وزعنا أمر مريم وأمينة بيننا، فرقابتهما، ما دامتا مستيقظتين مهمتي وفريد، بينما عفاف تدير بقية شؤونهما وتساعدها صباح قدر استطاعتها.

تحولت إلى ممرض أحفظ مواعيد الأدوية وحارس أحمي الاثنتين من نفسيهما ومن كل ما يضايقهما، وأختلس -حين يكون فريد موجودًا- أوقاتًا أطبب فيها نفسي، وأعزيها أحيانًا، وأيأس منها أحيانًا أخرى، أو أهرب إلى مسعد وعلي أشكو لهما ما بي، ثم أندم وأقول وأنا أودعهما:

- يكفي ما بكما.

تمضي الأيام رتيبة، لا يغير إيقاعها إلا ما يستجد من أخبار يأتي بها فريد من المدينة حين يزور الحزب ومكتب الصحيفة بعد أن أهمل عمله طويلًا.

أخبرني أن المخرج الذي كان على علاقة بسوسن مات، وأن هناك تلميحات إلى أنه فارق الحياة في شقتها بأزمة قلبية، فنقلته بسيارته حتى باب بيته وتركته فيها واكتشف الحارس وفاته.

لم أقل غير أن الموت يساوي بين الضحية والجلاد مهما طال الأمد، وأن قضيتهما انتقلت إلى عالم لا نعرفه ولا ندري إلام تنتهي.

تغير الوضع قليلًا باتصال كمال الغرباوي بفريد في مكتب الصحيفة يبلغه بأن سيليرا التي كانت سافرت ستعود خلال أيام إلى مصر لتلد بيننا كما وعدتني، لكنها ترجو أن يكون ذلك في مستشفى بالقاهرة حتى تجد الرعاية اللازمة.

تمنيت أن تكون الولادة في القرية وكنت مستعدًّا لتوفير كل ما يلزم من أجل أن يصرخ ابن علي أو ابنته بين جدراننا، ولم أشأ أن أعقد الأمور، فكل مصر وطن علي، كما قال فريد، ولا معنى للتمسك بمطلب قد لا يكون ذا وزن في ثقافة سيليرا التي تشكر على وفائها بالوعد بكل حال.

بعد عودتها بيوم، سافرت إليها أنا وفريد وصباح. رحبت بنا في شقتها حيث وجدنا في زيارتها صديقة لها تعمل في السفارة وتعرف العربية فسهل أمر التواصل معها بدلًا من اللجوء دائمًا إلى كمال الغرباوي.

رتبت صديقة سيليرا كل إجراءات ولادتها بعد شهر وأعطتنا عنوان المستشفى قبل العودة إلى القرية.

في الموعد، عدت مع فريد وصباح إلى القاهرة، وأدركنا سيليرا قبل دخول غرفة الولادة ، وبالقرب منها جلسنا في انتظار صرخة من يجيء.

حرصت صديقة سيليرا وهي ترى عيوننا معلقة بالغرفة على تهدئتنا، وجاملتنا بأنها محظوظة لأنها تزوجت علي ولأننا بجوارها.

خرجت الممرضة تحمل كلمة جديدة من روح علي، زغردت لها صباح وأجهشت وفريد بالبكاء.

عادت الممرضة بالولد الذي بشرتنا به، ودخلت صباح مع صديقة سيليرا تطمئنان عليها، قبل أن تصحبنا بسيارتها إلى الشقة لنبيت ثم نعود إلى سيليرا التي ستقضي هذه الليلة بالمستشفى.

***

بعد «سبوع» صممت أن يكون في القرية ما دمت تغاضيت عن موضوع الولادة، طلبت سيليرا أن يرافقهما فريد وصديقتها التي حضرت معها، إلى مكانين قبل أن تعود إلى القاهرة لاستكمال أوراق وليدها ثم ألمانيا.

زارت أولًا قبر علي، ووقفت تناجيه حاملة طفلهما بما لم يفهمه فريد إلا من دموعها ومواساة

صديقتها لها. وفي طريق العودة سألته أن يمرا على الأستاذ مصطفى رشدي لتعرف ذلك الرجل الذي حكى لها عنه علي حين كان يدرس في ألمانيا وقرر إن أنجب ولدًا أن يحمل اسمه، ففهمنا لماذا أسمت الولد مصطفى.

وقبل أن تغادر البيت أصرت أن تجلس مع مريم وأمينة التي كانت تحمل الطفل في حجرها بينما تكرر السؤال ذاته كل فترة:

- مش تقولوا إن مسعد خلف يا ولاد!

أما مريم فكانت تنظر طويلًا في عيني الطفل اللتين ثبتهما علي في وجهه قبل أن يرحل، ثم غادرتنا فجأة إلى «الجرن» تبثه ما بها.

شكرتنا سيليرا على كل ما فعلناه من أجلها وما أعددناه لها وصديقتها التي رجوتها أن تستحلف سيليرا ألا تغيب عنا كثيرًا بمصطفى.

ردت بوعد أحسست صدقه، ثم وضعت يدها على رأسها تتذكر شيئًا قبل أن تطلب شريط كاسيت لسورة «مريم» بصوت الشيخ حامد متولي.

أحضر فريد الشريط بسرعة من غرفته ونظر إليّ وهو يقول:

- تأكد يا جدي أنها لن تحرمنا من مصطفى.

قبلتها ووليدها، وفعل الجميع مثلي قبل أن نرافقها إلى سيارة اتفقنا مع سائقها على توصيلهم إلى شقة علي.

انتبهنا إلى أننا نسينا مريم وسط انشغالنا بسيليرا ومصطفى، فقصدت «الجرن»، فإذا بناصر على غير العادة جالس إلى جوارها وقد أبدى لأول مرة شفقة عليها ويبدو أنه آمن بخطئه منذ أن قرر الانفصال عنا وعزل نفسه بجدار استقر في وجدانه.

حين تزوجت حسن رأى ذلك فرصة للتخلص من ظل علي في حياتها؛ لأنه قنع أنه سبب كل البلايا، وعندما قادها تدافع الأحداث إلى القفز في النيل ثم البقاء في مستشفى الأمراض العقلية، كان يعنف عفاف ويسب ابنته التي ضيعت حياتها من أجل مجنون.

معاناة مريم بقيت دائمًا أكبر من رغبتي في معاتبته على ما تنقله عفاف شاكية من قسوة قلبه، ولا وقت الآن للعتاب، فهو في قلب مأساة ابنته ولا يملك الشجاعة للنيل من علي وقد رحل.

بكى ناصر، ونادرًا ما يفعل، أدركت في دموعه هوان الأب على نفسه حين ينهشه الألم على ولده.

ألقيت إلى جوارهما جسدي الذي جرب الألم مرات، إحداها اختيار ناصر فراقنا، وكان فراقًا كالموت.

احتضنته لأمتص بعضًا من ألمه وأخفف عليه:

- احمد ربنا يا ابني إنها عايشة وقاعدة قدام عينك.

عاد إلى بكائه وسألني يائسًا:

- وهي كده عايشة يا حاج؟

***

تفرق الجمع، عادت سيليرا إلى ألمانيا بمصطفى، وبقي كمال الغرباوي وسيطًا بيننا ينقل السلامات واللهفة إلى رؤية ابن علي، وزاد تأثر ناصر بحال مريم.

أما سامية فبقيت على حالها تستقبلنا وأهلها في زيارات لا تغير من وضعها شيئًا، بل إن حالتها تسوء مع الوقت.

وواصلت أمينة سجنها في غرفتها يفرض الشيب والوهن نفسيهما على جسدها بينما تعيدها ذاكرتها المطموسة -إلا من القليل- إلى طفولة بائسة تثير الشفقة بكل تفاصيلها.

كلنا نتناسى ما مر بنا إلا علي ابن فريد، يصر دومًا على أن أستعيد له رحلتنا المنهكة.

شهيته مفتوحة على حكايانا، وليس فيها ما يسر لنرويه، أخشى عليه من وطأة القصص المستعادة. أترك له بصيصًا من نور ينفذ منه هو والجيل الجديد من العائلة إلى مستقبل لا يشبه ماضينا ولا واقعنا.

يقف كثيرًا عند حياة علي الكبير، ظمأه للتفاصيل لا ينتهي، ورث التلظي بالأسئلة التي لا إجابات لها، مشغول بالموت وحياته في مستهلها.

أهرب به من حيرته المبكرة ما استطعت فيغافلني ويغرق فيها.

القليل الذي أخرجه له من أعماقي يجدد النار التي تطارد العائلة، فماذا لو قلت له كل شيء؟

يفاجئني مرة وهو يحاول تريتب أقدارنا بأننا نعيش عكس مجرى الحياة:

- الولد بيورث أبوه، بس أنت ورثت من عمي علي الصخرة، صخرة سيزيف. هو مات وارتاح وأنت بتتعذب بيها!

وأنت يا علي تمضي مجبرًا إلى دائرة العذاب نفسها. أحاول بما تبقى لي من قوة أن أمنعك بلا فائدة.

أخوك وبنات عمك، ما عدا مريم، لا ينشغلون بتفاصيلنا، يعيشون على هامش واقعنا لعلهم يفلتون من الدائرة الجهنمية، ومصطفى سيحتمي بأمه في بلد آخر. أما أنت فتحوم حول النار توشك أن تسقط فيها، كأنك توحي لي بنهاية دوري.

على كلٍّ، تقترب النهاية، فالسنوات تمضي حاصدة سامية وأمينة، وتكفل ناصر بدفن مريم حية في يأسه وجزعه المتأخر عليها.

أكبر مع جيل العائلة الجديد، وأشهد على بدايات أقدارهم، فأقابل عرسانًا يطلبون القرب منا، وأشم عطر قصص حب تبدأ في البيت وتسكن مكان تفاصيل من رحلوا عنه.

يبدو أنني سأخلي لهم مساحة إضافية، أشعر بقرب النهاية، أو بالأحرى أستدنيها.

أستسلم لضعف الجسد وقوة الرغبة في الغياب، ولا مكان يسعني الآن غير سريري.

طال عمري أكثر مما تصورت، هو في الحقيقة أكثر من عمر، لا أريد مزيدًا يعيدني إلى الارتباط بأقدار هذه العائلة التي لم تصادف هوانا مرة.

أصدقكم القول، مللت الحياة، هل كانت فعلًا حياة؟

فكرت مرات في أن أنهي الرحلة بنفسي، فالرحيل المبكر، كما طول العمر، مؤلم، لكني خشيت أن أترك للعائلة وصمة جديدة.

يكفيها ما ينتظرها، وربما تجد من يلعب دوري ويعيش ويموت مطاردًا بالسؤال الذي أعياني:

ما جدوى كل هذه الرحلة التي تحاصرها ظلمتان: ظلمة الرحم في البداية، وظلمة القبر في النهاية؟

الشارقة

فبراير ٢٠٢١